أمين معلوف

القرن الأول بعد بياتريس

مدونة أبو عبدو

رواية

ترجمة:
رُوز مخلوف

SBGS

القرن الأول بعد بياتريس

* أمين معلوف
* القرن الأول بعد بياتريس
* ترجمة روز مخلوف
* جميع الحقوق محفوظة للدار
* الطبعة الأولى 1997
* الناشر : ورد للطباعة والنشر والتوزيع
سورية ـ دمشق ☎ 3321053
* الاستشارة الأدبية : حيدر حيدر
* الإشراف الفني : د. مجد حيدر
* الإخراج الفني : دار الحصاد للطباعة والنشر والتوزيع
* التوزيع : دار ورد ☎ 3321053

أمين معلوف

القرن الأول بعد بياتريس

رواية

ترجمة: روز مخلوف

عنوان الكتاب الأصلي:

Le premier siècle
après Béatrice

إلى أمـي

أنتَ في حديقةِ نزلٍ في ضواحي براغ
زهرة على الطاولة وأنت تشعر بسعادة غامرة
بدلاً من أن تكتب حكايتك النثرية
تراقب السيتونيّة[1] النائمة في قلب الزهرة.

أبولينير

«مسكرات»

(1) نوع من الحشرات.

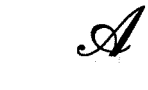

لم أكن خلال تلك الأحداث التي أُدوِّنها في هذه الصفحات، سوى واحدٍ من مجموعة شهود، أقرب من جمهرة المشاهدين؛ ولكني بمثل عجزهم. أعرف أن اسمي ذُكر في الكتب، وقد أَمَدَّني ذلك في السابق ببعض الفخر أما الآن فلا. كان بوسع ذبابة الحكاية أن تشعر بالابتهاج لأن القارب وصل إلى مرفئه بسلام، فبأي شيء كانت ستتباهى لو أن الرحلة انتهت إلى الهاوية؟ هذا ماكان عليه دوري تماماً في الحقيقة، دورَ حوّام لاضرورة لوجوده، رحالة سيء الطالع، لكني على الأقل لم أكن مخدوعاً ولامتواطئاً.

لم أسعَ وراء المغامرة يوماً، بل كانت المغامرة هي التي تتصيّدني أحياناً. لو تُرك لي الخيار، لكنت حصرتُ المغامرة ضمن تخوم العالم الوحيد الذي شُغفتُ به منذ صِغري، والذي مازلت مولعاً به وبشدةٍ بعد انقضاء ثلاثةٍ وثمانين عاماً، احتُفل بها كما ينبغي: إنه عالَمُ الحشرات، هذه الكائنات القزمة التي تستحق الاهتمام، والتي هي عبارة عن صورة مصغرة للأناقة، للمهارة، وللحكمة العريقة في القِدم.

اعتدتُ، أمام من أتحدث إليهم من غير المختصين، أن أوضح أنني لست مدافعاً عن الحشرات على الإطلاق. بوسعنا منذ الآن السماح لأنفسنا بأن نكون ذوي قلوب كبيرة مع الحيوانات التي يُطلق عليها وصف الحيوانات العليا، والتي

شعبذناها منذ عصر مبكر، نحن البشر، وذبحناها بكثرة وانتصرنا عليها مرةً وإلى الأبد، ولكن ليس مع الحشرات، فالمعركة بينها وبيننا ماتزال مستمرة، معركةٌ يومية وعديمة الشفقة، ولاشيء يدعو للتكهن بأن الإنسان سيخرج منها منتصراً. وُجدت الحشرات على هذه الأرض قبلنا بكثير وستبقى بعدنا، وإذا أمكننا أن نستكشف كواكب بعيدة، فسنجد عليها أمثال تلك الحشرات وليس أمثالنا، الأمر الذي سيعزّينا، على ما أظن.

ذكرتُ سابقاً أني لستُ مدافعاً عن الحشرات، لكني أحد المعجبين المتشددين بها بالتأكيد. كيف لاأكون كذلك؟ أية مخلوقات أفرزت مواداً أكثر نبلاً من الحرير والعسل ومنّ سيناء[1]؟ سعى الإنسان جاهداً منذ القدم لأن يحاكي قوام ومذاق تلك المنتجات التي تصنعها حشرات. ماذا يُقال أيضاً عن طيران الذبابة «المبتذلة»؟ كم من القرون سنحتاج كي نستطيع تقليدها؟ وذلك دون الحديث عن تحول اليرقة «البائس».

بمقدوري سرد الأمثلة إلى مالانهاية، لكني لست بصدد ذلك. لن يكون موضوع الصفحات التالية شغفي بالحشرات، وإنما فقط اللحظات الوحيدة من حياتي التي أعطيتُ فيها الأولوية في اهتمامي للبشر.

من يسمعني، يظنني بسهولة دباً كارهاً للبشر. لن يكون ذلك صحيحاً تماماً. فقد احتفظ طلابي بأفضل ذكرى عني ولم يُعِبْني زملائي كثيراً. كنت أحياناً اجتماعياً، دون إفراط بل لقد زرعت في أرض مستريحة صداقتين أو ثلاثاً، وكان منها على

(1) منّ سيناء: غذاء بُعث إلى العبريين في سيناء واسمه المن والسلوى.

الأخص كلارانس ومن ثم بياتريس وسأعود للحديث عنهما.

لنقل باختصار ودون كذب، أنني نادراً ما احتملت دويّ المشاكل اليومية، لكنني كنتُ على الدوام أولي كلّ جدالٍ كبيرٍ في زمني، اهتماماً متجدداً.

أحببت إلى أقصى حد، عصر شبابي بحماسه الساذج وجزعه الأحمق مع دنوّ نهاية ألف السنة الثانية، الذَّرَّة أيضاً وأيضاً، الوباء مجدَّداً، ثقوب داموكليس فوق القطبين. كان قرناً عظيماً، وفي رأيي، أعظم القرون، ربّما يكون آخر قرن عظيم. كان عصر الأزمات والمعضلات كلها. في العصر الراهنِ، عصر شيخوختي لا حديث سوى عن الحلول. خِلتُ دائماً أن السماء خلقَتْ المعضلات بينما خلقت جهنم الحلول. تدفَعُنا المعضلات بقوة وتذلُّنا وتطرحنا أرضاً وتجعلنا نخرج عن طورنا. وهذا اختلالٌ شافٍ فجميع الأنواع تتطور عبر المعضلات فيما تتجمد وتنطفئ عبر الحلول. أمن الصدفة أن تسمى أسوأ جريمة في ذاكرتنا «حلاً» و«نهائياً»؟

كلُّ ما أرقبه حولي الآن، هو هذا الكوكب الضامر، الكئيب، المظلم، هذا التدفق من الأحقاد وهذا الشعور الكوني بالبرد الذي يغلّف كل شيء كعصر جليديٍ جديد، أليس هو ثمرة «حل» عبقري.

مع ذلك كانت نهاية الألف الأولى عظيمة. كانت نشوة نبيلة، مُعدية، مدمرة، ومُخَلِّصة. اعتقدنا جميعاً أن النعمة ستعم الأرض بكاملها، وستحيا البلدان جميعها في ظلّ السلام والحرية والرخاء، أن التاريخ لن يُسَطَّرَ بعدَ الآن بأيدي الجنرالات والمنظّرين والطغاة، بل بأيدي علماء الفيزياء الفلكية وعلماء الأحياء، ولن يكون للبشرية، وقد شبعتْ، أبطالٌ آخرون سوى المخترعين ومَنْ يصنعون التسلية للآخرين.

أنا نفسي عُشت على هذا الأمل طويلاً، ومِثل أبناء جيلي كنت سأسخر غيرَ مُصدقٍ إذا تنبأ أحدهم بأن هذا القدر من التقدم الأخلاقي والتقني، قابل للارتداد وبأن هذا القدر من طرق التبادل قد ينغلق وأن الكثير من الجدران قد تعود للظهور وكل ذلك بسبب بليّةٍ موجودة في كلّ مكانٍ ومع ذلك غير مَشتَبَهٍ بها.

بأية خديعة شنيعة من القدر تَهدَّمَ حلمُنا؟ كيف وصلنا إلى هنا؟ لِمَ أُرغمتُ على الفرار من المدينة ومن كل حياةٍ مدنيةٍ؟ إن ما أتطلع لروايته هنا، بأكبر قدر ممكن من الإخلاص وأكبر قدر ممكن من الدقة، هو التفتح البطيء للمصيبة التي تلتف حولنا منذ السنوات الأولى للقرن الجديد، جارفةً إيانا إلى هذا التقهقر الذي يبدو لي، ألّا سابق له، في ضخامته وطبيعته.

رغم الهلع السائد سأبذل جهدي حتى النهاية أن أكتب في صفاء. في هذه اللحظة أشعر أنني في مأمن، في ملجأي على الجبل العالي. وقلَّما ترتعش يدي فوق دفتري القديم هذا، الذي مازال بكراً، دفتري الذي سأفضي إليه بُنُتَفي من الحقيقة. بل إنّي باستعادتي لبعض صور الماضي، سأستعيد حبوراً أسْعَدُ به لدرجةٍ أنسى معها أحياناً الدراما التي يُفترض أنني أرويها. أليست إحدى فضائل الكتابة هي جمع التافه والمميز على الورقة الأفقية ذاتها؟ في الكتاب يرتد كل شيء، تافهاً كان أو مميزاً، إلى كثافة حبرٍ، لا أهمية لها.

لكن لندع المقدمات! لقد وعدت نفسي بأن ألتزم الوقائع.

B

بدأ كل شيء في القاهرة، في أحد الأسابيع المليئة بالاجتهاد من شهر شباط، منذ أربع وأربعين عاماً. دوّنت حتى اليومَ والساعةَ، لكن ما فائدة إظهار الخفة والمهارة في التعامل مع التواريخ، يكفي القول إن ذلك كان في حدود عام ألفين. هل كتبتُ «بدأ»؟ قصدت القول إنه بدأ بالنسبة لي. يُرجِع المؤرخون أصل المأساة إلى زمن أبعد بكثير. لكني أضع نفسي هنا، في موقع الشاهد حصراً وعليه أرى أن الأمر خرج إلى النور حين التقيتها لأول مرّة.

قد يوحي هذا الدخول إلى الموضوع أنّي أنتمي إلى صنف الرحالة الكبار: موعد على ضفاف النيل، فهروب نحو الأمازون أو البراهمابوترا[1]... على العكس تماماً، فلقد أمضيتُ القسم الأعظم من حياتي على طاولة العمل، رحلاتي الأساسية كانت بين حديقتي ومختبري. الأمر الذي لا أشعر إزاءه من ناحية أخرى بأي ندم. كلّ مرة كنت ألصق عيني فيها بعين الميكروسكوب كانت بالنسبة لي هي الإبحار.

وحين يحدث وأسافر بالطائرة بالفعل، أيضاً تكون غايتي، دائماً هي رصد حشرةٍ ما عن كثب. تلك الرحلة إلى

---

(1) نهر في الهند

مصر كانت بخصوص الجُعَل. لكن هذا المنظور لم يكن مألوفاً بالنسبة لي. عادةً عندما كنت أشارك في حلقات بحثٍ، لم يكن الأمر يتعلق إلا بالزراعة أو الأوبئة، أما أن يكون ضيوف الشرف من نوع: قمل النبات، البروبيليا اليابانية أو بعوضة الملاريا أو ذبابة التسي تسي، كتنويعات مملّة على موضوعٍ قديم قِدَمَ ما قبل التاريخ، هو موضوع «أعداؤنا الحشرات»، فهذا يعني أن هناك ما يَعِدُ بأن لقاء القاهرة سيكون مختلفاً. وَرَدَ في رسالة الدعوة كلام عن «تقدير مكانة الجُعل في حضارة مصر القديمة: في الفن والدين، الميثولوجيا، والأساطير».

أفترض أني لن أُعلمَ أحداً شيئاً إذا ذكَّرتُ بأن الجُعَل كان مقدساً في العهد الفرعوني وكأنه أحد الآلهة، لاسيما النوع المعروف منه تحديداً باسم «الجعل المقدس» «Scarabeus sacer»، ولكن بوجهٍ أعَمّ، جميع أنواع تلك الحشرة الباسلة. كان يُظن بأن الجُعَل يتمتع بمزايا سحرية وأنه مؤتمن على الألغاز الكبرى للحياة. طيلة سنوات دراستي، أعاد كل أستاذ قول ذلك بطريقته الخاصة، وما أن حصلت على مختبري الخاص في متحف التاريخ الطبيعي حتى خضع طلابي أيضاً لتأثير الأهزوجة السنوية التي كانت تتغنى بالجعل مادحةً إياه وشغوفةً به. أيمكن للمرء تخيل ما تعنيه بالنسبة لاختصاصي في الحشرات من مرتبة مغمدات الأجنحة، معرفتُهُ بأن رمسيس الثاني قد سجد أمام إحدى تلك الحشرات الملتهمة للروث؟ كانت عبادة الجُعَل قد انتشرت حتى خارج الحدود المصرية، باتجاه اليونان وفينيقيا وبلاد ما بين النهرين، وقد اعتاد بعض جنود الفيالق الرومانية أن يحفروا شكل جُعل على مقابض سيوفهم، وكان الأتروريون

يصنعون حليّاً دقيقة من حجر الجمشت الكريم، على صورته.

أكرر، إنَّ الجُعل، بالنسبة للكيفية التي أنظر بها للأشياء، هو عنوان مجدٍ، ونبالةٍ، وكدت أقول، سَلَفٌ جليل من أسلافنا. قمت بالطبع ببعض القراءات والأبحاث حوله، فلم أقدر أن أضعه مع حشرة الغِلال تحت الشعار نفسه، إذ لم تولد كل أنواع الحشرات في الروث ذاته.

مع ذلك ومهما بلغ عمق أبحاثي، فقد شعرتُ في الحال أنني ضئيل جداً في المكان المخصص لي في مؤتمر القاهرة. فمن بين الخمسة والعشرين مشاركاً القادمين من ثماني دول، كنت الوحيد العاجز عن قراءة الهيروغليفية وعن تعداد الملوك الذين أطلق عليهم لقب تحوتمس وأمنوفيس، كنت علاوة على ذلك، الوحيد الجاهل باللغة القبطية الساسيديكية والقبطية السباخميمية، التي لم يجرؤ أحدٌ أن يسألني ما تكون. منذ ذلك الوقت، لم أسمع بتلك الكلمة مرةً أخرى قطّ، لكنني أظن أنّي نسختها بشكلٍ صحيح.

كما لو أن المؤتمرين قد تحالفوا بقصد إهانتي، فقد عمدوا جميعاً إلى تطعيم مداخلاتهم بمصطلحات فرعونية مسليّة جداً، لم يفكر أحدٌ بالطبع في ترجمتها لأنَّ هذا أمرٌ لايحدث في وسطهم. فمن غير اللائق وضع القدرات المعرفية للسّامعين، موضع الشك.

عندما حان دوري، تدبَّرتُ أمري كي أقول، نصف مازح، إنني رغم كوني لست بعالِم آثار مصرية ولا عالِم آثار عامةً، ورغم عدم معرفتي بأية لهجة قبطية، فلا أعتَبرُ جاهلاً تماماً، نظراً لأن اختصاصي يتضمن ثلاثمئة وستين ألف نوع من مغمدات الأجنحة المحصَاة آنذاك، أي ثلث المخلوقات الحية

كلها. عذراً لقلة الأهمية، المعذرة خاصةً من نفحة التبجح، ليس هذا من عادتي إطلاقاً، لكني كنت ذلك اليوم بحاجةٍ ماسّةٍ لذلك كي أتحرر من شعورٍ خانقٍ بالأمِّية!

أما وقد ذكرتُ هذه الملاحظة، وتحقَّقْتُ خلسةً من وقعها على وجوه مستمعي، أصبحت قادراً على مقاربة موضوعي، أي وصف عادات الغذاء والتناسل عند الجُعَل، وذلك للمساعدة على فهم الشيء الذي يُحتمل أنه بدا للفراعنه ورعاياهم، موحياً وغامضاً، وغنيّاً بالإرشاد إلى ذلك الحد في سلوك الجُعَل.

لا أحتاج للإشارة إلى أن قدماء المصريين وإن وُجِدوا قبلنا بأربعة آلاف عام لم يكونوا قوماً بدائيين. كانوا قد بنوا الهرم الأكبر. وإن كانوا قد انحنوا بانذهالٍ فوق حشرةٍ منهمكةٍ بِجَبْلِ روث البقر، فعلينا النظر إلى انبهارهم باحترام.

ما الذي كان يفعله الجُعَل؟ بالأحرى ما الذي يفعله عموماً؟ باعتبار أن العبادةً التي كان يُشكِّل موضوعها لم تغيرْ من سلوكه شيئاً.

بعد أن يحفر الجُعَل حفرةً في الأرض يقطع بأرجله الأمامية قطعة من الروث ويدحرجها أمامه كي تتماسك وتتدوَّر. وحين ينتهي من صنع كريَّته يدفَعُها إلى الحفرة. أو أنه، وهذه هي الأعجوبة الأولى، بدلاً من دفعها مباشرةً إلى الحفرة، يدفعها في الاتجاه المعاكس، إلى قمة كثيبٍ رملي صغير، وهناك يتركها لكي تتدحرج متجهةً مباشرةً إلى الحفرة لتعشش فيها.

نذكر هنا سيزيف؛ وفي الواقع، إنّ أحد أشهر أنواع الجُعَل يدعى «سيزيفوس». لكن المصريين رأوا هنا أسطورةً

أخرى ورمزاً آخر. إذ يعمد الجُعَل بمجرد وصول الكرة إلى الحفرة، لإعطائها شكل الإجاصة كي يتأكد من أنها لن تتحرك، ثم، وفي الطرف الضيق للحفرة، يضع بيضته التي ستخرج منها يرقة تجد في الكُريّة ما تقتات به عند ولادتها. تعيش هذه اليرقة هناك مكتفية ذاتياً حتى مرحلة نضجها، أي حتى يأتي جعل جديد ترك «قوقعته» ليكرر الحركات ذاتها...

قال المصريون لأنفسهم، إن تلك الكُريّة المتدحرجة ترمز إلى حركة الشمس في الفضاء. وتلك الجعول التي تُحطِّم نعوشَها المصنوعةَ من الروث ترمز إلى الانبعاث بعد الموت. أليست الأهرامات إجاصات عملاقة صنعت بخطوط مبسَّطة من الروث؟ أما كانوا يأملون بأنّ المتوفى مثله مثل الجُعل، سيخرج منها يوماً، كما خرج الجُعَل من حفرته وقد دب فيه النشاط من جديد، لكي يستأنف حياته.

إذا كانت مداخلتي قد تركت المستمعين دون أن تروي فضولَهم تماماً، فقد جاءت المداخلةُ التالية مداخلةَ عالِم آثار مصريةٍ، لامعٍ هو البروفسور كريستَنْسِن لتسندها وتُغنيها.

بعد أن شكرني البروفسور بتهذيب على التفاصيل التي أتيت بها بخصوص علم الحيوان، توسَّعَ أكثر كثيراً في الجانب الرمزي. شرح أنه انطلاقاً من الدور المفترض للجعل كمبشِّرٍ بالانبعاث بعد الموت، نُسبت إليه، سواء في الدين الرسمي أو في المعتقدات الشعبية، مختلف أنواع المزايا. نُصّب رمزاً للخلود وبالتالي للحيوية والصحة والخصوبة. صُنعت جعول من الحجر كي توضع في النعوش الحجرية، كما صنعت جعول من الصلصال المقسّى لاستخدامها كأختام.

نوّه المحاضر قائلاً: خاتَم يمهر في أسفل الوثيقة

ليصادق على مصدرها ويضمن حصانتها وبقاءها. كانت الجعول، كرموز للخلود، معيَّنة لهذا الاستخدام. ولو تسنى للفراعنة العودة للحياة، للاحظوا أن أوراق البردي التي كُدِّس أرشيفُهم الثمين على صفحاتها خلال آلاف الأعوام قد تَلِفَتْ كلها، بينما بقيت أختامُ الصلصال المقسّى على قيد الحياة، وبهذا تكون الحشرة قد وفت بوعدها في الخلود على طريقتها.

عُثِرَ على الآلاف من هذه الجعول ـ الأختام، التي جَمَع علماء الآثار المصرية حشداً من المعلومات عنها. كان الدانمراكي الذي بدا كَمَنْ تقصى كل قطعة موجودة في كلّ متحف في العالم. من شيكاغو إلى طشقند، قد أحصى لنا جميع التواقيع ـ تواقيع فراعنة وأمناء صناديق، أو تواقيع كهنَةِ أوزيريس ـ وكذلك الصِيَغ التي تحمل التمنيّات المرافقة لها ومن بينها تلك الصيغة التي تتكرر باستمرار مثل تعويذة تقول: «فليبق اسمك خالداً ولترزق بولد ذكرا!».

كي يَرفُّه كريستنسن عن الحضور الذي ربما يوصله هذا التكرار إلى الملل، أخرج فجأة من جيبه، علبة دواء صغيرة من الكرتون، أمسكها بين الإبهام والسبابة رافعاً إياها أمام أعيننا. كان في تلك العلبة حديثة الصنع، والمبتذلة، التي خُتمتْ بها مداخلةٌ كان موضوعُها على الدوام الذهب أو الزمرد أو الحجر المحفور أو المرصَّع، شيءٌ ما يبعث على الضيق. وكان ذاك هو الأثر الذي سعى الدانمركي إليه.

ـ ابتعتُ هذه مساء البارحة من ساحة القاهرة الكبرى، ميدان التحرير، انظروا، إنها برشامات مسطّحة على شكل حبات فول، يطلق عليها تحديداً اسم «فولات الجُعَل». يوجد في

داخلها مسحوق. تقول ورقة التعليمات بأن الرجل الذي يبتلعها سيحظى بقدرة فحولية، وأنه فوق ذلك سيكافأ على فحولته، ويرزق بمولود ذكر.

كسر عالِم الآثار المصرية، خلال حديثة، إحدى حبات الفول تاركاً المسحوق ينسكب فوق نص محاضرته.

ـ كما ترون، مازال بعض معاصرينا، ينسبون للجُعل، المزايا السحرية نفسها التي نسبت إليه في السابق. زد على ذلك أن الصانع ليس جاهلاً إذ توجد هنا صورة للجعل، يجب القول بأنها رسمت بمهارة، إضافة للترجمة العربية والإنكليزية للصيغة السلفية، التي أصبحتم تعرفونها الآن عن ظهر قلب وهي: «فليبق اسمك خالداً ولترزق بولد ذكر!».

دوّت ضحكة بالإجماع، هدأها كريستنسن، الممثل البارع، بإصبع متسلط وحاجب مرفوع كمن يستعد لإعلان نبأ مؤتمر علمي عظيم:

ـ عليَّ إخباركم إنَّ حبات الفول المذكورة قد كلفتني مئة دولار. لا أظن أن هذا هو سعرها الاعتيادي، لكني كنت قد أخرجتُ الورقة النقدية، التي انتزعها من يدي الصبي الذي كان يبيع تلك الأشياء، بابتسامةٍ ملائكيةٍ، قبل أن يسرع في الانسحاب. وهذا نوع من النفقات التي لن يقبل محاسب جامعة آرحوس أن يعوضني عنها أبداً!

توجهتُ في المساء ذاته إلى ميدان التحرير مصمماً على ألّا أعود دون أن أحصل على نموذج «لي» من «فولات الجُعَل» كي أحتفظ به للذكرى، ومصمماً بالقدر نفسه أيضاً ألّا أسمح

بأن أكون عرضةً للاحتيال. حَرِصتُ لحظة مغادرتي لغرفتي، أن أُخرج من محفظتي قطعة من فئة العشرة دولارات، وضعتُها بمفردها في جيبي الصغير قبل أن أزرر سترتي بعناية.

بعد أن أخذتُ حيطتي بهذا الشكل، كان بوسعي الانطلاق لاقتحام الساحة الكبرى، وهي مساحة شاسعة لاتفتقر إلى البشر، تتشابك فيها جسورٌ معلَّقةٌ للمشاة من المفترض أن تقلل ازدحام البشر، لكنها على العكس تزيده، مضيفةً إليه بُعداً ثالثاً. في وسط هذا الزحام الشديد من الجنود العاطلين عن العمل والموظفين المنهمكين بعملهم، في وسط هذا الدغل من المتسكعين والسارقين والمتسولين والمهربين من جميع الأصناف، رحت أبحث عن بائعي، الذي يبيع البرشامات أو بالأحرى حاولت قدر المستطاع أن أضفي على نفسي، من خلال هيئتي الساذجة مظهر السائح كطعم، لاجتذابه إليَّ.

خلال بضع دقائق، لفتُّ نظر بائعَيْن صغيرين. وضع الأصغر منهما من تلقاء نفسه، علبةً في يدي. أمسكت بقطعة العشرة دولارات وأنا مصمم على التظاهر بأصدق قدرٍ من الغضب إذا طلب أكثر من ذلك. أمام مفاجأتي الكبرى، دسَّ يده في جيبه ليعيد الباقي لي، فأشرت إليه أن بوسعه الاحتفاظ به، إلّا أنه أصّر على إعادة حقي لي حتى آخر «قرش». لمَ لانُشجِّع تدابير جديرة بالثناء إلى هذا الحد؟ لذا استسملت وسط هرج ومرج مُصمٍّ للآذان، بانتظار أن يتمكن بمشقة، من جمع المبلغ الذي عليه إعادته، في راحة يده. لم تكن سوى قطع خفيفة جداً، لكن المعنى هو المهم، أليس كذلك؟ شكرته مربتاً على كتفه ثم عدت إلى الفندق باحثاً بعينيَّ عن صديقي الدانمركي.

وجدته في البار جالساً أمام كأس بيرة من بلده أخبرتُهُ، وأنا أُريه باختيالٍ، ما ابتَعْتُه، بالسعر الحقيقي الذي دفعته. هنّأني على حذاقتي مشتكياً من سذاجته الكاملة التي يعاني منها عندما يسافر، وحين استعدّ ليسدّد حساب ما استهلكه، رجوته بتسامح متعجرف أن يدعني أفعل ذلك:

ـ لقد دفعتَ اليوم كفاية.

فككتُ زر سترتي فلم أجد شيئاً، لقد اختفت محفظتي.

لابد أنّي سأهمل ذلك الحدث التافه، وغير المشرِّف كثيراً لو لم يؤثر على تتمة الأحداث.

في الواقع، عندما تحدث كريستنسن عن تلك البرشامات أمتَعَني الأمرُ لدرجة أنّي وعدت نفسي بأن أروي النكتة لطلابي وزملائي بمجرد عودتي إلى باريس. سيقال إنها أكاديمية نموذجية. أوافق، لكن المهم ليس هنا: المهم هو أن «فولات الجُعَل» قد دارت في المتحف دورة كاملة خلال بضع ساعات، وأنه من بين الساخرين، نظر واحد على الأقل، إلى الشيء نظرةً أقرب. ربما كان ذلك سيساعد على حل اللغز في الوقت المناسب وتدارك المأساة...

بدلاً من ذلك سارعت فور عودتي إلى بيتي وقذفت بالشيء الملعون بين ركام دُرْج للأشياء المهملة، متمنياً ألّا أرى ثانيةً البرهان المادّي على غبائي.

بعد عشرة أيام ما عدت أفكر به، فلم يسبق أن سبَّبَ لي المالُ الذي أكسَبُه أو الذي أخسَرُهُ فرحاً أو ضيقاً دائمينْ. أما في حينه فقد خرجتُ عن طوري لأنني كنت قد خطَّطتُ لشراء

كتب قديمة من صاحبة مكتبة، نصحوني بالذهاب إليها في شارع قصر النيل؛ وكنت، أيضاً قد لاحظت في رواق الفندق صورة متلألئة للجعل على ورق بردي بالطريقة القديمة، كنت سأصنع لها إطاراً بمجرد عودتي. اضطررت، وقد حُرمت من كلّ وسيلةٍ للدفع، أن أتخلى عن هذه الأشياء وكنت مجبراً على قضاء اليوم الأخير من الرحلة، الذي تركونا فيه أحراراً، في غرفتي بالفندق، أقرأ وأعيد قراءة وثائق المؤتمر.

بقيت «فولات الجُعَل» إذن مخبأة في ذلك الدرج وسجينة زنزانة مظلمة داخل عقلي، فلم يكن من المفترض أن تظهر إلا بعد زمن طويل مع الأسف. وفي أثناء ذلك، حدث شيء هام هو مجيء كلارانس.

C

كان يوم اثنين، الاثنين الأول منذ عودتي من القاهرة. وكنت رغم ذلك، قد استأنفت كل عاداتي وأضعتُ كل ذكرياتي وحين قَدِم البروفسور هوبير فاڤر - بونتي في زيارته الأسبوعية لي، مرتدياً مريوله الأبيض، وفي كل من يديه كأس من القهوة يتصاعد منها البخار، لم نتحدث عن الجعول ولاعن علم الآثار المصرية، بل عن الصحفيين والجراد المهاجر.

الجراد، لأن زميلي جَعَلَ من تلك الآفة ومن الصحفيين اختصاصاً له، لأنّه في كل مرة يكتسح فيها الجراد بقعة من بقاع الأرض - أفريقيا السواحلية غالباً وكلّ خريف من ثلاثة، وسطياً - يُسأل فاڤر - بونتي عن ذلك، وهذا ما أكْسَبَهُ، بلاحقٍّ، امتيازاً في نظر العديد من الزملاء الذي اختاروا مثلي موضوعات للدراسة أقل ضرراً للبشرية، وبهذا حُكم عليهم، أن يمارسوا المهن الأكثر ألقاً، في الظلمة الأكثر حلكةً.

لو كان فاڤر - بونتي مدركاً لحظّه وللغيرة التي يثيرها حوله، لما أظهر شيئاً منه أبداً. حين كانت «آفتُه» تظهر، كان يُمضي نصف وقته في استقبال الصحافة والنصف الآخر في التذمر منها.

- أترى يا زميلي العزيز: يقف أمامك فتىً في عمر تلامذتك، وما أن تمضي في شرح مُعَمَّق حتّى يتوقف عن

تدوين الملاحظات ويحدق في السقف والرفوف أو يقاطعك في منتصف كلمةٍ ما، كي ينتقل إلى موضوع آخر. زد على ذلك أنك لن تعرف أبداً أية حماقةٍ سيعزوها في الغد، فحيث قلتَ: «جراديات على شكل قطيع»، سيجعلك تقول: «سربٌ من الجراد».

ربما كان فاڤر ـ بونتي يرمي فقط إلى التقليل من شأن الامتياز الذي يتمتع به، من أجل تحويل مجرى صواعق زملائه، لكنّي لم ألحظ في كلامه ذاك الصباح سوى تأنُّق لعوب مزعج ووقح بما فيه الكفاية. رغبت أن أضعه عند حده دون أن أتعدى حدود اللباقة.

ـ لم أتحدث إلى الصحافة من تلقاء نفسي كثيراً، وذلك فقط لأني لم أُسأل. في المرات النادرة التي أرادت فيها الصحافة فعلاً أن تهتم بي، أجبت فيها على الأسئلة باستعجال. أحْبَبْتُ، وأنا أشبه الجميع في ذلك، أن أُداعبَ غروري قليلاً. لكن ليس لأجل ذلك فقط، فلقد اعتبرتُ دائماً أنه يتعينَّ عليَّ، مراعاةً لتدابير الصحة العقلية، أن أخاطب كلما كان ذلك ممكناً، جمهوراً لايُقَيِّدُهُ أسْرٌ ما، أن أتوجَّه إلى مستمعين لاينتظرون مني علامة في نهاية العام. هكذا يُعالِجُ المرءُ عاداته الكلامية ويهذِّب رطانته. أنا لايزعجني قول «جراد» بدلاً من «جراديات» لن أقول ذلك لطلاب علم الحشرات، بل للجمهور الكبير، ولم لا؟

ـ وهكذا ستكون مستعداً لأن تقول: «سربٌ من حشرات الجراد تشخص بعيونها المفترسة إلى المروج الخضراء الشهية». حسناً، قل ذلك! هناك صحفيةٌ قادمةٌ إليَّ في الحادية عشرة، سوف أرسلها إليك، نعم، نعم، سأرسلها إليك.

ـ لستَ جاداً في ذلك يا هوبير، فأنت تعلم جيداً أنني لست اختصاصياً.

ـ أوَ تعتقد أنها سترى أي فرق؟

لستُ متيقناً من وجود أثر للمجاملة لي في تلك الكلمات ولا في البرطمة التي رافقتها. من ناحية أخرى أسرَعَ زميلي ورمى كأسه الفارغ بازدراء في سلة مهملاتي ثم غادر مكتبي مقهقهاً.

لم أحاول استبقاءه، فقد تحداني متظاهراً بأن الأمر يمتعه وسيمتعني كذلك قبول هذا التحدي.

هكذا دخلتْ كلارانس حياتي، الساعةَ الحادية عشرة وثلاث دقائق، ترافِقُها مدائحُ البروفسور فاڤر ـ بونتي «المشغول». ذلك المستمع غير الأسير، المستمع الذي لايُحابي والذي تمنيتُ أن أحظى به، سوف أحظى به طوال حياتي. مستمع لايحابي، إلّا أنه لايشهِّر، وعلى وجه الخصوص لايَنْفُر.

أشعُرُ، وقد وصلتْ الأمور إلى هذه المرحلة، أنّي مضطر لإدراج كلمة «حب» رغم أنها ككلمة، ليست أكثر علمية بكثير من كلمة «جراد».

حتى ذلك الحين، لم أكن قد التقيتُ إلّا شخصاً آخر واحداً يدعى كلارانس، وكان رجلاً، وعالِم حشرات اسكوتلندياً متبحراً جداً بالعلم وكهلاً جداً، أما كلارانس التي أحكي عنها فقد كانت أقل علماً وأقل كهولة، وكانت امرأة جداً.

أذكر أنّي نظرتُ أولاً إلى شفتيها، الشبيهتين بقاربين،

لونهما وردي عاتم مشرئبّتين نحو البعيد، مثل رسوم بعض الجداريات المصرية. ثم تأملت كتفيها طويلاً. من عادتي أن أطيل النظر إلى الأكتاف فهي التي تصنع أناقة الذراعين والعنق والجذع، والبشرة. هي التي تحدد الهيئة، والوقار، ورفعة الرأس، وتناغم مجموع الحركات والأوضاع، وبكلمةٍ واحدةٍ هي التي تحدد الجمال. كانت زائرتي ترتدي كنزة من الأنغورا الأبيض، فاقعة ولكنها ملبّدة، تنسدل من الناحيتين أعلى ذراعيها محيطةً بكتفين ناضجين شامخين، ناعمين، سمراوين وعاريين. هدية مقدَّمة بِخَفَر. غالباً ما توحي إليَّ الأكتاف التي تعرّت ببهاء، بحنانٍ غامر، ورغبة بمداعبة لاتنتهي وتوق إلى العناق.

رغم كل ما كتبته لتوّي، لن أكون كاذباً تماماً إذا أكّدت أن جمال كلارانس كان له تأثير قليل على ما تلا من علاقتنا. هذا لايعني أنني غير حساسٍ أو لم أكن يوماً حساساً تجاه الجمال، معاذ الله! لكنَّ فطنة الفؤاد، وحدها، هي التي تفتنني على الدوام، والتي تصبح إلهيَّةً حين تكتسي بالجمال ومؤثرةً حين تفتقر إليه.

عندما وصلت «الصحافية» كان يشغلني فقط ذلك النوع من المراهنة الذي عقَدْتُه مع فاقر ـ بونتي. لذا استفدتُ من اللحظات التي سبقت المقابلة كي أُعدّ ما سأقوله، من حيث الترتيب والكلمات. كان يتعينَّ عليَّ أن أكون واضحاً أمام الجمهور، وفي الوقت ذاته، بلا مأخذ يؤخَذُ عليَّ من المنظار الناقد لزملائي، كنت أعلم أنه لن تُغفر لي أية زلة لسانٍ.

جلست كلارانس أمامي تضم ركبتيها مثل طالباتي الأكثر

حياءً، لكنها بالنسبة لي، كانت هي التي تمتحنني. حين توقفتْ فجأة عن تدوين الملاحظات على طريقة أولئك الشبّان الذين يثيرون حنق زميلي، بتُّ محتاراً تماماً وتعثرتْ الكلماتُ في حلقي. أنْجزتُ كيفما اتفق، تحليقي بجملتين مقتضبتين، وغمغمت:

ـ ... لكني ربما أبتعد عما يثير اهتمام قرائكم.

ـ لا، على الإطلاق، أؤكد لك.

انحنيتُ من فوق المكتب أُنعم النظر علناً في مجمل ملاحظاتها.

ـ إذا كان هناك كلمة لم تلتقطيها، لاتترددي في طلب تكرارها، فكما تعلمين ليس التخلص من المفردات الخاصة سهلاً.

ـ أفهم تماماً كلّ ما تقوله. أرجوك لاتتوقف!

كانت ابتسامتها مشرقة واحتجاجها صادقاً إلى درجةٍ مؤثرة، فقط لم تكن جملتها «أرجوك لاتتوقف!» تعني «استمر في كلامك فهذا يثير اهتمامي»، بل كانت تعني بالأحرى: «لاتوقف الموسيقى فهي تهدهدني». اعترفَتْ لاحقاً أنها وَجَدتْني «ذا حضورٍ جميلٍ، وصوتٍ رخيم». أما في حينه فلم تجرؤ أن تطلق صفات غير لائقة إلى ذلك الحد لكن ملامحها نطقت بما لم تنطق به شفتاها. لم أعتدْ أن أكون مادةً للتفحص بهذا الشكل وانتابني شعورٌ غيرُ محتملٍ بأني في الجهة السيئة من الميكروسكوب. قلتُ أخيراً:

ـ لست واثقاً بأنّ هذا النوع من الشروح هو ما يحتاجه قراؤكم.

ـ شروحكَ تناسبني تماماً. فقط كنت أفكر بأمرٍ آخر.

أعلنتُ بأكبر قدرٍ من الروح الأبوية: كان عقلُكِ الشّاب ذاهلاً.

ـ إطلاقاً، كان عقلي الشّاب هنا بالذات، وكل ما أراه حولي يؤثر بي ويجعلني أحلم: هذا المختبر، وهذه الحديقة، النباتات، الحشرات، ومريول العالِم، نظاراتك العتيقة الطراز، وعلى الأخص هذا المكتب المهيب بِدُروجه التي تنغلق على هذا القدر من العلم الغامض والمعفَّر والذي سأكون غريبةً عنه طوال حياتي.

استعادتْ أنفاسها، نفضتْ شعرها الداكن إلى الوراء كمن يريد الاستيقاظ جيداً.

ـ ها قد قلتُ لكَ ما كان يشتِّتني. بالنسبة لك، لابد أن كل ما يحيط بك يبدو عادياً، بلا سحرٍ ولاشاعرية.

ـ اعترفُ لكِ بأن هذا المكان لم يعد يستهويني، أما بخصوص هذا المكتب، فهو يسبب لي القلق بالأحرى. أنت ترينه هكذا مهيباً، ضخماً، جليلاً، بينما تتأكّلُه وراء هذا المظهر الخّداع شبكةٌ من السراديب، تركض فيها مستعمرات من قارضات الخشب الجذلة. يتراءى لي أحياناً، عندما أتأخر في عملي مساءً أنني أسمع صوت أفكاكها وهي تعمل. وسيأتي اليوم الذي تكون هذه القارضات قد فلحت فيه بكدٍ لدرجة أنه سيكفي أن أضع حقيبتي في هذا المكان حتى ينهار كل شيء ويتقوض هذا المكتب الضخم والجليل من كل ناحية، متحولاً إلى كومةٍ من النشارة وخراء الحشرات. حينئذٍ فقط، ستفكر الإدارة بتزويدي بمكتبٍ آخر، إلا إذا انهار كل هذا البناء البالي في الوقت ذاته.

ضحكتْ زائرتي ضحكةً طربةً ونظرتْ إليَّ بتلك النظرة التي يتمنى كلُّ رجلٍ أن تنظر إليه النساء بها. اندفعتُ، نشواناً، منتعشاً، وقد شعرتُ باطمئنان ماكرٍ لكونها أعادتْ الغطاءَ لقلمها ووضعَتْه في مكانه، في خطابٍ بلا تحفّظٍ تحدَّثْتُ فيه عن متحف العلوم الطبيعيّة والأساتذة والطلاب والمدير، جدارية كاريكاتورية ضخمة، وغزيرة التفاصيل كانت ستشكل مادةً ممتعةً في اجتماع للكبار. أمّا أمام صحافية أراها للمرة الأولى...

صرختُ:

ـ لن تنشري هذا الكلام!

فقط بابتسامةٍ اغتصبتُها، تمكنتُ في اللحظة الأخيرة من ضبط صرختي القلقة. حدّقَتْ كلارانس بي دون أن تقول شيئاً. لم يسبق أن خضعتْ روحُ حشرةٍ لفحصٍ عن كثب بهذا الشكل. لاشك أنّي ندمت على ثرثرتي. كنت أعلم أن كلَّ كلمةٍ ستنشرها، قد تقصيني دون رجعة عن تلامذتي وزملائي وكل هذا العالم الذي اخترتُ أن أمارس فيه وجودي المفيد. ولكنّي لم أكن بصدد هذا، ليس بعد. قد أستسلم للندم في وقتٍ لاحقٍ، ربما بعد دقيقة، أو بعد ساعة، قد أشعر بالخجل في وقت لاحق. أما في تلك اللحظة، فقد كانت هناك نظرة المرأة تلك. لن أستطيع أن أحتمل أن يختفي منها ذلك الوميض من التقدير. كما لن أرغب، بأي ثمنٍ، أن أقلّل من اعتباري بأي توسلٍ دنيءٍ ووجِلٍ.

ـ والآن ـ قلت وأنا أتمطى ـ الآن وقد عهدتُ إليك بوصيتي، أستطيع أن أموت بسلام.

من خلال ضحكتها أدركتُ أني كسبت.

فاق الفوز كل توقعاتي وكان مقالها الذي نُشر بعد عشرة أيام عبارة عن قصيدة حبٍّ حقيقية للمتحف ولحديقته «واحة منسية وسط صحراء العمران»، «الملاذ الأخير للغزلان...، للعلماء على الطريقة القديمة أو شبه القديمة». لم يكن النموذج الذي قَصَدتْهُ من «العلماء على الطريقة القديمة»، أحداً سواي وقد دعته باسم سري «البروفسور G»، مشيرةً بتعابير ودودةٍ «إلى قامته الفارعة المنحنية بشدّة إلى الأمام بحيث لايقدر على الوقوف بشكل عمودي إذا لم يشكّل حذاؤه ثقلاً موازناً». لم تكتفِ، مستعينةً بغنائيتها، بأن جعلت مني باحثاً ومعلماً، بل سمحت للقارئ أن يظن أيضاً بأنّي أتفقد الحديقة والحيوانات يومياً. وكدت، إلا قليلاً، أكون من يطعم الغزلان بيده. لابد أنها كانت بحاجة لتلك الصورة من العبقرية الريفية كي تبرر عنوان مقالتها: «في جنّة البروفسور G»، الذي كان بمجمله، مزيجاً من الحقيقة ومن الخيال خرجتُ منه، عليَّ أن أعترف، وقد ازداد حجمي بشكلٍ فاحشٍ.

بالطبع، لاوجود لأية كلمةٍ مما أسررتُ به لها، ولكن لاوجود كذلك لأيّ تلميحٍ إلى خطابي المجدّ حول الجراد المهاجر!

D

خلال هذا الوقت، بقيت العلبة التي ابتعتها من القاهرة نائمةً في دُرجي بجانب كسارة بندق مفتوحة. اكتشفَتْها كلارانس في يوم أحد. وكان يوم أحد هاماً في حياتي، ولكن من زاويةٍ لاعلاقة لها بهذا الاكتشاف إطلاقاً. فمنذ شهورٍ عديدةٍ من تواجدنا معاً، أضنتني محاولاتُ إقناعها بأن تأتي وتعيش معي في الشقة الرحبة التي كنت أسكن فيها آنذاك، في شارع جوفروا ـ سانت ـ هيلير، قبالة حديقة النباتات، وذلك الأحد، جاءت.

اتصلتُ بها هاتفياً فور نشر مقالها والتقينا، تحدثنا، تهامسنا، تلاقت أيدينا، تعانقنا، تحاببنا، بلا استعجال، إنما بلا تأخير، كما لو أننا قد أخذنا موعداً منذ فجر الخليقة. كنا كلانا عاشقين، مذهولين، غير مصدقين وعفريتينْ على حين غرة، محتالين راشدين في جنة المراهقين. أُدركُ من ملاحظتي للأنواع أن الحب ليس سوى حيلةٍ للبقاء، لكن من الممتع أن يغمض المرء عينيه.

بالنسبة لي، كان كل شيء في تلك المغامرة يبدو كالمعجزة، غامراً، ودفعة واحدة، نهائياً. وكذلك كان بالنسبة لكلارانس أيضاً بلا ريب، إنما مع رغبةٍ وضرورةٍ ألزَمَتْ بهما نفسَها بألّا تقفز مضمومة الرجلين في حديقة رجلٍ مجهولٍ.

لعلّي أخطأتُ حين جَعَلْتُها تتفرج منذ لقائنا الثاني على مجموعتي من مغمدات الأجنحة. كنت أملكُ ما يقرب من الثلاثمئة منها. من بينها مؤسس سلالةٍ من نوع هركول، أعتزُّ به. كنت أملك أيضاً، خارج المجموعة أم أربع وأربعين من حجم استثنائي، ورتيلاء قزمة. أدركتُ من ردة فعل كلارانس الأولى، أن إقناعها «بالتعايش مع هذا كله» يحتاج إلى وقت، وأنّه كان عليَّ أن أُعِدّ لهذا اللقاء بقدرٍ أكبر من المهارة. كررتُ بلا طائل أن هذه الحيوانات الصغيرة التعسة، المتوفاة، هي حيوانات مسالمة مثل مجموعة من القطع النقدية القديمة، وأنها في نظري تساويها قيمةً، وتمتاز عنها بأنها لاتثير شهوة السارقين... ودون أن تحاول صديقتي معارضتي، جعلَتْني أَعِدُها، برسميةٍ مضحكةٍ، أنه اعتباراً من تلك الليلة، ستكون علاقتُنا كثنائي مع عالم الحشرات ضمن دائرة اختصاصي حصراً.

احتاجَ الأمرُ لشهورٍ من الحنان والحيلة، لكي تتخطى ذلك الرُهاب المفرط وتوافِقَ أن تضع قدماً في شقتي.

قدم واحدة فقط ـ ألحت كلارانس ـ غير أنني لم أعد قلقاً حيال ذلك، فقد تمكَّنْتُ من اجتذابها إلى دوامة الحياة المشتركة، وكنت كل يوم أُعيدُ ابتكارَ الألف حركة القادرة على استبقائها.

جاءت كلارانس إذن لتمتلك ركناً في خزانة مكونة من طابقين في الحمّام، ودرجاً لثيابها الداخلية.

كان ذلك الدرج عبارة عن مختارات من الأشياء عديمة الفائدة بكل أشكالها: أشياء مزنجرة أو صدئة، مُبعدة أو

منتهية المفعول... حصلت رفيقتي على تفويض بإيداعها سلة المهملات، لكنها بدافع الوسوسة كانت تتحقق من بطاقات الأدوية.

ـ لاتاريخ على هذا، لابد أنه دواء خالد.

نظرتُ إلى العلبة التي كانت تُريني إياها.

ـ لن تصدقي أنك أصبتِ القول تماماً، إنها وصفة من أيام الفراعنة.

رويتُ لها قصة رحلة القاهرة والمؤتمر الذي أقيم حول الجُعَل... وصولاً إلى أولاد ميدان التحرير.

أصغَتْ بانتباه شديد ثم أفرغتْ محتويات العلبة في حضنها وراحت تقرأ التعليمات.

ـ سبق لي أن سمعت عن هذه «الفولات» الغريبة، لكني أراها للمرة الأولى. في الصيف الفائت، اقترحتْ عليّ صديقة مغربية أن تُحضر لي شيئاً منها، لكني خجلت من أن أبدو مهتمة بالأمر.

»»كنت أتوقع شيئاً يشبه ما تطهيه الساحرات. أما هذه فهي معبأة بصورة جيدة.

ثم واصلت القراءة.

ـ هل أنت واثق بأنك لم تشترِ هذا لنفسك بهدف أن تحظى بوريث؟

كان يشوب نظرتَها حذرٌ ناعم وماكر إزاء نسل الذكور، رفعتُ يدي اليمنى على سبيل قَسَم يدعو للرثاء، تقبّلَتْهُ كلارانس بضحكة منها. التقطتُ المناسبة لأنتقل إلى الهجوم:

ـ شرح لي عالِم الآثار المصرية الدانمركي أن الرجال كثيراً ما يترددون في ابتلاع هذه «الفولات» لذلك تقوم نساؤهم، وبدون علمهم، بفتح البرشامات، ونثر المسحوق في حسائهم.

ـ نعم أعلم، ينتقل العِداء للمرأة من الأم إلى الابنة أولاً. حين ينشأ المرء مثلي على ضفاف المتوسط، من النادر أن يكون لديه متسع من الوقت كي ينسى ذلك.

عاشت عائلتُها المتحدرة من بسارابيا، في سالونيك والاسكندرية وطنجة ثم في سيت، حيث ولدت كلارانس. تعرّضَ اسمُ أسرتهم خلال الزمن لالتواءات وحذوفات وإضافات قبل أن يصبح «نيسميغلو». هل كنتُ قادراً على منع نفسي من مناداتها باسم «إيغلو» في خلوتنا؟ شرحتُ لها يوماً، بقصد المناكدة، أن هذا الاسم يلائمها تماماً: «ما الـ «إيغلو»؟ هي كتلة الجليد التي يَشعُرُ من يحتمي بها بالدفء...».

إضافة إلى اسمها، احتفظتْ كلارانس من ترحال عائلتها القديم بأكثر الدماء الهجينة نُبلاً: ڤينوس الإغريقية، وقد لوّحتها بقوة نكهة متوسطية والتي كنتُ أتخيلها كل لحظة، ممددةً على الشطآن، ناظرةً إلى البعيد، عاريةً، ترشح بالرذاذ بغزارة.

ذاك الأحد، نهضت كلارانس دون أن تفلت حبات «الفول» من يدها وراحت تذرع الغرفة بخطاها بدت هيئتُها الجانبية متوترةً. وخطوتُها بطيئةً كما لو أنها متشنجة. كم مرةً نظرتُ إلى مشيتها باشتهاءٍ راغباً بأن أقطع طريقها لأفتح لها

ذراعيّ، لكني لن أحاول ذلك أبداً. لن أعيق خَطَواتها أو تَسَلْسُلَ أفكارها مرةً واحدةً، مكتفياً بتأملها وبالانتظار، فمن هذا الاضطراب، كانت تخرجُ دائماً فكرةٌ، هامة كانت أو تافهة. وغالباً ما تخرج الاثنتان معاً، وكنت أعرف أنها ستحدثني عنهما.

ـ ألا تعتقد أنها مُناسبة لمزاجي؟

ـ فولات الجُعَل مناسبة لمزاج كلارانس؟

ضحكتْ وقالتْ: إنها مفرداتنا الخاصة. فالمحررون الرئيسيون في صحيفتنا يتناوبون كلٌ بدوره على كتابة مقال صحفي «مزاجي» مؤطر ومرفق بصورهم. حصلتُ للمرة الأولى هذا الأسبوع على الحق بكتابة مقالي «المزاجي»الخاص. لقد ناضلتُ لأجل ذلك. ومنذ أن أعطتني رئاسة التحرير موافقتها، وأنا أبحث دون جدوى عن فكرةٍ تخرج عن المألوف وها هي ذي فكرتي.

كانت تمسك بالعلبة باهتمامٍ كبيرٍ وكأنها تمسك بوثيقة إثبات. وعادت تذرع غرفتنا بخطًى طيرٍ قناص نافد الصبر، لوقتٍ طويل، إلى أن تسمرتْ وقالت منتصرة:

ـ ورقتي جاهزة، لم يتبقَّ لي سوى كتابتها.

عندها رمَتْ بنفسها فوق السرير منهكةً إنهاكَ الشخص الشبعان فاردةً ذراعيها على وسعِهما.

هكذا صرتُ قادراً على غزوها.

«مزاج كلارانس نيسميغلو» كان المقال عبارة عن بضعة

فقرات أحسنَت حياكتها حول فكرة بسيطة تعود إليها بشكلٍ لولبي حتى المِصدّ الأخير.

لم يعد ذلك المقال متوافراً بين يديّ، لكنني بِلُغتي الركيكة سأقدِّم ملخصاً تقريبياً له على الشكل التالي: «إذا تمكن الرجال والنساء غداً، بوسيلةٍ بسيطةٍ، من تحديد جنس أطفالهم، فإن بعض الشعوب لن تختار سوى الصبيان، وستكفّ بالتالي عن التناسل، وتختفي في نهاية المطاف، وربما تتحول عبادة الذكور، التي هي اليوم نقيصة اجتماعية، إلى انتحارٍ جماعي. ونظراً للتقدم المتسارع في العلوم والركود في العقليات فإن فرضيةً من هذا النوع لابد أن تتحقق في مستقبلٍ قريب. وإذا صدقنا ما يُنسب لجعل القاهرة، فنحن أمام حالةٍ من هذا النوع».

لو أنّي أردتُ أن أستعيد كلماتِ كلارانس ذاتها، لَفَعَلْت لأنها أكثر أناقةً من كلماتي بكثير. لقد تَعمَّدتُ ألّا أفعل. فكل ما جاء في ذلك المقال، قيل بنبرةٍ تجمعُ في الوقت ذاته بين النزق والمرح، بحيث يبدو عند إعادة قراءته الآن، وبعد كلّ ماحدث، مخيفاً.

مخيف؟ كم هذه الكلمة بعيدة عن كلارانس، لقد أظهرتْ كلارانس بعض الخفّة، لكنّ نوع المادة الصحفية فرض نفسه، يجب أن يكون «المقال المزاجي» كالفراشة، يجب أن يكون خفيفاً لطيفاً. كان هناك أيضاً شيء من اللاشعور. لكنْ، ألا نتشارك جميعاً في هذا؟ نعرف الآن معرفةً لاريب فيها، أن وسائل الإعلام تُعَمِّمْ اللاشعور مثلما ينشر النور الظل، وكلما كان مصدَرُ الضوء قوياً، ازدادتْ كثافةُ الظل. تعرضَتْ الصحفُ في بعض الأحيان لبعض الظواهر الغريبة: لوحظت

في الصين منذ الثمانينات زيادةٌ واضحة في نسبة ولادات الذكور قياساً إلى الإناث، في بعض المقاطعات. شرح لنا الاختصاصيون وقتها بكل صفاء أنَّ العائلات، التي أرغمتْها السلطاتُ على عدم إنجاب أكثر من طفل، كانت تتخلص من الوليد الأول إذا وُلِدَ وكان يفتقر للذوق السليم، ولايحمل صفة الذكورة التي لاغنى عنها. وهكذا ربما وصل عدد حالات قتل الأطفال إلى بضع ملايين. أثار الأمر شفقة العالم مدة ثمانية وأربعين ساعة، ثم هوى كل شيء من جديد في طاحونة الابتذال الكونية.

لا أحاول تبرئة كلارانس، أعلمُ أنها أخطأت حين تعاملتْ بهزل مع «مسألة الانتحار الذاتي لدى الشعوب المعادية للمرأة» بيد أنه يجب أن يضع الإنسان نفسه في روح اللحظة، فقد كان عصراً يجب التأثُّر فيه بكل شيءٍ لحظةَ وقوعِه، وعدمُ الانشغال فيه بأي شيءٍ بشكلٍ مستمر. صرخ أحدُهم يوماً: سيقضي الوباء على إحدى المدن الأفريقية. هل كان هذا صحيحاً؟ خاطئاً، مبالغاً فيه؟ وشيك الوقوع؟ افتراضياً؟ هكذا، كان كل شيء يسبح في الضوضاء السائدة ذاتها. وقد أصابتني هذه الضوضاء أنا نفسي بالصمم ولوقتٍ طويلٍ جداً، رغم عشرتي الآمنة لحشراتي.

كل هذا كي أقول إنه ليس لأحدٍ الحقُ باتِّهام كلارانس. هي سخرتْ، وابتسم قراؤها. الرسالة الوحيدة التي تلقَّتْها بعد نشر مقالها، كانت من سيدة طلبتْ منها معلومات محددة عن «فولات الجُعَل» وعن المكان الذي تستطيع أن تجدها فيه.

أما أنا، فقد وجدت في المقال الذي نشرَتْهُ رفيقتي في

السكن، الذريعةَ التي حلمتُ بها لمقاربَةِ مسألةٍ تهمني: ألم يحن الوقت المناسب لي ولها لإنجاب طفل؟ لم يكن عامل الزمن يدفعنا للعجلة، أقصد فيزيولوجياً. كان لي من العمر آنذاك واحد وأربعون عاماً، وكان لها تسعة وعشرون. لكننا مع ذلك كسبنا امتياز أنَّ الأمر صار موضع تفكير. لم تُناقش كلارانس مبدأ إنجاب طفل، منّي بالذات، بل كانت تقول لنفسها، محقّةً، إنها وفي «غمرة الارتقاء» في عملها الصحفي، لديها رغبة بأن تكتب، وأن تكون كتابتُها مقروءة، ولديها رغبةٌ وتلهّف لأن تجوب العالم. ألا توجد تحت كل السماوات عجائب يجب وَصْفُها ومَفاسِدُ يجب فضحها؟ كانت تنوي القيام بتحقيقات في روسيا والبرازيل وأفريقيا وغينيا الجديدة... وسيصبح الحمل، في الحالة الراهنة، بمثابة «كرة المحكومين التي تَغِلُّ القدم» حسب تعبيرها، وكذلك هو الطفل الحديث الولادة. إلّا أنها وعدت بأنها لاحقاً، حين تصبح أكثر شهرةً ويتعذر تبديلها تقريباً، ستسمح لنفسها بأخذ سنة، لأجل طفلنا.

كان عليَّ أن أرضى بذلك الترتيب مضمراً العودة إلى الموضوع ما أن أشم رائحة أية فرصة مهما كانت ضئيلة. لم أكن أستطع الإلحاح كثيراًعلى كلارانس، لكن عليَّ أن أضع ما أتلهف إليه بعين الاعتبار.

لا أدري إن كان يشبهني رجالٌ كثيرون في هذا، لكني طالما رغبت حتى وأنا مراهق؛ بحمل بنتٍ بين ذراعيّ، تكون من لحمي. اعتقدتُ دائماً أن هذا الأمر سيمنحني امتلاءً، لن يكتمل وجودي كذَكَرٍ بدونه. حلمتُ دائماً بتلك الابنة، التي كنتُ أتخيل ملامحها وصوتها والتي أطلقتُ عليها اسم بياتريس.

لماذا بياتريس؟ لابد من وجود سببٍ. لكني توغلت بعيداً في ذاكرتي، ولم أكتشف في داخلي أيّ أصلٍ لهذا الاسم. إنه ببساطة موجودٌ مثل سرخسٍ نضرٍ.

حين لفظتُهُ أمام كلارانس للمرة الأولى، أبدت غيرتها وهي تضحك بقوة كي تجعلني أعتقد أنها تمزح، لكن ضحكتها كانت غير طبيعية وغير مقنعة. كانت قد بدأت تفهم بأني لن أقدر على الاستمرار في حبها إذا جعلتني أتخلى عن ذلك الحلم، عليها أن تذعن وتتعايش على الدوام مع عالمي الصغير، مع بياتريس، بشكلٍ أكثر حميميةٍ مما تتعايش مع مجموعتي من مغمدات الأجنحة.

منذ ذلك الوقت أصبحت المرأتان تشكلان بالنسبة لي موضوع العبادة العاشقة ذاتها. كنت قد قررت أنه ما أن تأخذ كلارانس عامها الموعود، حتى أحصل أنا نفسي على عام راحة، لممارسة أبوتي.

قبل أن أعرف تاريخ ذلك العام، أسميته «عام بياتريس».

٤

اضطرت كلارانس أن تتحلى بالصبر، وأن تناضل وتفاوض طويلاً قبل أن تقرر صحيفتُها إرسالها في مهمتها الكبرى الأولى، إلى الهند. حيث كان عليها والحالة هذه، أن تعود بريبورتاج عن النساء اللواتي يُضحّى بهن حرقاً بالنار. ليس فقط أولئك اللواتي حَكَم عليهن عرفٌ وحشي، قديماً، بالحرق إلى جانب أزواجهن المتوفين، بل أيضاً أولئك الصغيرات، الصغيرات غالباً، اللواتي يقوم أهل الزوج بِرَشِّهِنَّ بالكيروسين وحرقهن لأغراض دنيئة لها علاقة بالإرث. إنها عادة أكثر حداثة، لكنها، للأسف، لم تختفِ بعد.

كان من المفترض أن يستغرق التحقيق عشرة أيام مع محطة أخيرة في بومباي حيث كان يفترض بكلارانس أن تستقل طائرة تنطلق ليلاً، لأنّ وصولها إلى باريس كان مقرراً في صباح يوم الجمعة.

في الوقت الذي كنتُ أظنُ فيه أنها تستعد للعودة، سمعت في العشية. صوتها عبر خطٍ هاتفي يُصدر صفيراً وصريراً، وهي تسألني بعد تحيةٍ سريعةٍ إن كنت أعرف مكان وجود «الفولات» التي أحضَرْتُها من القاهرة.

وضعتُ سماعة الهاتف، ورحتُ أُحضِر العلبة من الدرج الذي بقيتْ فيه، فقد كانت الناجية الوحيدة من حملة التخلص

من المهملات الكبيرة، وهي الآن محاطة ببياضات رقيقة ومعطرة برائحة كلارانس.

ـ أحتاج أن تقرأ لي إرشادات الاستخدام. النص الانكليزي.

الآن وفوراً، على الهاتف من باريس إلى بومباي؟

ـ كم أنتِ بعيدة يا كلارانس. قلت ذلك بنبرة احتجاجية عالية.

ـ هذه الليلة، حين تغمض عينيك، تخيّلْني بقربك وضمّني بقوة، أعني إذا كنت وحيداً.

ـ أعدُك! إذا كنت وحيداً.

ـ وإذا لم تكن وحيداً، أعلِمْني كي أتوقف عن لعب دور الزوجة المخلصة بغباء!

سُمعت ضحكتان تلاهُما صمتٌ طويل متواطئ، ثم عادت ودون تمهيد إلى موضوع انشغالها العاجل.

حاول من فضلك أن تنطق الكلمات بأكبر قدرٍ من الوضوح، وبصوت مرتفع، سأسجل الكلام لكي أعيد الاستماع إليه برويّة.

وبعد أن جعَلتني أُكرر الكلمات الأكثر غموضاً، أعلمتني بقرارها بتمديد إقامتها قليلاً طالبةً مني إعلام صحيفتها بذلك.

هذا ما أسرعتُ بتنفيذه في الساعات الأولى من اليوم التالي. بدت ميرييل ڤاست رئيسة تحرير الصحيفة، متفاجئة وغاضبة، فقد اتصلت بها كلارانس قبلاً كي تخبرها أن

تحقيقها الصحفيّ بات جاهزاً، وأن في حوزتها نصاً من ست صفحاتٍ على الأقل مع صورٍ لم يسبق لأحدٍ أن رأى مثلها.

ـ ... وعشية إقفال الموضوع، تُكلِّف من يتصل باسمها لتقول إنها لن تعود في الوقت المحدد. يجب الاعتراف بأن هذا السلوك ليس سلوكاً مهنيّاً جداً!

ـ أفترضُ ـ تلعثمتُ مثل وليٍّ أمرِ تلميذٍ مذنب ـ أنها لابد أن تكون قد حصلت في اللحظة الأخيرة، على عناصر جديدة، هامة.

ـ آملُ ذلك من أجلها!

أنا أيضاً كنت آمل ذلك لأجلها، كما كنتُ قلقاً من العداوة التي تتربص بها حين عودتها. لم أكن قد التقيت بميريل ڤاست قطّ، فلم أكن أعرفها إلا من خلال الوصف المقتضب الذي كانت تقدمه كلارانس لها: «أشبهُ برئيس عمالٍ يلبسُ تنانير مجعدة». وعليَّ أن أقول أن هذا الاتصال الهاتفي الأول، لم يترك لديّ انطباعاً يدل على حرارة إنسانية مفرطة. كنتُ أعرفُ أنه لايمكن لرفيقتي أن تتوقع منها عطفاً أو مجاملةً. ولكنها ربما ستنجح في فرض احترامها، حين تحملُ معها من بومباي قصة لم يسبق نشرها.

لم أدرك خطئي إلّا مساء الأربعاء، حين رأيت دموعاً في عينيّ كلارانس وذلك لأول مرة منذ عشنا معاً.

وصلتْ إلى باريس في بداية فترة الظهيرة، أقلَّتْها سيارة أجرة إلى الصحيفة مباشرةً حيث كان يُعقد مجلس التحرير.

رغم إرهاق الرحلة، كانت كلارانس مفرطة الحيوية،

دفعت الباب ضاحكةً، حيّت الهيئة بانحناءة غرائبية ويدين مضمومتين، ثم قرَّبت أريكة بجلبةٍ، وبدأت تُخرج أوراقها... إنما كي تسمع هذا التذمر الضَّجِر فقط:

ـ حسناً لنُجمِل! أنتِ في بومباي، وبحوزتك نص وصور نحن بانتظارها في باريس، أفرَدْنا لها وبطلبٍ منك ست صفحاتٍ كاملةٍ. فجأة وفي اللحظة الأخيرة تقررين تغيير خططك وخططنا. أفترضُ أنّ حدثاً استثنائياً قد استجدّ، ماهو؟ أنا متشوّقة لمعرفته.

جَمَّدَ هذا الاستقبال كلارانس، ولم يُبْق لديها رغبة كبيرة بتبرير نفسها. نظرت طويلاً إلى رئيسة التحرير، إلى زملائها، إلى السقف، وإلى الباب. ترددت. وضعت يدها فوق أوراقها كأنها تستعد لجمعها. ترددت. من جديد... لكي تذعن أخيراً وتقدم الإيضاحات المطلوبة منها. أخطأتْ كما يبدو لي، إذ، وبعد مثل تلك المقدمة، فإن كل ما قد ترويه، سيبدو بالضرورة تافهاً، مسطحاً، وبلا قيمة. من ناحية أخرى لم يكن ما قالته يكشف عن أي شيء هام واستثنائي. مع ذلك، فقد كان بمقدور مستمعين لديهم قابلية جيدة للاستماع، والتخيّل، وقليل من حسّ الشراكة، أن يستشفّوا خلف الكلمات المترددة لرفيقتي، الخطوط الأوّلية التي تحيط بمأساةٍ كانت تنبئ عن نفسها.

ماذا قالت؟ إنها قررتْ، كي تُغني ساعاتها الأخيرة في بومباي، التسكُّع في مارين درايف قرب شاوباتي، حيث اصطدمتْ، وقد أُخذت بالازدحام الشديد المبرقش من المتنزهين، بطاولةٍ لعرض البضائع قابلةٍ للطيّ، وقَلَبتْها. على هذه الطاولة كان بائعٌ فتيٌّ يعرض أكداساً من العلب يتخاطفها المارة. ابتاعت منه إحدى العُلب بدافع الفضول

وأيضاً إلى حدٍ ما، بدافع الأمل في التكفير عن خطئها، لكي تكتشف أنها نسخة تكاد تكون مطابقة لتلك التي جلبتُها العام الفائت من القاهرة، مع فارقٍ يتمثل في صورة حية كوبرا تلتفُ حول صورة الجُعَل. عند ذلك اتصلتْ بي لكي تقارن بين التعليمات الموجودة على كلا العلبتين، وقد كانت متطابقة باستثناء بعض التعديلات.

لم تكن لتعير هذه المصادفة ذلك الاهتمام، لو لم تلتقِ قبل يومين في قرية كوجارات، أثناء تحقيقها بامرأةٍ عجوزٍ جداً، جِلْدُها شبيهٌ بالرقِّ، قالت لها كلاماً مفاجئاً. فبعد أن بكت على مصير حفيدتها التي قُدِّمت أضحية للنار خلال أسابيع من زفافها، تكهَّنَتْ العجوز بأن هذه المأساة سوف لن تتكرر في المستقبل، لأنه لم يعد هناك في القرية وفي كلّ مكانٍ حولها، إلا المواليد الذكور، كما لو أن الفتيات، وقد تنبَّهْن للمآسي التي تنتظرهن، أصبحن يفضِّلْن الكف عن المجيء إلى العالم.

أثناء تفحص كلارانس للعلب التي كانت تحمل بياناً رناناً بأحرف كبيرة «family energy miracle»، لكن البائع كان يسميها بإيجازٍ بليغٍ «boy beans»، تذكرتْ العجوز على الفور، صوتَها الشبيهِ بصوت نَبيّةٍ دِلْفيةٍ[1] لاهِثٍ، يخرج من فمٍ أدْرَدْ. اعترفتْ لاحقاً أنّ حيرةً تملكتْها، وأنها شعرت بهزةٍ دونما تفسير، لذلك اختارت، رغبةً منها بإضافة ملحقٍ إلى التحقيق، أن تؤجلَ سفرها، توجّهتْ في اليوم التالي إلى إحدى الحضانات الضخمة في بومباي، آملةً أن تقابل طبيباً مختصاً بأمراض

(1) نسبة إلى معبد دلفي.

النساء، بمقدوره أن يقول لها على الأقل فيما إذا كانت حيرتُها مبررة.

كان المبنى قد أعيد طلاؤه حديثاً، ويقع في حديقةٍ رائعةٍ ومشغولةٍ بطريقةٍ مثاليةٍ. لاشيء في هذا المبنى يشبه من قريب أو بعيد المشافي والمستوصفات التي شاهَدَتْها في البلاد حتى ذلك الوقت. استُقبلت في البداية كمهاراني[1] لكنها ما أن تلفظت بكلمة «صحافية» وحتى قبل أن يتسنى لها الوقت كي تقول إنها جاءت كي تحقق في موضوع تفاوت الولادات، تلاشت الابتسامات، وفجأةً ماعاد أي طبيب يستطيع استقبالها، في ذلك اليوم ولا يوم الاثنين ولا في الأسابيع المقبلة. شخصٌ واحد فقط رضيَ أن يتحدث معها للحظة، وكان ممرضاً له شارب كث، شاء حظ كلارانس أن تصادِفَهُ عند خروجها قرب السور. لم يجد ذلك الممرض أيّ حرجٍ في البوح لها بأنّ: «هذه العيادة مباركة حتماً من السماء، لأنَّ مواليدها الجدد هم دائماً تقريباً من الصبيان».

عند هذه النقطة من رواية كلارانس، انقسمت هيئة التحرير: أظهر ثلثٌ بعضَ السخرية وعدم التصديق بسعالٍ خفيفٍ، وضحك الثلثان بمرحٍ صاخبٍ، وأعلن أحد الزملاء اللطفاء: «لقد حصلنا على عنوان لصفحتنا الأولى. تصريحات خصّنا بها ممرض من بومباي: لم نعد نرى إلا الحمامات!»[2].

- إذا فهمتُ جيداً - علَّقَتْ رئيسةُ التحرير وهي تعبس

(1) مهاراني مذكر مهاراجا: أميرة هندوسية.
(2) الحمامات: الأعضاء التناسلية للمولود الذكر.

باتجاه الضاحكين الأقل تحفظاً ـ انطلقَ كل شيء من ملاحظة؛ أنّ البرشامات نفسها تُباع في القاهرة وبومباي. ألفتُ نظرك، لإجراء مايلزم، إنّه يوجد في ماساو وتايبي وكذلك في بقية مدن آسيا الشرقية؛ مئات من مصنّعي المراهم والبلاسم واللصاقات والأكاسير، وجميعها مواد معروفة بقدراتها الخارقة، واعتمادها على مواد أساسية مأخوذة من حجر القمر أو أظافر الغوريلا، أو مسحوق الجُعَل، دون أن ننسى قرون الكركدن، التي تشكل مادة لمتاجرات خسيسة، ومربحة جداً، ونتنة. لقد وُجد على الدوام ملايين من الجهلة ممن يؤمنون بتلك الأكاذيب، ويساعدون المحتالين على الإثراء. فيما يخصّك يا كلارانس، آمل أن يكون الأمر غواية عابرة. نحن نعتمد عليك لمعالجة قضايا تهمُّ المرأة، ويعلم الله كم يوجد قضايا من هذا النوع، هامة، وشيقة ومؤثرة. أمّا إذا كنتِ تَسعين لتنقلي لنا حكايات النساء الساذجات، فهذا يعني أنه لم يعد هناك تفاهم بيننا.

كان بمقدور رفيقتي أن تدافع عن نفسها، وأن توضّح لهم بأنهم أخطؤوا تماماً في فهم اهتماماتها... لكن ما الفائدة من التوضيح في جوٍ كهذا؟ الطموح الوحيد الذي تبقى لها، هو ألا تنهار أمام الجميع لفرط ماكان الإنهاك الناجم عن السفر يُثقل ساقيها وكتفيها حالياً، لكنها عرفت كيف تحافظ على كبريائها بشجاعة ودون أية نظرة توسّل. إلّا أنها لم تعد تقول شيئاً، وعلى أية حال، لم تعد حنجرتها تساعدها على الكلام.

هل نوهتُ سابقاً إلى أنها كانت تبكي؟ حدث هذا ليلاً، في

سريرنا، بين ذراعي، كما لو أنها تتحاشى أضواء العالم. اعتقدتُ وقد هزّني نحيبها الصامت أكثر مما هزَّها بكثير، أنه من المستحسن أن أهمس في أذنها بصوت الذكر الحامي قائلاً:

- فلتنهمر دموعك هذه الليلة، لكنك ستعاودين النضال من جديد في الغد. لاشيء يَهزِمُ الإنسانَ أبداً إلّا مرارتُهُ الخاصة.

ثم أضفتُ وبفخامة ساذجة أملاها عليَّ تأثري المفرط:

- إذا دعت الضرورة، سأساعدك.

استعادت القدرة على الابتسام، ثم رَفَعت جسدها بمساعدة مرفقيها كي تطبع فوق شفتي قبلة مليئة بالحنان، وتركت نفسها تسقط مجدداً فوق السرير.

- حتى إن تكلمتُ بدافع التأثر، فعليكِ أن تأخذي ما عرضْتُه عليك مأخذ الجد. أنا مقتنع أن مهنتك ليست شديدة البعد، في بعض الجوانب، عن مهنتي.

- حقاً، أريد إذن معرفة أوجه الشبه بين صحافي وعالِم حشرات. ولكن حذار. زنْ كلماتك جيداً. لقداخترتُك تحديداً لأنك تنتمي إلى عالم مختلف عن عالمي، فإذا نجحت وبرهنت لي على عكس هذا، سأتركك.

كانت قد اعتدلتْ تماماً في السرير هذه المرة، بحيث كان بمقدور وجنتاي التحقُّق من أنّ دموعها بدأت تجف.

- إنها قناعتي، بالغتُ عن عمدٍ، وأقول إننا باستثناء أشياء قليلة، نمارس المهنة ذاتها تقريباً. أُمضي قسماً من وقتي في مراقبة الحشرات ووصفها وإعطائها الأسماء. لكن أكثر الأشياء إمتاعاً في مجال عملي هو دراسة التحول: من اليرقة إلىالحشرة مروراً بالحوراء.

»اكتسبت كلمة يرقة في اللهجة الدارجة نغمة دبقة[1]، مع ذلك ووفقاً للأصل اليوناني، فكلمة يرقة تعني ببساطة «القناع»، لأن اليرقة ماهي إلّا قناع، ويوماً ما ستُسقِطُ الحشرة قناعها كي تظهر صورتها الحقيقية. وبالمناسبة ربما تعلمين أن الاسم العلمي للحشرة التي بلغت شكلها النهائي هو: «صورة».

»من اليرقة إلى الحشرة، من اليسروع البشع والزاحف إلى الفراشة الرائعة ذات الألوان الزاهية، يتكون لدينا انطباع بأننا ننتقل من واقع إلى آخر. مع ذلك، يوجد داخل اليسروع كل ماسوفَ يصنع جمال الفراشة. تؤهلني مهنتي لأن أقرأ صورة الفراشة في اليرقة، أو صورة الجُعَل أو الرتيلاء. أنظرُ إلى الحاضر وأُبصر صورة المستقبل. أليس هذا مدهشاً؟

»والصحافيّ، أين يكمن شَغفه إذن؟ أهو فقط في مراقبة الفراشات البشرية والعناكب البشرية، مراقبة عمليات صيدها وقصص حبها؟ لا. إن مهنتك تصبح شيئاً سامياً لايضاهى حين تساعدك على رؤية صورة المستقبل في الحاضر. لأن المستقبل موجود بأكمله في الحاضر، لكنه مقنَّع، مُرَمَّز، مبعثر.

»ألستُ محقاً في قولي إننا زملاء تقريباً؟

إذا لم تكن حججي قد أقنعت كلارانس، فقد كان لها على الأقل الفضل في انفراج أساريرها.

---

(1) باللغة الفرنسية إذا أطلقت كلمة (Larve) التي تعني يرقة، على شخص، فلكي تصفه بأنه كائن دونيّ، غير مكتمل وإذا قيل أن فلاناً عاش حياته مثل (Larve) فهذا يعني أنه يعيش في الظلام، حياة خاملة دون المتوسط.

خلال بضع ثوانٍ، كانت كلارانس قد سكنت وغفت دافنةً وجهها في تجويف كتفي، وتركتني فريسةً لحالةٍ صارخة من الأرق، أقصد الحالة التي تتدافع فيها الأفكار وتتصادم وتبدو الألغاز الأكثر انغلاقاً كما لو أنها التمعت إثر تعرضها لبروقٍ خاطفةٍ مثل مغارةٍ اجتاحتها العاصفة.

لن أصل إلى حد الزعم بأنني فهمت كل شيء تلك الليلة، بل سأقول وبتواضعٍ أشد، مجازفاً بأن أبدوَ مشوشاً، إنّي وأنا أسمع أنفاس رفيقتي النائمة، وأتنسم حرارتها الندية، وأتأمل بحنانٍ خيوط الدمع الأخيرة التي جفت على خديها، فهمتُ فجأةً أن هناك شيئاً ما يجب فهمه، شيئاً يُحتمل أن يكون جوهرياً.

هكذا قررت أن أكاشف كائناً كنت منذ زمنٍ طويلٍ أثق به ثقةً مطلقةً.

لا أذكر أن كلارانس قد التقت بأندريه ڤالوريس قطّ. كان أقرب صديقٍ لي، لكنّ صداقتنا لم تكن ترضى بأيٍّ تدخلٍ حتى لو كان من جانب النساء اللواتي نحبّهن.

تعودُ صداقتنا إلىعهد الطفولة القديم، فقد كان صديق والدي، وبشكلٍ من الأشكال عرّابي. أقول «بشكلٍ من الأشكال»، لأن ذلك لم يكن له صلة بالعمادة في الكنيسة، بل بالرعاية في الحياة، الدور الذي أداه بمزيجٍ فريدٍ من الحرارة والفخامة.

اعتدنا على رؤية بعضنا مرتين في العام، الأحد الأخير من تشرين الأول بمناسبة عيد ميلادي الواقع في 31 منه، والأحد الأول من آذار، بمناسبة عيد ميلاده، فقد وُلد في 29 شباط، في يومٍ هو هكذا، موقع نادرٌ لبضع كائناتٍ نادرة. لم تكن هناك أيةُ حاجة للاتصال، للتذكير أو للتأكيد، ليس هناك إلغاء ولا تغيير في الموعد ولا المكان. في الساعة السادسة عشرة من اليوم المحدد، أكون عنده. كان يحرص أن يكون بمفرده في شقته الرحبة بجدرانها المكسوة بالخشب السكّري اللون وردهاتها اللامتناهية. كنت أتبعه ويكون إبريق الشاي قد وُضع مسبقاً على الطاولة، ويفوح عطر البرغاموت[1] من

(1) البرغاموت: نوع من البرتقال الإجاصي الشكل ذي الرائحة اللطيفة.

فنجانينا، قرب أريكتينا المتماثلتين.

كنت، لحظة جلوسي، أضع علبةً من الحلوى بحيث تكون أكثر قرباً إلى فنجانه من فنجاني، اشتريتها من الحلواني المفضل لديه. كان يفك الشريط وهو يقول دوماً جملةً لاتتغير: «لم يكن هناك من داعٍ لذلك!». ولكن بالطبع كان هناك داعٍ، تلك كانت عادتنا، وقود ثرثراتنا. وكان من ناحيةٍ ثانيةٍ لايستطيع مقاومتها عموماً، إلا عندما لايتبقى سوى قطعة واحدة. عندئذٍ يقدمها لي، وأرفضها، وأنا متأكد أنه كان يلتهمها لحظة ذهابي.

لن أفاجئ أحداً إذا أضفت قائلاً بأن أندريه كان سميناً. والكلمة الأدق هي «بدين»، كان طويلاً، ملتحياً وبديناً. لا أرى في هذا المصطلح، ولا أحس وهو يرتسم تحت ريشة قلمي أنه انتقاصٌ من قدره، فهناك بدين وبدين. كان أندريه بديناً متفتّحاً، من أولئك الرجال الذين يبدون لك أنهم تناموا حول قامةٍ عاديةٍ بنوع من التوسع المتناغم، والذين يُعنَوْن أكثر من غيرهم، داخل ذلك الغلاف، ربما لتكذيبه وإنكاره، بتهذيب فكرهم وحواسهم.

لكّني أشعر الآن بقليلٍ من الخجل، لأني أردت وصف أندريه ڤالوريس عبر استطرادٍ حول قطع الحلوى بدلاً من أن يكون حول الهدايا التي كان هو نفسه يقدمها لي بالمقابل.

في الواقع، أذكر أنه في نهاية زيارتي الأولى، اتجه إلى مكتبته الواقعة في الطرف الآخر من الصالون. كانت جميع الكتب فيها مجلّدةً على الطريقة القديمة وتبدو متشابهة من بعيد. سحب واحداً منها وقدمه لي «رحلات غاليفر»، وكان

بوسعي الاحتفاظ به. كنتُ في التاسعة من عمري ولم أعد أذكر إن كنتُ قد لاحظتُ عند الزيارة التالية أنَّ موضع الكتاب بقي فارغاً. فقط، مع مرور السنين، صارت المكتبة تتزين بفراغاتها لدرجة أنها كانت تبدو مخلّعة الأسنان. لم نتحدث مرةً واحدة عن ذلك غير أني أدركت في النهاية أنّ هذه الأمكنة الفارغة، ستبقى كذلك، وأنها صارت تتمتع بنفس القداسة التي تتمتع بها الكتب، وأنّ ظلال الكتب تلك، المنحوتة من الجلد الأصهب، كانت تضم كل الحب الصامت للبشر وكبرياء سعيهم للتزود بالمؤن الثقافية.

خلال حياة والدي، التقيت بأندريه في مناسبات أخرى أحياناً، لكن علاقتي به لم تكن تختلف آنذاك في شيء عن علاقة بقية ضيوفه. لاشيء يُذكّر بـ «حديثنا» المشترك ولو تلميحاً. تلك الفرادة كانت أمراً لازماً. كثيراً ما كان أندريه يستقبلني، من فصلٍ لآخر، بسؤال: «أين كنا؟»، بتحدٍ خفي، أو أيضاً بـ «كنتُ أقول لك إذن». كان ذلك لعباً، كل شيء معه كان لعباً، إلّا أنّ لعباً يستمر الحياة بطولها، ألا تأتي ضحكة لِتُخلِّصَهُ من كونه لعباً؟ كان بوسعي الاعتماد عليه من أجل الحفاظ على هذا الغموض المثير إلى ما لانهاية.

حول أي شيء كانت تقوم أحاديثنا؟ غالباً حول الكتب التي يهديها لي. هكذا، تكلمنا طويلاً، بخصوص ڤاليفر، عن الشجار الدامي الذي نَشَبَ بين الليليبوتانيين حول طريقة كسر البيض، من طرفه الكبير أم الصغير. حاولنا أن نعدّد الصراعات التي حدثت في العالم الذي نعرفه، والتي يمكن مقارنتها مع الشجار بين أنصار كسر البيض من طرفه الكبير

وأنصار كسره من طرفه الصغير. كانت الموضوعات، تتنوع تَنَوُّعَ الكتب، فتختلف بقدر ما يختلف كتاب «دون كيشوت» عن كتاب «أفضل العوالم» أو عن «الكوميديا الإلهية». ولكن لم يكن هناك الكتب فحسب، كان أمامي كل شيء لأكتشفه. وكان أندريه يمتلك ذلك الفن القديم الخاص بالمربّين الأساتذة الذين يوهمونك بأنك كنت تحمل في داخلك على الدوام الشيء الذي علّموكَ إياه للتو.

في السنوات الأخيرة، كنا نتحدث خاصة عن النساء والزمن، أي، عمر الكائنات والأفكار. نتحدث أيضاً عن مهنتي التي كانت تحيره، ونتحدث أكثر عن مهنته.

حَلِمَ وهو طفلٌ بأن يصبح مخترعاً، وأراد والده أن يكون محامياً فأطاع. ولكي يعود إلى شغفه الأول من خلال عملية نَقْبٍ ماكرة، انكبَّ، بالفعل، على دراسة حقوق التقنيات الجديدة، العلم الذي ساهم أندريه في تأسيسه. بطاقات ممغنطة لعمليات التلقيح المخبري، إسقاطات إشعاعية للمحطات الفلكية، آلاف الوقائع المستجّدة التي أدت إلى نزاعاتٍ لم يحسِبْ أيُّ نصٍ قانوني حساباً لها. لم يعد لمفاهيم من «قرصنة»، «سرقة أدبية»، «ملكية»، «إضرار»، معناها المعروف، بل كان يجب إعادة تعريف حتى كلمات مثل «حياة» و«موت». كانت كلّ قضية بالنسبة لأندريه ذريعةً لفتح تحقيقات لا تنتهي وغالباً ما تتجاوز الدعاوى القضائية إلى ما هو أبعد منها بكثير، وهي ليست دائماً تحقيقات علمية أو قانونية. كان يزعم أنه كانت توجد أحياناً بين طيَّات تلك الملفات أزمات ضمير أثقلْ بكثير مما هو موجود في قضايا الإجرام.

كان يحدّثني عن جميع أوجه نشاطاته، وأحياناً يستبطن مشاعري، وأعتقد جازماً بأنه كان يقدِّرها. من جهتي، كنت، بطبيعة الحال أقدّر آراءه أكبر تقدير. على كل حال، حين كنت أتحدث أمامه عن مشكلةٍ تقلقني، فإن ذلك لم يكن يحدث دوماً طلباً للنصيحة، بل كان لديّ دافعٌ آخر، كنت حينها عاجزاً عن تبيُّنِهِ جيداً بينما يبدو لي الآن جلياً وواضحاً. أعتقد أنني طوال صداقتنا كنت «أروي» على مسامع أندريه، أفكاراً، مثل من يتخفف من حملٍ، أو من يلقي بحبةٍ في أرضٍ أليفةٍ. لاشيء كان يضيع في رأسه، بل يتطور وحين كنتُ ألتقي بفكرتي مجدداً، تكون قد أنبتتْ جذوراً وفروعاً وغالباً ما تكون قد هُذِّبت حتى بات التعرف عليها عسيراً.

أرادت المصادفة أن أتوجه إلى صديقي يوم الأحد الذي تلا عودة كلارانس. كنتُ قد حدثتُه عن علاقتنا سابقاً. أبلغته عن رغبتنا في إنجاب طفلٍ، ثم أسهبتُ في الحديث عن رحلة رفيقتي إلى الهند وعن تحقيقاتها وخيباتها في الصحيفة، تحدثتُ عن كل هذا بتفصيل ممل وببعض السخط.

أصغى أندريه لما أقول بانتباهه المعتاد. راح عدة لحظات في حالة تفكرٍ شعرتُ بها طويلةً جداً، ثم سألني بنبرةٍ فيها كل الجد:

ـ وإذا كان صبياً، ألم تفكر باسم آخر غير بياتريس؟

لقد كان ذلك بالتأكيد أقل سؤالٍ أتوقعه لكن جزءاً من لعبتنا كان يقضي بألّا نُظهِر مفاجأتنا من أي شيء.

ـ لا ـ أجبته بالنبرة ذاتها ـ لم أفكر بأي اسمٍ آخر.

رفع كوبه ورشف منه جرعة شاي قبل أن يمضي في نقاشٍ مختلف تماماً. لقد ختم كلامه حول هذا الموضوع.

هذا على الأقل ما دفَعَتْني السذاجةُ كي أظنه...

كان قد مضى شهر وبضعة أيامٍ فوقه حين تلقيت رسالةً عليها كتابة ڤالوريس.

«رغبت أن أرسل لك هذا». كان «هذا» عبارة عن صفحة من موسوعةٍ كتبت باللغة الانكليزية، حيث أحيط مقطعٌ بخطٍ بيضوي الشكل بقلم تخطيط بني. جاء فيه: «في السبعينات، إثر انتشار وباء الحصبة في بعض قرى السنغال، حدث اختلال مفاجئ: لم تكن تولد سوى فتاة واحدة مقابل عشرة صِبيْة. بعد ذلك لوحظت الظاهرة الغريبة ذاتها في مناطق أخرى من العالم»...

مددتُ يدي بالرسالة إلى كلارانس التي كانت تفض بريدها قربي. لابد أن الساعة كانت التاسعة صباحاً وكنا جالسين منذ فترة طويلة على مائدة الإفطار أمام النافذة المزجَّجة المطلة على حديقة النباتات. كانت تلك هي الفترة الأكثر جاذبيةً في يومنا، ولم نكن لنبدلها أبداً بأيّ غدٍ كان.

ـ اقرئي هذه الأسطر، قد تكون تفسيراً لما جرى في قرية السيدة العجوز في كوجارات.

أَخَذَتْها وقَرَأَتْها.

ـ ربما.

كانت ستلفظ كلمة «ربما» بالطريقة ذاتها لو قلت لها مثلاً إن العسل الذي اشتريته ذاك الصباح، كان أفضل من العسل الذي أشتريه عادةً. نعم، اللامبالاة المهذبة ذاتها، باستثناء أنّها غادرت مكانها أبكر من المعتاد.

ـ سأستحم قبلك.

حين رأيتها تذهب، ابتسمتُ. لقد جعلَتْني أفكر بامرأة ذكَّرها أَحَدهم بعلاقةٍ قديمةٍ لم تكن تنفيها إلا أنها لاترغب باستئنافها.

هكذا تقريباً فسرتُ الأمر، وعندما أرسل لي أندريه بعد عشرة أيامٍ رسالةً ثانيةً، تجنبتُ أن أكلّم كلارانس عنها. من جانبٍ آخر تضاعفت الرسائل، ولم أفاجأ بشكلٍ خاص بالأمر. فإذا كان صحيحاً أنّ بوسع ڤالوريس أن يُمضي أعواماً دون أن يكتب لي أو يتصل بي، مكتفياً بلقاءاتنا الطقسية نصف السنوية، فقد حَدَثَ أن أرسل لي تباعاً صفحاتٍ منسوخة، بالكاد علَّق عليها، ردّاً على بعض القضايا التي شغلتني والتي حدَّثته عنها. يجب القول إنّه في المرات القليلة التي فعل فيها ذلك، لم يفعله بمثل هذا الحماس. شلالٌ من الرسائل. كنتُ قد تلقيت عشرة رسائل خلال ثلاثة أشهر حين قررت إطلاع كلارانس من جديد على واحدةٍ منها.

كانت مقالة صغيرة من جريدة «تايمز اوف إنديا» أُعيد نشرها في صحيفة لندنية تصدر أيام الآحاد، وتقول إن مجموعة من الأطباء الهنود كشفوا النقاب عن: «ممارسة شنيعة تفشّتْ، يعرفها الجميع إنما لم يفكر أحدٌ في وقف

انتشارها... الملايين من النساء الحوامل اللواتي عرفن مبكراً جنس الطفل الذي سيلدنه، يطلبن الإجهاض إذا كان الجنين بنتاً. وقد وصل الأمر ببعض العيادات أن تتباهى بأنها لاتسلّم إلا الصبيان».

أظهرتْ هذه المرّة، الاهتمامَ الذي توقعتُه. أما تعليقُها..

ـ هكذا أكون قد أخطأت.

ـ كيف أخطاتِ؟

كأني هززتُها من كتفيها!

ـ كنتُ مقتنعةً بأن كل ما لاحظتُهُ في الهند، قد سبَّبَتْهُ «فولات الجُعَل». واتضح أنه بالنسبة لمدينة كوجارات كان وباء الحصبة هو السبب دون شك، وبالنسبة لدار التوليد في بومباي، كان السبب عمليات إجهاضٍ تعسفيةٍ.

ـ فليذهب الجُعَل إلى الجحيم! إن ما توصلتُ إليه أنا من كل ما قرأت، هو أنّكِ عدتِ من هذه الرحلة وفي حوزتك مجموعة من المعلومات ومشاعر الحدس التي لم يأخذها زملاؤك على محمل الجد، وقد ثبتت صحتها جميعاً. إننا أمام ظواهر مقلقة، وتستحق أن يجري حولها تحقيقٍ جديٌّ، سواء في الهند أو في بلدان كثيرة أخرى. أليس هذا أكثر أهميةً ألف مرة من قصص حبات «الفول»؟

ـ إننا لانتحدث عن الأمر ذاته، رغبتُ...

صمتتْ كما لو أن الإنهاك أطفأ صوتها. كنتُ سأستغلُّ صمتها كي أزيد في توبيخها، حين تقاطعتْ نظرتانا، فكففتُ

عن الكلام. كان في عينيها رزانة ـ بل أسوأ من ذلك ـ كان ضِيقاً لم أره فيهما من قبل. أخذتُ يدها بين يديَّ ثم رفعتُها ببطءٍ إلى شفتي بحركةٍ مألوفةٍ لي. كنت أهيِّءُ نفسي لأسألها بكثيرٍ من المراعاة عمّا أحزَنَها إلى هذه الدرجة حين استعادت السيطرة على نفسها، ارتسمت ابتسامة خفية في زاوية فمها، وكأن ضِيقها الوحيد كان الضيق الناجم عن إيجاد الكلمات الملائمة.

ـ إن ما يعجبني في قصة «فولات الجُعَل» هو أنّها تتيح لي أن أفحِمَ، وبأناقةٍ، جميع أعداء المرأة. لكنّي لن أرغب مطلقاً لقاء أي شيء في العالم أن أتوه في الجدل الأزلي الدائر حول الإجهاض.

»كما ترى، هناك كلمات معينة، ما أن تلفظها، كما لو أنك سكبت قطرة ليمون في كوبٍ من الحليب الساخن. في الحال تتشكل الخثرة ويمصل الحليب. قل كلمة «إجهاض»، فيشبّ الناس ويستعيدون ردود أفعال وأوضاع أولية انعكاسية. عبثاً تشير إلى الفوارق الدقيقة. يرفضُ أحدٌ الاستماع إليك. عليك وبسرعة أن تختار في أيّ جانب من المتراس تريد أن تقف. يصنفك البعض واحداً من «المتعصبين» والبعض الآخر واحداً من «المنشقّين». مع ذلك ففي رأيي أنّ «المتعصبين» ليسوا أفضل من الذين يمارسون الإجهاض: ألم يخترعوا الخطيئة الأولى التي تقول بأنّ المرأة هي سبب جميع المصائب وأنّه لولا جشعها وغباؤها لبقيت البشرية في الجنّة؟ ألم يخترعوا أن المرأة هي التي وُلِدتْ من ضلع الرجل وأن الله الذي كان يُفترض به، بحكم المنطق، أن

يكون في الوقت نفسه أباً وأماً، كان أباً فقط؟

»لم نتوقف منذ آلاف السنين عن مدح الذكورة. لقد تمنت البشرية بأسرها ألّا ترزق إلا بالصبْيَة. واليوم، يمكن أن تتحقق الأمنية، يا للمعجزة. بات من الممكن أخيراً التخلص من الفتيات مع الماء الوسخ. مَنْ يثور؟ المتعصبون. في حين أنه يوجد بين المناصرين للمساواة بين الجنسين، بعضٌ ممن يفضلون غضّ الطرف...

»وتريدني أن أهرع للدخول في جدل المجانين هذا!

G

مراعاةً للحالة النفسية التي تحصّنَتْ رفيقتي خلفها منذ عودتها من رحلتها، حَرِصْتُ على ألّا تقرأ رسائل ڤالوريس الأخرى، نظراً لأنها ترتبط بأحداثٍ يعود معظمها إلى بداية التسعينات. أنا نفسي لم ألقِ عليها سوى نظرةٍ سريعة قبل أن أصنفها ضمن ملف بلاستيكي، وذلك مراعاةً لصديقي وإرضاءً لضميري.

لكن عندما حان موعد زيارتي الطقسية لأندريه، أجبرتُ نفسي على قراءة الكل قراءةً جيدةً. كان ينتابني شعورٌ بالخجل قليلاً من هذا الإعداد المتعجل «للامتحان» الذي يليق بصبي، إنما كان يحدث لعرّابي أن يدقّق تدقيق الفاحص الشديد. كان لبقاً، ودوداً، ومع ذلك فقد كان عنيداً. منذ طفولتي وفي كلّ مرةٍ يهديني فيها كتاباً، كان يفترض أنني سأكون قبل اللقاء التالي قد قرأته جيداً. وكان يوصيني قائلاً: «اقرأ ببطء»، «دون قلم رصاص، فنحن غالباً ما ننزع عن أنفسنا، عَبْرَ خَرْبَشاتٍ غير مقروءة، ما يجب أن يبقى مزروعاً هنا»، ويضغط بسبابته على جبينه. كان يدرك بسهولة أنني لم أفتح كتاباً غيره في المدة الفاصلة بين الزيارتين. «إذا قرأتَ خلال عشرين عاماً، مثلما أفهم القراءة، أربعين كتاباً حقيقياً، ستصبح قادراً على مواجهة العالم».

قرأتُ إذاً «مثلما أفهم القراءة»، رسائله العشرة، أعني أنّني قرأتها مراراً واجتررتها.

ـ لديّ فضولٌ لمعرفة ما استرعى انتباهَكَ مطولاً بين كلّ ما أرسلْتُه لك.

بهذه الكلمات، استقبلني أندريه عند الباب. لذلك أبلغته بمجرد جلوسنا في مكانينا المعتادين عن نقاشي مع كلارانس، قبل أن أحدّد قائلاً:

ـ شعرتُ على العموم بأنني أمام أحجيةٍ غريبةٍ. لا أدري ما إذا كانت مقاطعها اللفظية مرتّبةً كما يجب، ولا أدري كذلك إذا كان هناك جواب لها في النهاية.

لو كنّا التقينا الأحد الماضي، لاعترفتُ لك بالحيرة ذاتها. لم أفعل شيئاً سوى جمع المعلومات اعتماداً على حاسة الشم وعلى الغريزة. لكني استيقظت نهار الخميس على فكرةٍ ملحّةٍ، وأمضيت اليوم في المكتبة، أُبحر بين جداول الأرقام، بين المعدلات التي تتكرر صفحةً بعد صفحة، والتي لم تكن تتباين إلا بعيداً إلى يمين الفاصلة. كنت على وشك التخلي عن الموضوع عندما رأيت فوق أحد الرفوف، دراسة عن سكان عشرة مدنٍ تقع على ضفاف المتوسط ومن بينها القاهرة ونابولي وأثينا وأسطنبول. يوجد هنا أيضاً قدْرٌ من الأرقام ينسى معه المرء الأبجدية، ولكن يوجد إلى جانبها فقرات طويلة من الشروح، كَتَب فيها مؤلفوها بالنص الصريح أنهم لاحظوا وجود تقدم ملموس في نسبة ولادات الذكور وتراجعاً «مهماً» في نسبة ولادات الإناث في كلّ مكان. عادةً كان يولد وسطياً مئة وخمسة صِبْيَة مقابل مئة فتاة. بينما تعطي أرقام

التحقيق نسبةً تفيد بأنه مقابل كل مئة فتاة يولد من مئة واثني عشرة إلى مئة وتسعة عشر صبياً، وذلك تبعاً للمدينة. لاشيء يسترعي الانتباه بالنسبة للغريب، لكن إذا اعتمدنا ما يقوله المؤلفون، فإنه تباينٌ لاسابق له على صعيدٍ واسع بهذا الشكل.

››أهي ظاهرة شبيهة بتلك التي أبلغ عنها الأطباء الهنود؟ ما أزال أجهل الكلمة الفاصلة، إلّا أنني أعرف على الأقل ومنذ نهار الخميس أن هناك لغزاً وأنّه يلحّ على أدمغةٍ أخرى غير دماغي.

لم يسبق لي أن فارقتُ أندريه بمثل هذا الشعور بالجوع غير المشبع. عادةً، وأنا أسمع صوت البِاب ينغلق على مهلٍ خلفي، مُصدراً ذلك الصوت الحزين المُصمت لأثقالٍ قُيدت حركتها، كنت أسير متأملاً، مستغرقاً لكن بخطوةٍ طَلِقْة، خطوة تطفو أكثر مما تضغط بثقلها. لم يكن ذلك بسبب ما يعلّمني إياه عرّابي، فقد كان لدَّي منافذ أخرى توصلني للمعرفة. كنت أحسده على اليسر الذي يتمتع به في الانتقال من مجال إلى آخر، محلّقاً بعين نسرٍ فوق مشاكل العالم، أكثر مما أحسده على علمه الواسع.

لا أريد أن يُهينني أحدٌ ويظن بأنني أُخِذتُ بفنه الكلامي أو بتأثير نفوذه كمحام. لم تكن علاقتنا تأخذ هذا المنحى. سأقول وببساطة ودونَ أن أبتسم، إن أندريه كان يدرك أهميته جيداً. أعني أنه كان يملك ذلك النوع من القناعة الراسخة التي يُعبِّرُ عنها بوقارٍ حقيقي، والتي تقول إنّ كل شيء في هذا العالم، القوانين، والعلوم، والأديان، والدول، قد صنعه رجالٌ مثله ومثلي، وكل شيء بالتالي، يُمكن أن يُحاكَم،

ويكون موضوع سخرية، أن يُفَكّك وأن يعاد صُنْعُه من جديد. «نحن لسنا ضيوفاً على هذا الكوكب، إنه ينتمي لنا بالقدر الذي ننتمي نحن له، ماضيه ينتمي لنا وكذلك مستقبله».

لم تكن تلك القناعات تنسجم مع طَبْعي. فطالما كان لديّ إحساس حاد بضآلة أهميتي. أنا أيضاً أقول ذلك دون تواضع كاذب أو خجل، لم أفتح عيني على هذا العالم وأنا أفكر بطريقة لقَلْب أوضاعه، لستُ صانع قوانين، لست سوى مراقب، سعيد جداً باكتشاف فقرة منسية في قوانين عالم الحيوان، سعيد جداً أيضاً أن أُمارس، كفردٍ بين المليارات من بني جنسي، لعبة البقاء والتكاثر في حدود قواي وضمن الزمن الممنوح لي. من يعمل عملي يكتسب حِسّاً حاداً بوقْتيّة الأشياء ويتعلم كيف يذعن لها.

نظراً لتلك اللقاءات المتباعدة ذاتها، فقد كانت صداقتي لڤالوريس شافية لي، كنت أستقي باستمرار من وجودي بجواره، جُرعتي من الثقة بالنفس. كنت في اليوم الذي يتلو لقاءنا، أستأنف أعمالي برغبةٍ شديدةٍ في النجاح.

هذه المرة لم يكن الأمر كذلك، على العكس، مضيت بإحساس من يهرب. بقيتُ عنده المدة المعتادة ذاتَها، حتى القطعة ما قبل الأخيرة من الحلوى. ثلاث ساعاتٍ كاملةٍ، لكني لم أفعل في الحقيقة شيئاً سوى لَعِب دور الممثل الصامت. أرسلَ إليَّ أندريه عشرة نداءات نجدة بطريقته الأنوفة، المتعالية. عشرة نداءات لم يُثر أيٌّ منها فضولاً حقيقاً لديَّ. لم أُباشِر بأيّ بحثٍ حول أيّ جانب، ولم أتوصل لأيّة فكرة غير متوقعة، واكتفيت، طوال لقائنا بمراقبة صديقي وسبر محاولات بحثه الحائرة والمترددة، في حين كنتُ أنا مَنْ

حَرَّضه. كنتُ أعلم جيداً أنّه يجد متعةً في التحري، أمّا في عصر ذلك اليوم، فقد كان هناك شيءٍ يفوق الإثارة الفكرية. كان هناك نوعٌ من القلق وشعور بالاستنفار لاينسجمان كثيراً مع الصورة التي كوَّنتُها له.

تفسيري الأول، كان لأول وهلةٍ محدود الفهم: العمر. كان أندريه في الواحد والسبعين من عمره، تَوَقَّفَ عن المرافعة في المحاكم منذ زمنٍ طويلٍ، لكنه لم يتخلَّ عن مكتبه إلّا منذ عهدٍ قريبٍ جداً. طالما انتقدتُ لدى نظرائي، نزعتهم إلى اعتبار الآخرين المنتمين إلى جيلٍ آخر، حالاتٍ خاصة، فيما يَعتبِرُ كلٌ منهم نفسَهُ، في كلّ مرحلةٍ من مراحل العمر، الحالةَ العامة، الموطنَ الدائمَ للحالةِ الطبيعية. انتقدتُ، تمردتُ، سخِرت، لكن عليَّ أن أُقِرّ بأني لست في مأمنٍ من ذلك الاعوجاج. كنت مستعداً ذلك اليوم، للاكتفاء بتفسيرٍ غير مدروسٍ إلى ذلك الحد. هكذا، مع أنّي حصلت على طمأنينةٍ شبه مجّانية، فقد وعدتُ نفسي في تلك الأثناء، أن أكرس وقتاً أكبر لِما سيرسله لي أندريه في المستقبل من رسائل وأن أرسل له أنا نفسي من وقتٍ إلى آخر بعضاً من مقتطفات الصحف.

هذا إذا سمح لي الوقت، لأنني كنت غارقاً وقتها في إعداد محاضرةٍ عامة. كان الموعد المعلن في 8 كانون الأول وكنا قد دخلنا في تشرين الثاني، ولم أكن قد كتبت السطر الأول بعدُ.

لم يكن ذلك استهتاراً، آه، لا! بل كان فرطاً في الحماس. شَتَّتُّ نفسي بين الأبحاث إلى درجة رحت أؤجِّل معها كتابة المحاضرة باستمرار إلى وقتٍ لاحقٍ. موضوع محاضرتي ـ

يا إلهي كم يبدو غير واقعي الآن، لكني أصرُّ أن أقول كلمتين عنه، حتى لو لم يكن ذلك إلّا لأوضح إلى أيّ حدٍ يستطيع ذهني أن يبتعد عن همومي اللاحقة ـ قلتُ إنّه يمكن تلخيص الموضوع بالشكل التالي: بعد أن كان الأوتوموبيل في بداياته تقليداً للعربة التي تجرّها الأحصنة، صار يقلد طريقة مغمدات الأجنحة في الحركة: كالخنفساء السيتونية والدعسوقة، وهذا مؤكد، بقدر ما هو مؤكد أن طائرة الهليوكوبتر مستوحاة من اليعسوب أو من الدبّور. قد يقال إنّه موضوع تافه؟ مع ذلك لقد تركتُ نفسي تُشغَفُ شهوراً في هذا البحث، الذي كان يمنحني مُتَعاً ضئيلةً جداً تغمرني بالرضا، فلم يكن الموضوع علماً فحسب بل فناً أيضاً، فناً في الكتابة وفي الطبائع. كنتُ قد أعددت أزواجاً من الشفافيات الضوئية لإظهار الشبه بين بعض السيارات والحشرة التي كانت نموذجاً لها، أو التي يُحتمل أنها كانت نموذجاً لها. بل إنّي وجدت فيلماً صُوِّر من طائرة، يُبَيِّنُ الحياةَ اليومية في مدينةٍ كبيرةٍ حديثة. كانت تبدو كأنها مسكونةً حصراً بمستعمرات من الحشرات المعدنية.

كان كل شيء جاهزاً إذن، إلّا الشيء الرئيسي، نصّ المحاضرة. لذلك خصصت لنفسي يوم أحدٍ، في منتصف تشرين الثاني ـ قَرَّرَتْ فيه كلارانس الذهابَ لزيارة أهلها في سيت ـ كي أنفرد بنفسي من الصباح حتى المساء وأكتب. استيقظتُ في السابعة وضحيتُ ببسالة بوجبة الإفطار، مكتفياً بِدَلّةِ قهوةٍ قوية وضعتُها على طاولة العمل. قبل الثامنة، كنت في موقع عملي. سبقَ أن كتبتُ الفقرةَ الأولى إحدى عشرةَ مرّةً ومزَّقْتُها إحدى عشرة مرةً أيضاً، حين اتصل بي ڤالوريس في وقتٍ ـ لايمكن إلّا أن يكون وقتاً مناسباً ـ عند الساعة التاسعة.

ـ لديّ فكرة بخصوص تحقيقنا، إذا كان لديك بالمصادفة دقيقة أثناء النهار...

كيف أقول لا؟ وقد كانت مبادرَتُه استثنائيةً لهذا الحد. بعد تعليق السمّاعة، ألقيتُ على أوراقي التي ماتزال بيضاء نظرةَ قنوطٍ متهلِّلة، النظرةَ المنافقة لطالبِ ثانوي يشتكي لأنه تَعَرَّضَ للإزعاج في اللحظة التي بدأ فيها القيام بواجبه المدرسي، وهو في الوقت نفسه يشكر السماء بنذالةٍ على ذلك الإلهاء الذي أرسلتْه العناية الإلهية.

لدى وصولي بالسيارة إلى شارعه، كان أندريه ينتظرني في الأسفل، يتلفح بلفحةٍ بيضاء طويلة. فلقد جاء الشتاء مبكراً ذلك العام.

صعد إلى جانبي.

ـ إذا شعرتَ لدى عودتِكَ من هذه الجولة بأنّي قد شوشتُ نهارَك دون سببٍ كافٍ، لاتقلْ لي ذلك، فسوف أغتاظ، إنما سامحني في قلبك.

تجمّلتُ بابتسامتي الأكثر بَنَويةً وسألتُ:

ـ إلى أين تتجه؟

ـ إلى أورليان. هناك صديق ينتظرنا، صديقٌ قديمٌ جداً. لجأت عائلتي مع عائلته إلى جنيف في الوقت ذاته أثناء الحرب العالمية الثانية. كنا شابّين شغوفين بالبحث العلمي، إلّا أنّ والده هو، لم يكن يُصِرّ أن يراه محامياً.

»لم نلتقِ إلّا قليلاً في السنوات الأخيرة، فقد عاش وعمل

في كاليفورنيا بشكلٍ خاص. أما الآن، فهو يقضي فترة تقاعدٍ هادئة قرب أورليان، في قصرٍ ريفي تحيط به أشجاره وكتبه وأحفاده، سعادة الحياة الدنيا! كرّسَ حياتَهُ من أجل تحسين النباتات وراثياً. لم يكتشف شيئاً مذهلاً، لاشيء يمكن أن يُطلَقَ عليه اسمٌ محدد. لكنَّ بعض الإجاصات التي نقضمها، مَدينةٌ له ـ من ناحية اللّب والقشرة والأريج ـ بقدر ما هي مَدينةٌ للطبيعة تقريباً. إن مجال عمله هو من أكثر المجالات التي تُكافئ الإنسان. ففيه يتودد إلى الأزهار والثمار، ويستطيع أن يتذوق بنفسه ما اخترعه. عملٌ يحتاج مع ذلك إلى فصولٍ من الصبر ومن المهارة.

»ها قد حزرت. لسنا ذاهبين إليه للحديث عن النباتات. آه، إنها لَمُتعةٌ في كلّ لحظة حين يبدأ بالحديث عنها! لكنه ليس من المغرمين بالحواجز التي تقسم داخل الثمرة، هو يزاوج بين الأنواع كي يتأمل ثمارها الهجينة. حدَّثْتُهُ البارحة بالهاتف، عن ملاحظاتي وأنا متأكدٌ من أن ردودَ فعله ستثيرُ اهتمامَك. لأنّه عالِمٌ حقيقي وليس مثلي مجردَ متطفل.

H

تحدثت قبل قليل عن الأوتوموبيلات وأَوْجُهِ الشَّبَهِ، التي وجدْتُها فيها مع الحشرات. كان يجدر بي البدء بقول الشيء ذاته عن الناس. ليس المقصود ذلك الشَّبَهُ الأخلاقي المزعوم الذي أشاعته الحكايات والذي يجعلنا نشَبِّه ذاك أو تلك، بنملةٍ أو زيزٍ، أو نحلة أو ذبابة رشيقة أو سرعوفة ورعة. أنا لاأتحدث سوى عن الشبه في المظهر.

لديَّ في الواقع هَوَسٌ يجعلني أقرِن كلَّ شخصٍ ألتقيه بصورةِ حشرةٍ يذكِّرني بشكلها. هكذا ـ وهنا يكمن سبب هذا الاستطراد العابث نوعاً ما ـ استدعى صديق أندريه إلى ذهني مباشرةً صورةَ فراشةِ الأغريون الفتية ذات قرون الاستشعار المسطحة بشكل مفرط... لا أشعر قط بالخجل من كتابة ذلك، لأنّي قلتُه له بعد بضع سنين، فضحك طالباً مني أن أريه الحشرة الشبيهة به. شرحتُ له في تلك المناسبة، بأنني أعاني من عجزٍ مرضيٍّ في التعرف على الناس، وأنّه حَدَثَ لي أن صادْفتُ في الشارع، زميلاً أراه يومياً في متحف العلوم الطبيعية، فجأةً لم يعد وجهه يعني لي شيئاً، لأنّي رأيته خارج وسطه المعتاد، دون مريول أبيض، ترافقه امرأة وأطفال. هذا في حين أن ذاكرتي، مع طلابي، اصطفائية إلى حدٍ تَصيرُ معه فَكِهة: كنت قادراً أن أتذكر، بعد عشر سنين، تفاصيل من

حديث أجريتُه مع واحدٍ منهم، وأتذكر الآراء التي طرحها، دون أن أخطئ قطّ باسم الشخص، لكن كان يمكن أن ألتقي بالطالب ذاته، في الشارع، بعد ساعةٍ من حديثنا، دون أن أعرفه. كما لو أنّي أرى للناس ملامح فكرية وأخلاقية تحدّد هويّاتهم بشكلٍ كاملٍ، فيما تبقى ملامحُهُم الشكلية غير محدّدة.

بعد أن كونْتُ لنفسي بهذه الطريقة عدداً لايحصى من الأعداء، قررتُ يوماً اللجوء إلى وسيلةٍ من اختراعي لتقوية الذاكرة: كوني لاحظتُ أنّي لاأخطئ أبداً في الملامح النوعية لمغمدات الأجنحة لدرجة أنّي كنت قادراً من النظرة الأولى أن أميز الفروق الصغيرة جداً، التي لايراها الآخرون إلّا بالمجهر، الأمر الذي ينطبق على آلاف الأنواع، وكَوْني لاحظت أيضاً أنَّ لكلّ كائنٍ بشريٍ ملامحَ تسمَحُ بإلحاقه بنوع محدد من الحشرات. من هنا وجدت الحل: منذ الآن رحتُ أعطي لكلِ شخص، بِغَرَضِ الاستعمال الشخصي، نوعاً من الاسم المشفّر لكلّ شخصٍ... لا أُلزِمُ أحداً أن يصدِّقَني بغير دليل، لكّن هذه الطريقةَ هي التي تمكِّنُني من التعرف على الصيدلانية التي تعمل معي إذا التقيتُ بها عند بائع الخبز.

عَوْدة إلى صديق أندريه. لم أقل بعد إنه يدعى إمانويل لييڤ. كان في ذلك الوقت شخصاً مجهولاً تقريباً. مازلت أذكر الكلمات الأولى التي استَقْبَلَنا بها.

ـ كنتُ أود أن أريكم الأشجار التي تهرم معي، لكن السُلالة التي ننتمي إليها سريعة التأثر بالبرد ولاسيما الفرع المدعو ڤالوريس. كأني أراك ياأندريه تُمضي سباتاً شتوياً

على أريكةٍ من تشرين الثاني حتى آذار. لكن، ربما ليس من المفترض أن أتحدث هكذا أمام رفيقك الشاب، اعذرنا أيها السيد العزيز، عَرِفتُ أندريه حين كان في الثانية عشرة من عمره وكنتُ في الرابعة عشرة، كنت أدعوه «الصغير» كي أزعجه، واحتفظتُ دوماً بهذا الامتياز.

كم أشعر بأنني مراهقٌ بين هذين الرجلين اللذين يكبراني عمراً. ماهو الشيء الأكثر طبيعية من ذلك؟ لكن لابد أن نظرتي إلى أندريه هي التي بدت غريبة. فقد كان حاضراً، مغتبطاً، صامتاً، مضغوطاً ومربوعاً كما لو أنه تقلَّصَ. وعندما حدَّقتُ فيه، اكتشفتُ فجأة «الصغير» الذي تحدَّثَ عنه صديقه. اكتشفْتُه كما لو أنه لم يخطر ببالي قط أنَّ أندريه كان يمكن أن يكون طفلاً، بل رضيعاً مقمطاً. لأنّي رأيته باستمرار وهو يجلس فوق أريكته كأنه أبو هولٍ أبدي يجثم فوق قاعدة. بضعُ لطماتٍ جريئة كانت كافية لأن يعودَ الصبي إلى الظهور تحت درع الرجل الراشد.

لم تتبدد تلك الرؤية وتعود الصورةُ الأليفة إلا بعد أن دخلنا واستراحَ ثم ترك جسمَه يسقط في أوسع أريكةٍ.

نسي إمانويل لييڤ الشيطنات الجنيڤية[1] أيضاً وهدأت إيمائياته الجذلى وتحوَّلَتْ إلى ابتسامةٍ رزينةٍ. ارتسمَ تغضُّنان من الحكمة بين حاجبيه. وحين بدأ يتكلم، توجَّهَ بالدرجة الأولى إلى ڤالوريس، رغم أنّه نقَّلَ نظره بأدبٍ من الواحد إلى الآخر.

ـ منذ الأمس وأنا أُجيل قليلاً في رأسي جميع الوقائع

(1) نسبة إلى مدينة جنيڤ.

التي جمعْتَها، وأعتقد أن مشاغلَكَ تلتقي ببعض أقدم دواعي قلقي. نحن نرصد الشرَّ ذاتَهُ، رغم أننا لانقرأ، بالضرورة، الأعراض بالطريقة ذاتها.

»لنأخذ «عيادات الصبيان» الشهيرة تلك والتي أبلَغَ عنها أطباءُ الهند. الوضعُ خطيرٌ وصار قديماً، فهو يعود إلى الثمانينات. إننا أمام مأزقٍ أخلاقي بالنسبة للأطباء والأهل وكذلك بالنسبة للسلطات، لأن ممارسةً من هذا النوع، مهما كانت دنيئة، غالباً ما تكون قانونية تماماً. يجري كشف، فإذا كان الجنين فتاةً، تُبتَلعُ حبة مجهضة. لن تعترف الأم ولا الطبيب بأن هذا تمييز بحت بين الجنسين، بل سيزعمان على العكس، أنهما يدافعان عن حق المرأة في الاختيار. إنّه إذن، مأزقٌ أخلاقي إنما حتى الآن ليس له انعكاسٌ كبير على الأرقام والنسب السكانية. بات الكشفُ المبكر وبصورة يقينية، لجنس الجنين ممكناً اليوم، لكن الوسيلة ماتزال مكلفة، لم تعمم إلا في البلدان الغنية، أما في بقية البلدان، فما تزال مقتصرةً على أقليةٍ ضئيلةٍ من سكان المدن، الأقلية الأكثر يسراً والأكثر تعلماً. نستطيع الافتراض بأن الغالبية العظمى من هؤلاء النساء سواءٌ انتمين إلى مجموع سكان البلدان الغنية أو إلى نخبة البلدان الفقيرة، يردن معرفة جنس الطفل، ببساطة لكي يعرفن، لكي يخبرن الأب إذا لزم الأمر: «إنها فتاة» أو «صبي» أو «ثلاثة توائم». ولكن، كم يبلغ عدد النساء المستبسلات لإنجاب طفلٍ من هذا الجنس وليس ذاك، إلى حدٍ يدفعهن إلى الإجهاض، حتى لو كان سهلاً وشرعياً، وحتى لو لم يكن ينافي قناعاتهن؟ يبدو لي أنهن قلّةٌ قليلة. من وجهة نظر أخلاقية، إنه المأزق ذاته. لكننا إذا تكلمنا عن نسب السكان، أشك أن يكون ذلك معبّراً. أعلم بأنني لا أمتلك براهين

حاضرة، وأني ألجأ بلا تروٍّ إلى كلماتٍ مثل «أغلبية» أو «كثيراً» أو «قلة قليلة»... مع ذلك لديّ قناعتي الخاصة، مثلما يقول القضاة، بأنّ الخطر يكمن في مكانٍ آخر.

جاءت سيدة متقدمة في العمر تجر عربة زجاجية، أنيقة، رشيقة إلى درجة أنَّ المرء لا يستطيع أن يتخيل أنّه كان بوسعها أن تكون أكثر رشاقةً في شبابها، إيرين لييف. قبّل أندريه يدها ثم وجنتَيها إثر ضحكةٍ.

ـ أعددتُ صحناً لكلٍ منكم، فقد قلتُ في نفسي إنّكم بهذا الشكل لن تلحظوا كثيراً الوجبة الزهيدة. أحضرتُ هذا النبيذ أيضاً.

جلستْ بالقرب من إمانويل الذي وضع الكأس والطبق دون أن يتذوق شيئاً منها.

ـ سنبدأ بالطعام أنتم وأنا ـ تابعتْ قائلةً ـ فالعجوز لايعرف كيف يشرب أو يتنفس حين يتحدث.

أحاط «العجوز» قبضَتَها، بيده الخشنة والحنونة.

ـ كنت أقول إنّ الخطر في مكانٍ آخر. اقتنعتُ لبعض الوقت أنه يكمن في حدثٍ آخر أثار حيرتَك يا أندريه، وباء الحصبة، ما الشيء الأكثر تفاهةً من ذلك في أفريقيا خلال السبعينات؟ قليل من الضحايا، وقليل من العواقب، ولا أي صدى في وسائل الإعلام. أما بالنسبة لبعض العلماء فقد كان أمراً عاصفاً!

››لقد لوحظ في الواقع أن النساء اللواتي أُصبن بالوباء ماعدن ينجبن عملياً سوى الصِبيْة، جُمعَتْ ملاحظاتٌ أخرى من عدة بلدان تتعلق بمختلف أنواع الأوبئة، ففُهمت الظاهرة

بشكلٍ أفضل قليلاً. لستُ مؤهلاً كفاية كي أشرحها لكم بالتفصيل إلّا أنّ الفكرة الأساسية هي أنّ المرأة، خلال مقاومتها للمرض، تُطلقُ أجساماً مضادة تهاجمُ الجنين الذي تحمله، كما لو أنها تعتبره ڤيروساً، فتلفظه بمجرد تَشَكُّلِهِ. بعض هذه الأجسام المضادة يستبسل إنتقائياً ضد الأجنّة المؤنثة ـ كما حدث في تلك الحصبة الأفريقية ـ وبعضها الآخر ضد الأجنّة المذكرة. قد تستطيع المرأة نظرياً إذاً، أن تتحصَّن ضد الفتيات، فلا تنجب سوى الصِبْية أو العكس. تتابعت بعدها الأبحاث ويبدو أن فريقاً من العلماء قد عزم على صنع لقاح. نعم لقاح. سواء بالحقن، بالتشطيب أو حتى على شكل أقراص. فمن أجل التأكّد من أنّ الجنين سيكون صبياً، تُلقَّح المرأة ضد البنات وبذلك لن يعود بإمكان أي جنينٍ أنثوي أن ينمو.

»لكن اسمحوا لي أن أعود لحظةً إلى «عيادات الصبيان» تلك، قلتُ لكم إن خطرها قد تضاءل بسبب التقنية المكلفة التي تلجأ إليها وكذلك لأن الأشخاص الذين يخيب أملهم بجنس الجنين الذي يُعلَنُ لهم عنه، يتردَّدون عموماً في إيصال الأمر حتى الإجهاض. أمّا إذا صُنّع ذلك اللقاح وانتشرَ وتعمم، فلن يعود الكشف عن جنس الجنين أمراً ضرورياً، ولن يعود هناك شعورٌ بأن الأمرَ ممارسةٌ للإجهاض. سيصبح كما لو أنه وسيلة حَمْلٍ انتقائية. إن حدوث هذا الأمر في بعض بلدانٍ معينة وأوساطٍ معينة لن يسبب بلبلة خطيرة بالنسبة لتوازن الأجناس، أمّا في الكوكب ككل، فستكون كارثة أرضية لاأجرؤ حتى على تخيّل نتائجها.

صَمَتَ وبقيَ بضع لحظات متأملاً. تناول رشفته الأولى

تماماً من النبيذ قبل أن يستعيدَ وجهُهُ ما يشبه الابتسامة.

ـ لحسن الحظ، راوَحَ هذا البحث في مكانه، واجهَتْهُ صعوبات تقنية يصعب التغلب عليها كما أخبرني أحد الزملاء. قد تُذَلَّلُ تلك الصعوبات لسوء حظنا الأشد. لكنّي، في النهاية، شبه متأكّد بأن اللقاح لم يصنّع ولن يصنّع قريباً. وأنا مطمئن منذ سنة حول هذه الناحية. إلّا أنّ لديّ أسباباً أخرى تدعو للقلق.

ثبّتَ نظره في قعر كأسه كمن يريد أن يقرأ المستقبل فيه.

ـ كانت فكرة ذلك اللقاح المضاد للبنات، متوحشةً بما فيه الكفاية، إلّا أنّ فكرةً تفوقُها توحشاً بزغَتْ في بعض الأدمغة.

»انطلق كل شيء من تجربة طُبقت على البقر، هي في ظاهرها سليمة ولاتشكل خطراً، فاكتُشِفَ ومنذ سنوات عديدة، أنّه أثناء عمليات التلقيح الصناعي المخبري يمكن التأثير على السائل المنوي للثيران لغرض تشجيع ولاداتٍ مذكّرة أو مؤنثة، حسب الطلب. وهذه الطريقة قابلة تماماً للتطبيق على أنواعٍ أخرى بما فيها نوعنا. ثم ظَهَرَ تساؤل، ألا يُمكن أن تكونَ هناك وسيلة تُطبق على الحيوان مباشرةً، وذلك بتطعيمه بمادةٍ قد تُغير سلالته. تقدَّمَت الأبحاث بسرعةٍ نسبيةٍ وضُبطت مادة تُضاعِفُ بشكلٍ ملحوظٍ من قوةِ الثيران وخصوبتها، إذ «تُنشّط» بشكلٍ من الأشكال، الحيوانات المنوية المسؤولة عن ولادة الذكور إلى درجةٍ يصبح معها احتمالُ ولادة أنثى، بعيداً إلى أقصى حد.

»جاءت النتائج مخيّبة للآمال، لأن فكرة البداية، كانت مساعدةُ مربّي الحيوانات على امتلاك أكبر عدد ممكن من الأبقار الأوفر مردوداً؛ بسبب منتجاتها من الحليب وتكاثرها.

رأى القسم الأعظم من الباحثين وضع هذا الاكتشاف جانباً، لاسيما أنّ الحيوانات المُعالجة، باتت عدوانيةً بشكلٍ خطيرٍ. لكنَّ بعض الخبثاء قالوا إنّه من الممكن استثمارُه بشكلٍ خاص في مصارعة الثيران، ويمكن حتى تكييف المادة بحيث تلائم أنواعاً أخرى من حيوانات المصارعة مثل الكلاب والديكة.

»ولمَ لا تُجرب يوماً ما على الإنسان؟ ليس من أجل صنع وحوش الحلبة فحسب لكن ـ كما يحدث «باللقاح» ـ لإرضاء تلك الرغبة السلفية عند مئات الملايين من العائلات، ذلك «الواجب» في إنجاب صبي.

»عند هذه المرحلة، وقبل أن يذهبوا بذلك المشروع بعيداً جداً، تدخَّلَ أحدهم. ربما كان بعض البيولوجيين قد تأثروا ـ كما قيل ـ فأثاروا انتباه عددٍ من العلماء المعروفين والمطارنة ورجال السياسة. أقول هذا كله بصيغة الاحتمال لأنّي لاأعرف سوى مقتطفات، لا أعرف الأسماء ولا حتى اسم البلد الذي وُجد فيه المختبر، رغم أنّ لديّ فكرتي الخاصة حول هذا الموضوع. لكن لايهم. المهم هو أن قراراً اتُخذ وطُبق بهدوء. لقد أوقف المشروع وحوِّلت الأموال لأمرٍ آخر، وتفرّق الفريق.

»منذ ذلك الوقت، وكلما سمعت أحداً يتكلم عن هذه المسائل المتصلة بالولادات الإنتقائية، أُصِيخ سمعي. لأن المعارف موجودة، والمشترين المحتملين، لايُحْصَون، وإغراء الربح يعمي الكثيرين من بني جنسنا. فكيف لانشعر بالقلق؟

ـ من يَسمعكَ يبدو له الأمر واقعاً لامحالة.

استفاد إمانويل لييف من ملاحظتي المذعورة لكي يبتلع

جرعةً أخرى صاخبة من النبيذ الأحمر، قبل أن يهز رأسه ويقول:

ـ سيقول لك صديقي أندريه، مثلما قلت، بأنّ جميع الفظاعات ممكنة الحدوث، لكن أياً منها لن يكون محتماً إذا تَنَبَّهنا له: للإجابة على تساؤلك بصورةٍ أكثر مباشرة، سأقول صحيح أنّه من وجهة نظر تقنية صرفة، يمكن دون شك، أن تكون تلك المادة اللعينة مصنعة اليوم، ومنذ منتصف التسعينات ربما. ولديّ قناعةٌ بأنها ستصبح متوافرة بالفعل، كل شيء يتوقف على معرفة متى سيحدث ذلك. كل شيء يتوقف على معرفة ما إذا كان ذلك سيحدث في وقتٍ يكون فيه الرجال والنساء من النضج بحيث يستخدمونها بطريقة مسؤولة. ستسألني من أكون كي أُعامل أمثالي كقاصرين؟ سأجيبك بأني تَيْسٌ عجوز، في الثالثة والسبعين من العمر، وأنّه أُتيحت لي، مع مرور السنين، الفرصةُ لا أراقب كيف يَستَخدِم البشر الوسائل الأكثر حداثةً في سبيل خدمة القضايا الأكثر تَهَرُّؤاً، فيلجؤون لأسلحة العام 2000 لحل نزاعات ترجع إلى عام 1000 ويكتشفون طاقةً رائعةً في الذّرة فيصنعون منها فطوراً مبيدة. وإذا صُنِّعت تلك «المادة»، ألن تكون ثمرةَ عملٍ طويلٍ بتقنياتٍ دقيقةٍ؟ وماذا ستكون فائدتها؟ حَذفُ الملايين والملايين من الفتيات في القارات الخمس، لأن تقليداً غبياً وُلِدَ في عهد الهراوات يطالب أن تستمر العائلات من خلال الذكور. مرةً أخرى، الآلة الحديثة في خدمة قضيةٍ بالية عفا عليها الزمن.

»نعم أعلم، مثلما تتطور التقنيات، كذلك تتطور العقليات، تجر بعضها وتتبع بعضها. إلّا أنّ هذه وتلك لاتتطوران

بالإيقاع ذاته. أحياناً عندما يكون هناك خطرٌ ما، يجب محاولة إبطاء سير التقنيات أو إبطاء تكاثرها. في عام 1945 وما أن أصبحت القنبلة الذّرية ممكنة الاستخدام في العمليات الحربية، حتى استُخدِمَت بانعدام كاملٍ للضمير. لقد تسببتْ بمئات الآلاف من الضحايا دون أن تغيّر نتيجة الحرب. كل ما فعلَتْه أنّها اختصرتْ المعركةَ في المحيط الهادئ بضعةَ أشهر. لو كانت جاهزة للاستعمال عام 1943 لاستخدمها هتلر ضد لندن، ثم ضد موسكو، ونيويورك وواشنطن، ولَانقلب مجرى التاريخ ـ ولَما بقيت عائلتانا، ياصديقي المسكين أندريه، في مأمنٍ حتى في سويسرا. لا أقول حقيقةً جديدة، أريد فقط التأكيد على عامل الزمن. كنتُ أريد ألّا تكون تلك القنبلة قد صنعت قطّ أو أن تكونٍ قد انتظرت مئتي عام، لكنني سعيد أنّها لم تصنع قبل سنتين. أقدّر أيضاً أنها ماتزال من التكنولوجيا الحديثة، الباهظة الثمن،وإذا تكاثرت، فليكن تكاثُرُها أبطأ مايمكن. ينطبق الأمر ذاته على تلك المادة اللعينة، فإن هي لم تنتشر إلّا خلال ثلاثين عاماً، سأجرؤ أن آمل بأنّ البشرية لن تسيء استخدامها. أما اليوم؟ تَرَون العالم الذي نعيش فيه!

أعترفُ أنني، في حينه، لم أكن لأكتشف إلّا بشكلٍ غامضٍ جداً، الشيء الذي يُلَمّح إليه. ألقيتُ نظرةً عابرةً إلى أندريه الذي كان يداعب لحيته بهيئةٍ مثقلةٍ. ثم إلى إيرين لييف التي سألت:

ـ أما كان ينبغي التدخل في وقتٍ أبكر لوضع حدٍ لبحثٍ من الواضح أنه يرمي إلى تلك النتيجة المفجعة؟

ـ هذه أشياء نقولها بعد فوات الأوان. أما في اللحظة ذاتها، فلا يرغب أيّ عالِمٍ أن تقوم السلطات، أياً كانت، بِشَفْط

المادة التي يُجري عليها اختبارَه. صديقُنا الشاب سيؤكد لكِ هذا. ومن ثم فإن البحث ذاتَه ليس موضع اتهام. لاينتزِعُ المرءُ عجلات السيارة الأربعة لكي يتجنَب التزحلق. أليس الحل الأبسط هو تغيير أسلوب القيادة؟

››دعوني أتخذ مثلاً من مجال عملي. يوجد بين زملائي رجلٌ كرّسَ عشرين عاماً من حياته المهنية لاختراع أنواع من التفاح الأثقل وزناً، دائماً أثقل، لكنه دون نكهة وقيمته الغذائية أقلّ من التفاح الذي اعتدنا على استهلاكه، وميزته الوحيدة هي إكساب المزارعين قليلي الذِّمة المزيد من المال.

››لديّ زميلةٌ أخرى من البندقية نجحت بعد ثلاثين عاماً من التجارب، في مضاعفة حجم حبة أحد أنواع الأرز، محافِظَةً في الوقت نفسه على تركيز الڤيتامينات فيه، بحيث استطاع ما يقرب من مئتي مليون من البشر أن يحسِّنوا غذاءَهم بفضلها.

››لقد درس هذان الباحثان الكتب ذاتها، اعتمدا على المكتشفات الأساسية ذاتها وكذلك استخدما التقنيات ذاتها، فقط لم يستخدماها الاستخدام ذاته.

I

حين عدت ذلك المساء إلى باريس، جلست دون تأخير إلى طاولة العمل، لا لكي أعود لكتابة محاضرتي، بل لأنقل كلمات لبيف حرفياً، قبل أن يخبو رونقها تحت تأثير أسبوعي المضطرب. لم أكن أفكر آنذاك بأني سأكتب يوماً كتاب الذكريات هذا، كنت أريد فقط أن أقدم لكلارانس عناصر مكتوبة، يمكن أن تساعدها في تحقيقها. ألم أعدها بالمساعدة الرفاقية؟

حين عادت من سيت، قرب منتصف الليل، كان رد فعلها، حتى آخر رفةٍ من رموشها، كما أَمِلْت. أمسكت بالأوراق بإحكام، موشكةً بأن تدعكها، وراحت تذرع الغرفة، عارية القدمين، وأنا أرصدها بناظري من مكمني. ثم لفظت ببساطة عبارة: «هذه المرة!» قبل أن تلقي بنفسها على ظهرها فوق منتصف السرير.

نعم، كان هناك هذه المرة مادة وافرة لتحقق فيها. لاشك بأن أسماء كانت تنقصها، وأمكنة وتواريخ، إلا أن المهمة لم تكن تخيفها. قد تسير مع سلسلة الأحداث راجعةً إلى أصلها، قد تفك عقدة الألسن، وقد تسرق الوثائق إن احتاج الأمر. في الجريدة، ستَسودُّ وجوه معينة!

سوف يقال لي، هذا ماكنتَ تفكر به، انتقام كلارانس ممّن سخروا منها في الصحيفة؟ وماذا عن الخطر ذاته؟ وماذا عن ملايين الفتيات اللواتي سوف يُمنعن من الولادة، ويكنَّ ضحية «المادة» التمييزية؟ بالطبع كنت أفكر بذلك، ولكن لو لم يكن لأجل رفيقتي، ما كلفت نفسي عناء نسخ مقابلة دامت ثلاث ساعات. لقد بدت لي المخاوف التي عبر عنها لييف والتي بدا أن ڤالوريس يشاركه فيها، بدت لي، إن جاز لي القول، أنها جليلةً أكثر مما هي رهيبة. نَجَمَ كل شيء، على الأرجح، من عملية بناء فكرية، يوم عطلةِ رجلٍ شريفٍ في قصرالأورلياني الريفي. كان بوسعنا الكلام عن الذرة، عن المخدرات، عن الأوبئة، أو عن ارتفاع حرارة كتلة الجليد، بتعابير لها المقدرة ذاتها على إثارة القلق، وكنت سأظهِر الاهتمام، والفضول، والتأثر، والتشوش؛ دون أن أشعر بالضرورة أنني معنيّ أكثر من المليارات من أمثالي. لن يصل بي الأمر إلى حد القول، إن مهنة رفيقتي تهمني أكثر مما يهمني مصير العالم، إلا أنني كنت أتصرف كما لو أن الأمر كذلك. مَنْ هو الذي سيُدينُني؟ هل تُعتَبَرُ أسبابُ أرقِ الآخرين أقل شُحَّاً؟

لم تتهلل رئيسة التحرير حين أثير من جديد موضوعٌ ظنتْ أنها دفَنَتْهُ نهائياً تحت الضحكات. مع ذلك فقد كان لابد لها أن تأخذ بعين الاعتبار العناصرَ الجديدة التي بدا أنها تُبرر عِناد كلارانس.

ـ سنتخذ قراراً يوم الاثنين القادم، في مجلس التحرير. أولاً، ولكي نتأكد أنا وأنتِ من أننا لا نخطئ، أتمنى أن تذهبي لرؤية برادان.

هل هناك حاجة لتقديم برادان؟ لاشك أنه نُسِيَ اليوم قليلاً، إلا أنه كان آنذاك معروفاً جداً، حاضراً جداً، ومنذ زمن طويل إلى درجة أصبح معها غنياً عن التعريف. أعتقد جازماً أنه أصبح وزيراً لفترة وجيزة في الحكومة، ولكن يجب التنقيب جيداً في اللوائح لمعرفة متى كان ذلك، وفي عهد أي رئيس وزراء. في الوقت الذي أتكلم عنه كان يرأس بعض اللجان، وبعض التجمعات، وكان مستشاراً لصحيفة كلارانس، التي كان أحد أصحاب أسهمها الهامين. كان رجل سلطة، وله دور في تشكيل الرأي العام.

كانت رفيقتي تود أن تلتقي به ـ هل كان أمامها خيار؟ـ إلا أنها عشية اللقاء كانت شَكِسة نوعاً ما. كانت قادرة على مواجهة أي شخص من بين كبار هذا العالم، طالما أنه ينطلق من موقعه الخاص وهي من موقعها، أما في ذهابها إلى برادان، فقد كان لديها شعور بأنها تبيع بضاعتها. لم يكن ذلك يعجبها، وفوق ذلك لم تكن ترى نفسها متمكنة من الموضوع بما فيه الكفاية. اقترحتُ عليها أن أرافقها، لأني تحدثت مع لييف مباشرةً. رفضت عرضي بحركة استخفاف من كتفيها المزهوين...

كان برادان بشوشاً، مطَمْئناً، وأتاح لزائرته أن تعرض موضوعها دون أن يقاطعها، مكتفياً بتشجيعها من وقت لآخر، بحركة تفهُّم برأسه. تكلمت بوضوح وصرامة، متجنبةً في جميع الأحوال، أن تذكر لييف أو ڤالوريس بالإسم، أوأن تشير كذلك إلى كلمة «جُعل»، خوفاً من أن يُتَّخَذَ ذلك حجة لأي تهكم. إلا أن برادان كان مطَّلعاً.

ـ قالت لي ميرييل ڤاست إن بحوزتك بعض البرشامات المصرية.

ـ «فولات الجُعَل». لم أكلمك عنها، لأنه لايوجد مايثبت أن لها صلة بهذه المسألة.

ـ من يعرف! كيف تؤكدين؟ «فولات الجُعَل»، سبق أن سمعت بهذه الكلمات، لكن الذاكرة، في هذا العمر...

صمتَ لحظة، غضَّن عينيه، وانتظرت كلارانس، بدافع الكياسة، أن ينتهي من التنقيب في ذاكرته، وأن يقول:

ـ سأحاول أن أتذكر. ولكن لنعد بالأحرى لما عرضتِهِ عليّ. إن رد فعلي الأول، بعيداً عن التفكر الجيد في الموضوع، هو أن كل ذلك مشوش جداً، غامض جداً. والحدث الوحيد الذي يبدو لي ملموساً، وأفترض أنك تحقَّقتِ منه، هو ذلك الخلل الحاصل في بعض البلدان بين ولادات البنات والصبيان. إلا أن هذه الظاهرة هي من الظواهر التي لايمكن دراستها علمياً، إلا بعد عقد من السنين، ليس قبل ذلك. من ناحية أخرى، أريد فعلاً أن أفترض أن ماقيل لك ينطبق على حقيقة ما. لاحظي جيداً أني لاأعتقد ذلك، إلا أنني أريد أن أفترض أنه، يوماً ما، ستكتشف طريقة بسيطة وفعالة من أجل تقليص الولادات في مناطق معينة من العالم. فهل سيشكل ذلك كارثة أو إبادة جماعية؟ لا أعتقد ذلك. هناك بلدان مكتظة بالسكان لم تعد قادرة على تأمين الغذاء لنفسها. حاوَلَ قادتُها بكل الوسائل، أن يسيطروا على الانفجار السكاني، وكانت النتائج محدودة، وأحياناً معدومة. فإذا وجدنا غداً أو

حتى اليوم، وسيلة لتقليص الولادات دون عنف ودون إكراه، بكامل رضى الأهل...

لابد أن برادان لاحظ من خلال إشارات في عيني زائرته، أن حجته قد أُخذت بعين الاعتبار. نظر في عينيها بشكل مباشر وبقوة.

ـ نعم، لو وجد حل من هذا النوع، فأين المشين أو المخالف للقوانين الاجتماعية فيه؟ حين أرادت الصين فرض الطفل الوحيد، عمد كثير من الأهالي في شنغهاي وغيرها إلى رشوة أطباء أو ممرضات من أجل «إخفاء» طفلهم الأول إذا كان بنتاً. وعندما أُريد فرض التعقيم بالقوة في الهند، حصلت فِتَن، فقد شعر الرجال أنهم يفقدون رجولتم، وشرفهم. إذا ضبطت المادة التي تتحدثين عنها، فسنصل إلى النتيجة ذاتها دون جرح مشاعر هؤلاء الناس، بل سينسجم الأمر مع مايريدون.

بدت كلارانس كمن استيقظ فجأةً من تنويم مغناطيسي طويل.

ـ إذا فهمت الأمر جيداً، فإن الشعوب سوف تُعَقَّم، في حين سيشعر كل فرد بأنه يتمتع بالمقدرة الجنسية والقدرة على الإنجاب، وأنه فوق ذلك سيبتهج بأن لديه صبيّان، أو ثلاثة، أو أربعة صِبْية.

ـ ليس المقصود تعقيم شعوب بأكملها، إلا أننا لايمكن أن نتجاهل أنه إذا تواجدت مادة من هذا النوع، وانتشرت، فإن مشكلة اكتظاظ السكان سوف تُحل في النهاية، في المناطق التي هي أكثر حدة فيها.

»راقبي عالم اليوم. إنه منقسم إلى عالمين انقساماً واضحاً. من جهة، المجتمعات ذات المعدلات السكانية الثابتة، والتي تزداد غنى، وتزداد ديموقراطية، وتحقق أشكالاً من التقدم التقني شبه اليومي، ومعدلات حياة لاتكف عن الارتفاع، إنه عصر ذهبي حقيقي، من السلم والحرية والازدهار والتقدم، لم يسبق له مثيل في التاريخ. ومن جهة ثانية، الشعوب التي يزداد عدد سكانها، لكنها تزداد فقراً باستمرار. مدن كبرى تتطور في جميع الاتجاهات، يجب إمدادها بالغذاء بواسطة المراكب، دول تهوي، في الفوضى، واحدة إثر أخرى.

»منذ عقود، وهي تبحث عن حل، إلا أنها تتورط في المشكلة أكثر فأكثر. هناك شئنا أم أبينا، عالمان من البشر، لم يعد من السهل تجاوز الهوة بينهما. فإذا أرسلت لنا العناية الإلهية، على حين غرة، حلاً، فمن سيتذمر من ذلك؟ هم الذين يتعين عليهم إطعام أفواه جديدة كل يوم، والذين يرون تطورات الإنتاج الخجولة، وقد مُحِقت، كُنست، وغرقت في الطوفان السكاني؟ ونحن، الأوفر حظاً، والذين نتحول إلى أقلية أكثر فأكثر، ألا نتمنى أن يكون أمثالنا من سكان الجنوب، أكثر ازدهاراً بقليل وأقل عدداً بقليل؟ من الذي سيشتكي، قولي لي، لو وجد حل لذلك؟

في الواقع، لم تكن كلارانس ترى، ليس بعد، من الذي يمكن أن يشتكي. بدت لها محاججة برادان، في لحظتها، ذات منطق مُفحِم. وسعت، برد فعل سليم، لإعادة مُحاورها إلى الموضع الذي تشعر فيه أنها أقدَرُ على الوقوف في وجهه.

ـ ماتقوله يؤثر بي، أعترف لك بذلك بكل سذاجة، وسأفكر فيه جيداً بعد خروجي من مكتبك. لقد وضعت إصبعك على مشكلة جوهرية في عصرنا. وإن كانت جوهرية فذلك بالتحديد، يجعل من الطبيعي أن تتحدث جريدتنا عنها، بل وأن تخصص لها حيزاً أكبر بكثير من ذلك الذي كنت أتصوره وأنا أدخل إلى مكتبك.

ـ يسرني أن كلماتي أثرت بك. إلا أنها ليست سوى آراء، هي موضع جدل منذ زمن طويل، ولايوجد شيء جديد تماماً. إذا أردت معالجة قضايا تتعلق بالعالم الثالث يوماً، تعالي إليّ، فربما يكون لدي أشياء أخرى كثيرة لإخبارك بها. أصر مع ذلك أن أوضح لك أني، طوال هذا الحديث الودي، لم أفعل شيئاً سوى أني فكرت بصوت عالٍ، في موضوع فرضية مدرسية عرضتِها علي، أقصد وجود مادة تسمح بانتقاء جنس المولود. على حد علمي، لاتوجد مادة من هذا النوع. ولو أنها وُزِّعت عبر العالم، من الهند حتى مصر، فهل تعتقدين أن الأمر كان سيبقى سراً؟

ألقى نظرة خاطفة على ساعته، لكي يشير إلى كلارانس بأنه ماعاد يمكن أن تطول المحادثة أكثر. مع ذلك، ألحت قائلة:

ـ أود تماماً الاعتقاد بأن هذه القصة لاتقوم على أساس، إلّا أنني أريد أن أمضي بتحقيقي حتى النهاية.

نهض برادان، بحركة حيوية، دون الاتكاء على شيء.

ـ أفهم تمسكك. كنت شاباً وعنيداً، أنا أيضاً. ولكن

صدّقي صلعتي البيضاء، ربما تضيعين وقتك.

ـ هل أستطيع أن أحقق في الموضوع، رغم كل ذلك؟ هل أستطيع أن أقول للسيدة ڤاست أنك لاتعارض؟

أظلم وجه مضيفها.

ـ سيدتي الشابة، هناك سوء فهم. أنت جئتني لطلب النصيحة، ونصحتك بأفضل ما أستطيع. دوري ينتهي هنا. إذا أردت القيام بتحقيقك، فإن عليك مناقشة الأمر مع رئيسة تحرير صحيفتك.

استعاد وهو يقودها باتجاه الباب، ابتسامة ملتوية قليلاً، لكي يختم قائلاً:

ـ على أية حال، بمجرد حصولي على أي عنصر يمكن أن يبدد شيئاً من الغموض، سأعمل على إيصاله لك أو للسيدة ڤاست.

إن استطعتُ نقل فحوى المحادثة بهذا الشكل، فالسبب واضح، وهو أن كلارانس قدمت لي، فور عودتها، بياناً دقيقاً عنه. مع ذلك، أضافت حين انتهت، وهي متفكرة ولاتشعر بالاكتفاء:

ـ هاأنت تعرف الآن كلمات برادان، إلا أنني أخشى أني أغفلت الشيء الأكثر أهمية.

صمتت تبحث عن كلماتها، أو عن أية صورة حية في ذاكرتها.

- لايوجد لدي أي دليل، إلا أني بمراقبة بعض ارتعاشات وجهه، وصوته، خاصةً حين أشار إلى «المادة»، كنت مقتنعة بأنه يتكلم عن شيء موجود، وليس عن مجرد افتراض. وذلك رغم كل حيطته في اختيار ألفاظه.

راحت تفكر من جديد.

- تولّد لدي أيضاً شعور غريب حين ذكر «فولات الجُعَل»...

في اليوم بعد التالي، وحين عادت كلارانس للكلام عن مشروعها في مجلس التحرير، ارتسمت بعض الابتسامات على الوجوه، لكنها لم تغتظ منها، فقد كانت منشغلة تماماً بتقديم المستندات الأكثر استرعاءً للانتباه من الملف، خاصةً تلك التي جمعها ڤالوريس. تركتها ميرييل تفصِّل أدلّتها قبل أن تسألها:

- التقيتِ بـ برادان، أليس كذلك، ماذا كان شعوره؟

- يعتقد أن المشكلة تستحقِ أن نوليها الاهتمام، لكن العناصر التي بحوزتي ماتزال غير كافية بعد.

- يعتبر، إن كنتُ قد فهمت جيداً، أننا نسبح في تأملات مطلقة.

أرادت كلارانس أن تجيب، إلا أن رئيسة التحرير أسكتتها بحركة مطَمئنة.

- أعترف أن هناك بعض العناصرالتي يمكن، بحق، أن تشغل بال ذهن فضولي، مثل «فولات الجُعَل» هذه، هل

تعتقدين حقاً أنه قد يكون لها صلة بالظاهرة التي تدرسينها؟

ـ عليَّ ألَّا أهمل أية فرضية، وهذه بالذات تهمني أكثر من غيرها.

ـ عندي إحساس أنك كلَّمتِ برادان عنها...

ـ قال إن هذا الاسم يوحي له بشيء، إلا أنه لم يستطع أن يتذكره.

ـ لقد تذكره بالفعل. هذا الصباح أرسل لنا هذا الكتاب.

سحبت ميرييل ڤاست من محفظتها كتاباً مجلداً، وبدأت تقرأ.

ـ « دخلْنا، رفاقي وأنا، إلى ذلك الحانوت الصغير، الذي يحل محل الصيدلية في تلك الضيعة الصغيرة. عرضوا علينا فيه كمادات عثمانية، مراهم جَعَلَتْ ماتبقى من رحلتنا منْتِناً، وكذلك «فولات الجُعَل» الشهيرة، التي مُدِحت لنا خصائصها المهيِّجة للشهوة. رفضنا جميعاً، بعضنا بدافع الحذر، وبعضنا بدافع الحياء.» هذا الكتاب يحمل عنوان: رحلتي في نهر النيل، من تأليف غوستاف ميسّونييه. طُبع في... (قلبت الكتاب، تسلَّت في التحقق من الأمر علانية)... في مرسيليا، عام 1904.

دُفِنَ الجُعَل.

لكن ماذا أقول عن كلارانس؟ عن روحها المُهانة؟ عن جرحها؟ عن عينيها المَيْتَتَيْن؟

كلارانس حُطِّمت.

تمنيت أن تصرخ، أن تشتم، أن تصفق باباً أو تحطم مصباحاً قبيحاً جداً. لا، لم يكن لديها القوة حتى لتجفف دمعة في طرف أنفها. لم أعلم ما حدث، إلا على شكل نُتَف مبعثرة في فوضى: الفخ، ثم الضحك المتعاظم، ذلك الزميل الذي اعتذر بِفُواق بين نوبتي ضحك وَصَلَ إلى درجة الاختناق. أغلقتْ أذنيها، ركضت، نزلت الدرج بسرعة، شهقت بالبكاء في سيارة الأجرة. ما أن وصلت الشقة حتى استرخَتْ إلى حين عودتي.

لم أكن أمقت دور المؤاسي، لولا القلق. في الأيام التالية تذكرت مراراً، مشهداً من فيلم بولوني من السبعينات. يشتكي فيه صحافي بمرارة لصديق يعمل محللاً نفسياً، من هموم مهنته التي تجعل حياته لاتحتمل. فيجيبه الآخر، «ليكن في علمك أن الشيء الخطير الوحيد الذي يمكن أن يحدث لك، هو أن تضيّع غريزة البقاء.» هذا بالضبط ماكنت أخشى وقوعه بالنسبة لصحفيَّتي: انحطاط القوى، الاختلال، الهاوية. فيما تبقى من الأسبوع، أمْرَضْتُ نفسي، كي آخذ بيدها.

ـ لاتكرري، لاتجترّي، ابصقي السموم بدلاً من أن تدعيها تجول في جسدك!

العلاج الذي اتبعته كان بسيطاً: حضور، ثرثرات حانية، ووجبات فطور لاتنتهي أمام النافذة المزججة. بقينا هكذا، أياماً كاملة، نرشف، نقضم، نتبادل أكثر الأشياء التافهة حلاوةً، وحين كان الصمت يتعاظم أحياناً، كنت أتحدث عن الحشرات، تَزَوَّدْتُ بمئات الدعابات، كل منها تجرُّ الأخرى مثل المناديل الورقية.

لم تلبث دموعها أن جفت، إلا أن كلارانس ظلت سئمة، كالمُطفأة. كانت تعتقد أنها عاجزة عن وضع قدميها في الصحيفة من جديد، وشجعتُها أن تتركها، إما لصحيفة أخرى، يقدِّرونها فيها بصورة أفضل، أو ـ وهذا ما لم أفصح عنه إلا إيحاءً ـ لإجازة طويلة يمكن أن تولد بياتريس أثناءها.

ـ في الحالة التي أنا فيها، ستكون بنتاً حزينة جداً. كنت أود أن أنقطع عن العمل، وأنا في أوج مجدي، وتألقي، وإقدامي، كنت أود أن يكون الطفل تتويجاً لسعادتي، وليس حصة من المواساة، أو علاجاً ضد الإحباط.

ـ لماذا تقولين «علاج»؟ ألن تكون الطفلة بالأحرى، حليفة لك، وشريكة، إذا ساعدتْكِ ولادتُها على تجاوز هذه الورطة؟ أنا قد أسميها حتى، «سالفاتريس»[1] !

نظرت رفيقتي إليَّ نظرة غريبة، كشفتُ فيها نوعاً من عدم الفهم المترفِّق، ثم، وبنبرة زائفة العجرفة، أفلتت العبارة:

ـ إن قبلتُ في صباح أحد الأيام، فسيكون السبب أني أحبك فعلاً .

ـ لاأعرف سبباً أفضل من هذا.

لقد وافقتْ.

أعلنتْ لي ذلك في اليوم الذي كان علي أن ألقي فيه محاضرتي العامة عن الأوتوموبيل ومغمدات الأجنحة. لم أكن قد وجدت ساعات التركيز الضرورية من أجل كتابة نصها،

(1) سالفاتريس: المنقذة.

وصممت أن أذهب لإلقائها بملاحظات كُتِبَتْ فوق ورق مقوى مطوي. كثيراً ماكنت أفعل ذلك في دروسي، أما حين يكون المستمعون مختلفين، ويكون الموضوع أقل ألفة، كنت أتجنب أن أعتمد كثيراً على حضوري الذهني.

لذا نمت نوماً سيئاً، واستيقظت بمزاج رديء للغاية، لم يعد دماغي سوى ثقب أسود هائل، وتوجهتُ إلى المسلخ... في لحظة خروجي، أعلنت لي كلارانس، هامسة ـ في حين كنا وحدنا تماماً ـ أنها «ستتوقف عن اتخاذ أي إجراء لمنع الحمل».

ذلك اليوم، الأربعاء، كان هناك إجماع من الكل بأني كنت لامعاً ومقنعاً، وأنني كنت أسيطر سيطرة نادرة على الموضوع، كما كنت أمتلك مزايا خطابية لايمكن إنكارها... صافحت عشرات الأيدي، مردداً بيني وبين نفسي، عند كل إطراء أحصل عليه، «شكراً كلارانس»، «شكراً بياتريس».

وفي المساء، حين أخذت رفيقتي من خصرها، كان لدينا شعور أننا نذهب إلى السرير لأول مرة.

سألتني، مناكدة، بينما كنت أنزع عنها ثيابها:

ـ هل هي أنا من تحب أم ابنتك؟

ـ إنه العالم بأسره هو من أحبه في هذه اللحظة، إنما أُعبِّر عن ذلك الحب لجسدك.

تظاهرتْ بالفرار.

ـ بسببك، سيتشوه جسدي خلال بضعة أشهر.

ـ يتشوه، بطن يتدوَّر مثل الأرض؟ يتشوه نهدان ينسكب فيهما الحليب، يمدان شفتيهما السمراوين نحو شفتي الطفل، ذراعان يضمان اللحم إلى اللحم، وذلك الوجه المائل؟ يا الله، إنها أجمل صورة يمكن أن يتأملها الإنسان الفاني. تعالي!

في لحظة مثل هذه اللحظة، ينطفىء مصباح في الأفلام المحتشمة، وينغلق باب، وتنسدل ستارة. وفي كتب معينة، تنقلب صفحة، إنما ببطء، مثلما يفترض أن تجري هذه الدقائق، ببطء، ودون صوت آخر سوى صوت نسيج يهتز.

J

ولدت بياتريس في آخر ليلة من آب، قبل موعدها بقليل، كما لو أنها أرادت كتلميذة جيدة أن تلحق بموعد العودة إلى المدارس، لكنها كثيرة الصخب، قليلة النوم وأكولة، ذات قدمين معوجّتين ترسمان بلا انقطاع، إشارات عصيَّة على الفهم. يالها من حشرة وردية اللون غريبة.

صباح اليوم التالي، وأنا وحيد في الشقة، حليق، معطر، وأدندن، كنت أستعد لموافاة امرأتَي حياتي في دار التوليد، حين تلقيت مكالمة من طرف هو الأقل توقعاً. ميرييل ڤاست. أرادت الكلام مع كلارانس.

ميرييل ڤاست! في المرات النادرة التي كان يُذكر اسمها في أحاديثنا، كان يبدو كأنه دريئة من الصفيح فوق طاولة عرضٍ في معرض. لكن الزمن لم يكن ملائماً للحقد، كنت في زمن بياتريس، وكان صوتي شبه ودي.

ـ كلارانس غائبة لبعض الوقت.

ـ اعذرني، ولكن... هل مازالت تقيم في هذا العنوان؟

ـ أكثر من أي وقت مضى!

لست متأكداً إن كانت صرخةُ فرحي، تتجه إلى المستمع

المناسب. تنحنحتْ، وقد أشعرها هذا النوع من الألفة باضطراب بيِّن.

ـ لدي بضع كلمات أقولها لها.

ـ يمكن أن أطلب منها أن تتصل بك عند عودتها.

ـ لا، لست واثقة من أنها ستفعل. هل يمكنك أن تقول لها نقلاً عني...

ـ إذا أردتِ، يمكن أن أسجل كلامك.

ـ آه نعم، ربما كان هذا أفضل حل.

شغّلتُ آلة التسجيل.

ـ عزيزتي كلارانس. الاعتذار الذي أتقدم به إليك متأخر، إلا أنه صادق وناضج. طالما فكرت هذا الصيف بـِ... لا، اسمع أحس أن الموقف شاذ جداً. سأترك لها بالأحرى كلمتين.

ـ كما تريدين.

بدا لي ذلك الندم الذي ظهر فجأةً متأخراً عشرة أشهر، مريباً بعض الشيء. الاشمئزاز الرنان الذي عبرت عنه كلارانس، ظهر مايبرره بعد يومين، حين نشرت الصحف اليومية في المكان المناسب بياناً لتقرير قدمته الأمم المتحدة حول موضوع «الولادات التمييزية» العبارة التي عَرِفت للأسف، رواجاً مستمراً!

حسب قول المؤلفين ـ وهم حوالىعشرة خبراء من عدة بلدان ـ، لوحظ انخفاض مهم في ولادات الإناث «لم يكن مَرَدُّهُ

إلى سبب واحد». كان هناك بالأحرى، لكن التقرير بقي مبهماً، «مجموعة من العوامل الذاتية التي ربما تلاقت، على مايبدو، لكي تنتج هذا التفاوت». ذَكَرَ مثلاً، انتشار عمليات الإجهاض ذات الطابع الانتقائي، وانتشار بعض طرق «التلقيح الانتقائية»... ربما تفاقمت الظاهرة خلال السنوات الأربع الماضية، تفاقماً خطيراً، وَصَلَ أثرُه إلى مجمل القارات، وإن كان بشكل غير متساوٍ.

قبل الكلام بتفصيل أكبر عن الجدل الذي سيلي عما قريب، عليَّ أن أعترف أنه فاجأني على الدوام، مفاجأة جيدة أو سيئة، وأنه كثيراً ماأضلّني. أتكون عشرتي لمغمدات الأجنحة هي التي تجعلني أجد نفسي من جديد غيرَ مختصٍّ وساذجاً إلى هذا الحد بمجرد أن يتعلق الأمر بالبشر؟ افترضت أن التقرير سوف يثير رد فعل قوي من نزعة البقاء، إلا أنه لم يثر إلا مشادات بين أخصائيين. لن أبلغ حد الزعم بأن أشباهي يفتقرون إلى نوع من غريزة البقاء، كأفراد، وكجماعات، وبدرجة أقل من ذلك كنوع. إننا على أية حال نتمتع بطبيعة معقدة جداً يصعب معها أن تقود غريزةٌ من هذا النوع، أفعالَنا بشكل صارم ودائم، بل تضيع في غابة مظلمة من الأفكار، والأحاسيس، والدوافع التي تفرض نفسها علينا كأولويات إلى أن تخفي عنا ضرورات البقاء. من جهة أخرى ليس الأمر مجهولاً، لدى بعض الحشرات، وهذا ما ستتاح لي الفرصة لعرضه دون شك.

عند هذه النقطة من الحكاية، أود فقط أن أدوِّن أمراً، هو أنه بعد نشر التقرير، دار كلام كثير حوله، وأنه في كل مرة يدور الكلام حوله، تزداد الحيرة كثافةً، ويصبح الإنذار الذي يتضمنه أقل وصولاً إلى الأسماع، وأقل قابلية للتصديق.

وبانقضاء بضعة أيام، يصير كل ما قاله الخبراء، في الوقت ذاته صحيحاً وخاطئاً، جوهرياً وغير ضروري. محصلة مسطحة. ألم نكن في عصر الأنوار التي تعمي البصر؟

ارتبط هذا الجدل في ذاكرتي بولادة بياتريس. بدأ جيل جديد بالنسبة لقبيلتي الصغيرة، وربما بالنسبة لبقية البشر أيضاً. حين كانت «المدعوة» توقظنا في الليل، وفي كل ليل، ومرات عديدة في الليل، تكونت لدينا، كلارانس وأنا، عادة غريبة، أن نستيقظ معاً، هي لكي تُرضع، وأنا ـ هل سيصدَّق كلامي؟ـ كي أقرأ لها، بصوت منخفض، مقالات تتعلق بموضوعها، الأمر الذي سمح لنا، أن نجتاز هذه المرحلة دون هموم مبالغ بها. صحيح أننا كنّا كلانا في إجازة، لأن دروسي لاتُستأنف من حيث المبدأ إلا في تشرين الأول، وأنّي طلبت أن أُعفى من أية دروس حتى نهاية الفصل الأول.

لم يكن ذلك العام عام الراحة الموعود تماماً بالنسبة لكلارانس، إلا أن إجازتها الخاصة ستكون أكثر اختصاراً أيضاً. منذ أول أيام تشرين الثاني، وضعت حداً لتلك البطالة الشاقة. بعد بدايتين زائفتين، كانت تتعجل أن تبدأ تحقيقها أخيراً.

في أحد الأيام، رشقَتْني وهي تضحك ضحكة خلاص، ويدها فوق مقبض الباب، بقولها: «أترككما، أنت وابنتك».

خرجتْ بعدها إلى الطرقات.

قادتها زيارتها الأولى إلى إمانويل لييف في القصرالأورلياني، بناء على تزكية مني. لكن سرعان

مافقدتُ أثرها. كانت تقول صائحة بين دوشَيْن إنها ذاهبة إلى روما، أو الدار البيضاء، أو زوريخ. اليوم بعد التالي، علمت من رسالة خربشت عليها بضع كلمات، أنها عادت «لتُغَيّر ثيابها»، ثم ذهبت من جديد. توالت تحركاتها الفروسية ثلاثة أسابيع.كانت ميرييل قاست تتصل بها كل يوم تقريباً، إلا أن كلارانس كانت قد اتفقت مع صحيفة يومية تطبع عدداً كبيراً من النسخ، أعطتها مقدماً جميع نفقات تحقيقها.

نُشر مقالها في كانون الأول، قبل عيد الفصح بقليل، ويبدو لي أنه كان يتضمن أولى المعلومات الجدّية عن انبثاق المأساة. لاأتكلم هنا بصفتي حبيباً، بل بصفتي رجل علم، وقارئاً مثابراً. كنت قد جمعت كل ماظهر في صحف العالم الكبرى، كما أن أندريه أغرقني من جانبه، بالمقالات المقتطعة من الصحف، وأستطيع أن أؤكد أنه قبل تحقيق كلارانس، لم يكن هناك سوى مجموعة من الوقائع المتراصفة والمبعثرة، ومن الافتراضات. وتمكنتْ هي، بفضل التعليمات الدقيقة التي زودَها بها لييف، أن تمضي إلى أبعد من ذلك.

استطاعت أولاً أن تُثبت، مستندة إلى دلائل مؤيدة، أن فريقاً من الباحثين، أرادوا، مدفوعين بالنجاح الذي حققته تجارب معينة على الأبقار، أن يضبطوا مادة يمكن أن تؤثر على الأعضاء التناسلية للأب بهدف تسهيل الولادات المذكّرة. تدخلت في الواقع سلطات عليا، فعوقب الفريق وتم حله. إلا أن المشروع وصل آنذاك إلى درجة من التقدم كانت كافية لكي تجعله يُستأنف في مخابر أخرى، وتحت سماوات أقل رقابةً.

كان هناك على وجه الخصوص، رجل ربما قام بالمهمة المزدوجة المتمثلة بإنتاج وتوزيع «المادة»، هو الدكتور

فولبوت، الذي ذاع صيته اليوم بطريقة محزنة، باعتباره الدماغ التجاري الحقيقي للفريق، بعد فشله في أن يكون الدماغ العلمي. هو من يُحتمل أنّه فكر بالهجرة، وشراء بعض المؤسسات التي كانت تصنع دوماً منتجات صيدلانية كاذبة، من أجل استخدام الأسماء المعروفة لهذه المنتجات لتصريف مادته الجديدة.

إحدى هذه المؤسسات، الواقعة في أحد موانىء البحر الأحمر، كانت منذ قرنين تصنع «فولات الجُعَل». اجتهدت كلارانس في الكلام عن الطريقة التي حصل بها الدكتور فولبوت على تلك المؤسسة في التسعينات، والتي طورها بها إلى مؤسسة سرية متعددة الجنسيات، لكن تَطَوُّرَها يسير في جميع الاتجاهات.

«كانت عبقرية هذا الرجل تكمن في العمل على تصريف مادة ثورية تحت ستار اسم قديم، متجنباً أن يعلن ذلك بصوت مرتفع، كيلا يثير ريبة السلطات. لم يسبق أن كانت «فولات الجُعَل» والمواد المماثلة، قانونيةً تماماً، إلا أنها كانت موضع تساهل، وكانت توجد على الدوام، شبكة من البائعين الذين يوزعونها على شريحة واسعة من الزبائن الساذجين. عرض فولبوت فجأةً، ودون ضجة، على هؤلاء الزبائن، مادة فعالة حقاً، تقريباً لاتخطىء. وكان رهانه أن طريقة انتقال الخبر من فم إلى فم بين الناس، تكفي لإشهار بضاعته بينهم بالسرعة الكافية. هكذا تضاعف المشترون، وكل منهم يعتقد أنه اكتشف للتو، متأخراً، مزايا المادة المعروفة منذ القديم. في حين أن السلطات، المعتادة على الدوام على رؤية انتشار هذه المساحيق ذاتها التي تُنسب إليها قدرات خارقة مزعومة،

لاتفقه من الأمر شيئاً. إجراء احترازي أخير ـ اتخذه فولبوت على مايبدو، بعد أن أشارت أولى المقالات الصحفية إلى «الجعل» ـ كان هو مضاعفة الأسماء وتنويع الأغلفة.»

خلال سبعة أعوام، انتشرت «المادة» انتشاراً واسعاً، خاصة في بلدان الجنوب، وتحت تسميات متنوعة لاتحصى، متيحةً لـِ فولبوت أن يكدس ثروة طائلة، الأمر الذي يمكن أن نتخيله بسهولة.

تجنبت كلارانس، بحكمة، أن تتوسع حول العواقب المحتملة الناجمة عن استعمال «المادة» على صعيد واسع، ولم تتعرض لهذا الجانب من الأمور إلا بتعابير عامة في المقطع الأخير، مكتفية بخصوص ماتبقى، بتقديم الوقائع وإثبات مصداقيتها بشكل متين.

من ناحية ثانية، فإنه بفضلها وبفضل بعض التحقيقات اللاحقة التي استوحِيَتْ بشكل واسع من تحقيقها، لم تعد حقائق معينة توضع موضع شك: وجود «المادة» المزعومة، وانتشارها الواسع، والرضى العام الذي ينظر به إليها. والأمر الذي نوقش، بالمقابل، طيلة سنين، بضراوة، يمكن أن ينحصر في تساؤلين متتاليين: هل سيكون للـ «المادة» تأثير دائم وعميق على سكان العالم؟ وإذا كان الأمر كذلك، فهل سيكون هذا النمو، إذا أخذنا كل شيء بالاعتبار، سعداً أم شؤماً؟

لا أريد التوسع أكثر في هذا الجدل، فمن السهل جداً أن نفحص بعد فوات الأوان، توقعات هؤلاء وأولئك لكي نوزع التوبيخات أو شهادات الرضى. لم يكن أحد نبياً معصوماً عن

الخطأ في هذه القضية، إلا أن البعض كان أقل عمىً من غيره. هكذا كانت كلارانس. مع ذلك لايبدو لي الرجوع إلى ثلاثة أو أربعة مقاطع من رأي ساد آنذاك، وسيسود لبعض الوقت أيضاً، أمراً بلا طائل. لم يعبّر أحد عن هذا الرأي بشكل أوضح مما فعل بول برادان في مقال نشر بعد مقال كلارانس ببضعة أيام فقط، وكان بعنوان: «بشرية جديدة للألف الثانية الجديدة». عاد فيه إلى بعض الأفكار التي أثارها أثناء محادثته معها، بعد أن أغناها.

قال: «هذه ليست هي المرة الأولى التي نصل فيها إلى سيناريوهات عبثية انطلاقاً من بعض الأرقام، ومن خلال تمديد هزلي لنزعةٍ، بالكاد وُضع مخططها. كم من مرة أعلنوا لنا أن هذه هي نهاية العالم؟ إلا أن الأرض بيضة من الصعب كسرها.»

ثم، وبعد استطراد قصير، ورجوع واضح إلى مقال رفيقتي:

« يعلنون لنا أن مواد ضُبطت حديثاً، قد تستطيع تبطيء نمو السكان في العالم. فبدلاً من وضع منحنيات كيفية من أجل الاحتجاج على تضاؤل عدد السكان، لم لا نرى في هذا، على العكس، مرحلة عادية ومؤاتية من التاريخ العالمي؟

«طوال آلاف السنين لم يَنْمُ سكان العالم إلا ببطء وبشكل متواتر، فإذا كانت الولادات عديدة جداً، فإن الوفيات لم تكن أقل منها؛ فقد كانت وفيات الأطفال، والأوبئة، والحروب، والمجاعات، تمنع حدوث معدلات نمو عالية. بعدها دخلنا

مرحلة أخرى تراجعت الوفيات خلالها بفضل تقدم الطب والتقنيات الزراعية؛ في تلك الأثناء تابعت نسبة الولادات اندفاعها، وبقيت مرتفعة. ولم يكن ممكناً أن تمتد هذه المرحلة إلى ما لا نهاية. انسجاماً مع كل منطق، كان يجب أن تميل الولادات إلى الانخفاض، وتستعيد معدلات السكان في العالم استقراراً متناغماً تحت السيطرة. هذا مايحدث منذ بضعة عقود في البلدان المتطورة، التي تعيش بناء على ذلك، في سلام وازدهار. أليس من المستحبّ أن يكون الوضع مماثلاً في كل مكان؟ أليس الوضع الحالي هو الوضع الشاذ، نقصد أن تكون البلدان التي تستطيع أن تُطعم وتُكسي وتداوي وتعلِّم أطفالها، يصبح عددهم فيها أقلّ فأقلّ، والبلدان العاجزة عن الاهتمام بهم يزداد عددهم فيها أكثر فأكثر؟

«إذا قُلِّص، بمعجزة ما، فائض السكان في البلدان الفقيرة، فإننا قد نشهد، خلال جيل، اختفاء العنف، والمجاعة، والهمجية. ستكون البشرية قد نضجت أخيراً لكي تدخل الألف الثانية الجديدة.»

وختم برادان بهذه الصيغة التي تبدو، عند التأمل، مضحكة على الأقل:

«فلندع العمليات الطبيعية تأخذ مجراها!»

على الرغم من هذا السطر الأخير الذي هو عبارة عن خطأ كبير ـ تلك «المادة»، عملية طبيعية؟ـ فإن مجموعة الحجج لم يكن من السهل تفنيدها، وأفهم كيف أمكنها أن تكون مُغوِية. أما أنا فحين أنهيت القراءة، شعرت بالاستياء.

كان منطق برادان جلياً وبسيطاً. إلا أنني حيوان معقد، وكلما كان منطق ما بسيطاً، كلما أظهرت مزيداً من الحذر إزاءه. مازلت لاأعلم لأي سبب أحذر من منطق كهذا. يوجد في تكويني شيء يجعلني أرى البرغوث فوق ظهر الفيل حتى قبل أن أرى الفيل؛ شيء ما، في حس التمييز الذي أملكه، يبعدني عن الأفكار التي تدّعي بوجود إجماع عليها.

كان هناك أيضاً، ومنذ زمن طويل، تأثير أندريه ڤالوريس. فحين كنا معاً في صالونه ، نعيد التفكير بالعالم، كان يحثُّني دوماً على إبعاد الأفكار السائدة «مثلما نبعد قشرة ثمرة ما، بلطفٍ مراعاةً للثمرة، دونما أي اعتبار للقشرة».

K

لو كنا في زمان آخر، ولو كانت تسود عادات أخرى، لتعرَّض للسخرية، الثنائي الذي يزدهر فيه الأب من خلال طفله، والأم من خلال عملها وشهرتها. لكننا هكذا، وسعداء بما نحن عليه. هل نقصت رجولتي بسبب ذلك، وهل نقصت أنوثتها؟

كانت سعادتي، على أية حال، ملموسة أكثر من سعادة كلارانس. في كل صباح منذ شهر شباط، عند ذهابي إلى المتحف، أحمل بياتريس إلى المربية التي عثرتُ عليها من أجلها، وهي جارة أرملة وجدّة لعدة أحفاد. كانت تسكن في شقة فوق الطابق الأرضي، وما أن أصعد الدرجة الأولى، حتى تحيط ابنتي عنقي بذراعيها، إكليلاً أسمر أحتفظ طوال يومي، بثقله ورائحته.

كانت كلارانس تقوم بمهنة الأم إلى جانب مهنتها، بما يلزم من عاطفة، إنما دون فيض زائد. كنا متفقين على أن الطفل كان هدية حب منها لي؛ كانت قد وعدتني بها وأهدتني إياها بكل جسدها، وأبكر كثيراً مما كنت آمل. لم أشتك قط. لم أحاول أبداً أن أستبقيها لوقت طويل جداً قرب المهد. طريقها كان في مكان آخر، وكانت ماضية فيه.

منذ ظهور تحقيقها، قليل من الصحافيين والصحافيات

نالوا قدراً أكبر من التقدير، ونظر إليهم الآخرون نظرة حسد وحصلوا على أجر أفضل. هي التي كانت تحلم بالريبورتاجات الضخمة، عُرضَ عليها منها عدد أكبر مما تستطيع القيام به. كانت تختار، وغالباً ماترفض، مدفوعة بميلها للعمل الذي ينقش بدقةٍ وصبر، وكذلك، والعبارة لها، «لأحافظ على نُدرتي». كنت أستحسن دلالها النبيه، وكذلك قرارها بأن تبقى مستقلة في عملها، تعقد اتفاقات دقيقة مع هذه الصحيفة ثم مع غيرها، بما في ذلك، وبدون ضغينة، الصحيفة التي بدأتْ منها.

إجمالاً، كان التزامها الدائم الوحيد هو التزامها إزائي. التزام دائم، في مأمن من الأزمات، ومن الهزات ـ ومن أي شكل للزواج. تكلمنا في الموضوع مرة واحدة، في بداية لقاءاتنا. قلت لها بأنني رجل يحنُّ إلى الزمن الذي كانت تُعقَدُ فيه أكثر الاتفاقات جديةً، عبر مصافحة تجمع بين الأيدي، وتدوم الحياة بطولها، إلى مابعد اصفرار جميع الوثائق القديمة بكثير. بين كلارانس وبيني، تمَّت مصافحة خاصة بعض الشيء، أُعِدَّت بصورة أفضل، وكانت أكثر تطويقاً، وأكثر امتداداً في الزمن؛ إلا أنها كانت في نظري، مصافحة قبل كل شيء. سنبقى معاً طالما استمر حبنا؛ وقد نلجأ إلى آلاف من حيل المراهقين لكي نجعله يدوم.

عشنا بهذا الشكل، لم نكن نعيش كزوجين ولا كعائلة تقليدية، ولا كرجل مع محظيته... يالها من مسميات بشعة! عشنا كعاشق وعاشقة، مُفعَمينْ بالحياة، رغم تقدم الزمن في الأجساد؛ وأيضاً رغم الغليان في العالم.

لو كان أحد في مكان كلارانس، لظن نفسه بأنه «وصل».

كانت هذه الكلمة تُشعرها بالإهانة. فهي كلمة «يجب أن تكون مقتصرة على المحطات وعلى المطارات. حين يقال لي إن شخصاً ما قد وصل، أشعر بإغراء يدفعني لأن أسأل، وصل إلى أين، وبأية وسائل، ولأية غاية!» هل كان ذلك تواضعاً؟ كان بالأحرى، سوف أقول، ذلك المزيج من التواضع ومن الكبرياء الذي يسمى «الاحتشام». لأنها كانت تقول أيضاً: «وحدهم الذين يعلمون أنهم عاجزون عن المضي أبعد، هم الذين يبتهجون لكونهم وصلوا.»

التزمت كلارانس أن تتعقب القضية التي كشفت عن اسمها وعن موهبتها، وصارت في الوقت الحاضر قضيتها، معركة حياتها ـ وكان مجرى الأحداث يقلقها. حين نشرت تحقيقها عن «المادة»، صحيح أنها حافظت على نبرة محايدة لكي تظل قابلة للتصديق. إلا أن الأولوية بالنسبة لها كانت واضحة: الإشارة بالبنان إلى جشع بعض المشعوذين المتمرنين وصلفهم. كانت كلارانس ترى بالطبع في هذا التلاعب الهائل بالكائنات، وفي تلك الطريقة في استخراج أسوأ مايوجد في البشر من أجل دفعهم إلى غد يُفتَرَض أنه أفضل، وفي الصورة المصغرة لعملية تمييز منهجية، ترى انزلاقاً غير مقبول وإجرامياً. كانت تأمل أنه يكفي كشف الوقائع لكي يهز العالمَ غضب سويّ.

لم يكن شيء من ذلك. لقد ذكرتُ مقاطع طويلة من مقال برادان لأني احتفظت به، ولأنه امتاز بالوضوح؛ علي أن أضيف أن عدداً آخر من الشخصيات من كل صوب أمدت هذا الموقف بالقوة.

لزمَنا وقت، لـِ كلارانس ولي أنا، حتى ندرك مدى

الإغواء الفعلي، العميق، وأحياناً العاطفي، الذي كانت تمارسه أفكار مثل أفكار برادان، على الرأي العام الأكثر اتساعاً. اعتدنا أن نرى في بلدان الجنوب أصلَ أخطرِ همومنا؛ فإن أمكن إيجاد حل بسيط من أجل تسوية مشاكلهم ومشاكلنا دفعة واحدة، فأي جنون هو عدم استعمالها!

لايمكن أن نحكم على هذه الأشياء بعد فوات الأوان، يجب أن نضع أنفسنا في روح العصر قليلاً. دون أن أطيل الوقوف عند الغبطة التي سادت السنوات الأخيرة من العصر الماضي، أود أن أشير إلى أن اللقاء بين جناحي العالم المتطور، هذا الاتجاه إلى قيم، ومؤسسات، ولغة، وطريقة حياة متشابهة، قد أبرَزَ الهوة المدَوِّخة التي تقسم العالم، ذلك «الصدع الأفقي» المسؤول عن الكثير من الهزات. فهناك جميع الثروات، جميع الحريات، وجميع الآمال في جانب. وفي متاهة من المآزق: ركود، عنف، هيجانات واضطرابات، عدوى الفوضى من جانب آخر. والخلاص يكمن في الهرب الجماعي نحو جنة الشمال.

كان يمكن أن نحس بصعود حالات نفاد الصبر من جانبي «الصدع». هنا أيضاً، كان ڤالوريس هو الذي جعلني أدرك هذه الحقيقة. لم أعد أذكر الأحداث المحددة التي جرَّت إلى الموضوع، ولا ماذا أمكنني أن أقول، إلا أنني أظن أن الأمر كان يتعلق بالتعصب الديني.

قال لي أندريه: «أنا أيضاً، مثلك، يحدث لي أن أكون نافد الصبر، أن أنفجر، أن أرغي وأزبد، أن أوبِّخ. إلا أنني بعدها مباشرةً، أستمع إلى صوت العقل قائلاً لنفسي: علينا أن نحتمل العالم مثلما احتَمَلَنا.

«لم يكن الغرب دوماً على ما عرفتَه، هذه المنطقة التي

يسودها السلم، والعدالة، الحريصة على حق الرجال، والنساء والطبيعة. أنا الذي أكبرك بجيل، أمكنني أن أعرف غرباً آخر تماماً. صدِّق أننا خلال قرون، شققنا الأرض، بنينا امبراطوريات، وهدمنا حضارات، ذبحنا هنود أميركا ثم نقلنا الزنوج في سفن صغيرة مليئة، حتى يعملوا بدلاً منهم، حاربْنا الصينيين لكي يشتروا الأفيون. نعم، لقد نفخنا على العالم مايشبه الزوبعة، زوبعة هي في معظم الأحيان خيِّرة، إلا أنها مدمرة على الدوام.

«وهنا، في بلادنا، ماذا فعلنا؟ لقد ذبحنا بعضنا البعض بكثرة، تبادلنا القصف، والقتل بالغاز، بضراوة، حتى منتصف القرن العشرين. إلى يوم، كنا قد شبعنا، وعقلْنا، وتعبنا، وشخنا قليلاً، جلسنا في أريكة مريحة ونحن نصيح باتجاه المتفرجين: «والآن فليهدأ الجميع!» بالطبع، لا. أترى؟ الجميع لايهدؤون في الوقت نفسه الذي نهدأ نحن فيه. يوجد في كل مكان تقريباً ألزاس ولورين، نزاعات بابويين وهوغونوتيين، تُماثِل نزاعاتنا ذاتها عبثية ودموية . لابد أن يحدث الجنون.

«لنكن صبورين مع العالم!»

لكن، ذلك الشخص كان أندريه... كان الصبر في طريقه إلى أن يصبح نادراً بسبب خطأ هؤلاء وأولئك. في كلا جانبي «الصدع»، كانت أكثر الأصوات حكمةً تخمد. فقط، كائنات من زمن لآخر، من نوع ڤالوريس ولييڤ، كان بوسعها أن تقاوم زمناً طويلاً، جاذبية حل خارق.

كان من البديهي أن ينقلب الرأي العام، وبكل ثقله. ففي حين كان مخترعو «المادة» مطارَدين، ومجبرين على السكوت منذ عهد قريب، صاروا في وضع يظهرون فيه بمثابة

محسنين إلى الإنسانية بأسرها. هم لم يخطئوا في ذلك، لأنهم يوماً ما، يذكر الجميع هذا اليوم، خرجوا من الظل مثل رجال المقاومة عشية يوم التحرير. بدءاً بالدكتور فولبوت الذي أعلن، عبر لقاءات صحفية، خاصة، ومليئة بالثرثرة، مسؤوليته عن «اختراع العصر» ـ كانت تلك «المادة» هي اختراع العصر، بمعنى ما ـ وطالَبَ بصفة «المُنقِذ»، الذي أُكرِهَ على التوجه إلى المنفى بعد أن ظل وقتاً طويلاً دون أن يفهمه أحد، مثل جميع المنقِذين، وبعد أن تعرض للاضطهاد على يد قوى ظلامية رجعية.

مازلت أراه على الشاشة الصغيرة؛ نظرته متمترسة تحت نظارات سوداء سميكة، ويصد السِّهام. لماذا لم يعمل على ضبط مادة تسهّل ولادة البنات؟ «كنتُ قد بدأتُ بالعمل على ذلك، حين انقطعت الأموال!» هل كوّن ثروة حقاً، من بيع مادَّتِهِ؟ « المال الذي جمعته لاغرضَ له سوى تمويل أبحاثي. فأنا عالم قبل كل شيء.» ألم يُقلِقُه السلوك التمييزي الذي نجم عن اختراعه؟ «خصوصية كل دواء أنه يكون شافياً إذا استُخدِمَ بدِراية، وخطيراً عكس ذلك. يتعين على المخترع أن يفترض الإنسان راشداً؛ وإلا، فكثير من الأشياء لم يكن يجب أن تُختَرع! لكن العلم لايعمل بالمقلوب، ولن تستطيع البشرية أن تتحرر بعد الآن من معرفتها أو من قدرتها. هكذا، فعلى الذين يحنُّون إلى الماضي أن يُذعنوا ويقروا بما لا يمكن تغييره!»

مؤشر خطير على تقلبات الزمن، شيئاً فشيئاً راحت تظهر في صيدليات بلدان عديدة من الشمال، بعض الأدوية التي

تحتوي على «المادة» والتي، ماعادت تحمل علامة إحدى الورشات المرتجلة، بل أصبحت الآن تحمل بطاقة شركات صيدلانية هامة أرادتْ ألا تترك للآخرين، سوقاً واعداً إلى هذا الحد. ومن أجل تضليل القانون الذي يمنع التمييز بين الجنسين، قُدِّمت هذه المنتجات على أنها علاج لعدم القدرة على إنجاب الذكور. هكذا سمحت إدارة شركة Food and Drug بتوزيعها في الولايات المتحدة، شرط أن تباع بناء على وصفة طبية، وما لبثت أن قلَّدتْها غالبية المؤسسات المشابهة.

كما كان متوقعاً، لم يَخْلُ الأمر من أقلام عارفة شرحت أن الأدوية التي تباع للمستهلكين في الشمال كانت مختلفة جذرياً عن «فولات الجُعَل» وعن المنتجات الأخرى التي على شاكلتها. لا أود الانجرار في نقاش تقني جداً؛ فالبيولوجيا البشرية ليست مجال خبرتي، وأقل منها علم العقاقير، ومن ناحية ثانية، فإن كل ما يمكن أن أرويه هنا، موجود، بشكل مفصَّل، في كتب المختصين. من جهتي، أنا لاأهتم إلا بالانقلابات التي سوف تلي ذلك، كما عشتُها، وبكل ما يمكن أن يساعد على فهم كيفيّة تكوُّنها. إن كنتُ قد ركّزتُ على ما كان يُقال في السنوات الأولى من عمر بياتريس، فهذا لكي أشرح أن «المادة» صارت منذ ذلك الوقت، مقبولة كحقيقة تافهة، مُرسَلة من العناية الإلهية بالنسبة للبعض، ومؤسِفة بالنسبة لقلائل، ولكن الإنسانِ يتعايش مع حقائق مؤسفة كثيرة غيرها، أليس كذلك؟ أُغلق الجدل، ماعدا حفنة من العنيدين، وحتى كلارانس ذاتها لو أنها عادت بإصرار، إلى مسألة «تجاوزها الزمن»، لكانت أضجرت جمهورها وفقدت حظوتها.

هذا هو، على أية حال، ما شَرَحتْهُ لي في يوم وصل فيه الوَهَن إلى أقصاه: «يجب تخيل الرأي العام كأنه شخص ضخم نائم. يستيقظ من وقت لآخر مذعوراً، وعليك أن تستفيد من هذا الوقت لكي تقترح عليه فكرة، على أن تكون بأبسط وأوجز مايمكن، لأنه يبدأ بالتمطي، يشيح بوجهه، يتثاءب، سيعود إلى النوم بعد قليل ولن تتمكن من استبقائه أو إيقاظه».

«عندئذٍ، تقعد، وقد ضللت عن غايتك، بانتظار أن يهتز سريره».

L

يهتز سرير البشر كعبارة، هي أقَلّ من أن تعبِّر عن الواقع.

كان هناك في البداية بعض الاهتزازات الخجولة، البعيدة، التي يصعب تبيُّنُها، أو تكاد. كنت شاهداً على أحدها، والذَّنْب في ذلك هو ذَنْب كلارانس، وغفرتُه لها.

لم يكن من النادر أن تَعِدَ رفيقتي نفسها حين عودتها من مكانٍ يحمل اسماً طروباً، بأن تعود إليه في الإجازات القادمة، معي ومع الذهن الحر اللازم لكل تحقيق، وذلك لكي تستمتع بتذوق الملذات الصافية التي تسنى لها بالتمام أن تبلل بها شفتيها. عادةً، لاتصمد فورات حماسها أمام فورات أخرى غيرها، حلمٌ يغطِّي حلماً آخر، فتتكون رواسب ملوَّنة، مكوَّمة، مُطَرَّقة: شيتاغوني، باتامبانغ، ماندالاي، جنّة، غوناييف، جنان جميع الشياطين.

إلا أنها بدت هذه المرة أقل نسياناً. كان الأمر يتعلق بمكان يدعى نايبوتو، كانت قد ذهبت إليه لمتابعة مؤتمرٍ ما، «عالمي» على الطريقة التي كانوا يؤثِرون فيها المؤتمرات آنذاك، بمئتي وفدٍ حلَّ كل منهم مع عَلَمِهِ الصغير وفولكلوره، ووجهة نظره وخطابه، والأمل الباسل في إيصال هذا الخطاب

إلى الأسماع، وآلاف من الديبلوماسيين، ومن الخبراء، والصحافيين ... كل هذه المقدمة لأقول إن كلارانس التي وصلت متأخرة، وجدت صعوبة قصوى في العثور على سكن في جوار المؤتمِرين، وأنها اضطرت أن تبتعد جداً عن المركز، باتجاه مقر للسكن مايزال يحتفظ بالطابع الاستعماري، ويدعى أوهورو مانسيون[1]، وهو عمارة بيضاء ومنخفضة ذات أجنحة ممتدة على شكل سُبّحة من الأكواخ المتقنة، المرفوعة على درجة، والمطلة على مرج شبيه بالاسفنج، مرقَّط بزهور وردية اللون تشذ عما حولها.

كانت رفيقتي تشهَدُ كل صباحٍ، من نافذة الحمّام، حركة الخَدَم ذهاباً وإياباً، وهم يحملون إلى طاولة لانهاية لها، وُضِعت في الهواء الطلق، أطباق الباباي المقطع إلى شرائح، والمانجا المكتنزة اللب، والبيض المقلي والشوفان، ثم حشد من أباريق القهوة التي يتصاعد منها البخار. في الثامنة والنصف، يشير جرس خجول للضيوف إلى أن بوسعهم الاقتراب، فتنفتح أبواب الأكواخ كلها معاً، ويخرج الناس بأقدام حافية، ويسرعون بخطوات شرهة. ولكن سيارة الأجرة كانت تنتظر كلارانس في الثامنة والنصف وتشير لها: إنها لن تصل أبداً في الوقت المناسب لحضور الجلسة، في الازدحام! بالكاد جَرُأَتْ، أن تختلس وهي تركض، قطعة توست، وموزة ماتزال خضراء...

«لقد هبطتُ على قطعة من الجنة، لكنه هبوط مبتذل

(1) مانسيون: مكان المسرح في القرون الوسطى.

لأسباب تقنية.» كان إحباطها كبيراً إلى درجة أنها ألزمت نفسها حتى قبل مغادرتها للمكان، أن تُجري حجزاً من أجل الأسبوع الأخير من العام، مصرَّةً أن تدفع عربوناً، بغرض جعل أي تغيير للرأي مُكلفاً.

راقت لي الفكرة. بقي مع ذلك انقباض في حنجرتي، لفكرة تَرْكِ بياتريس في وقت الأعياد. لو لم يكن الأمر يتعلق إلا بي، لكنت أدرجتُها بكل طيبة خاطر في الرحلة، إلا أني أعرف أني لاأكون عقلانياً جداً، حالما يتعلق الأمر بها. كلارانس ضحكت فقط. كان في مفرداتها، «أنتما الاثنان» أي ابنتي وأنا، و«نحن الاثنان»، الرجل والمرأة؛ لم يكن وارداً ببساطة أن نُربك نفسينا بها .

أفريقيا، الزنجية بألوانها الصارخة، لم تكن في حياتي سوى صورة، من تلك الصور التي نظُنُّها عابرةً ومنسية، إنما التي ترجِع إلى الأيام المظلمة وتنشر الأمل والصخب.

ماذا رأيت منها؟ أشياء قليلة. أولئك البائعات مفرطات الحيوية أسفل ناطحات سحاب مرتبكة، تلك الشرذمات من الأطفال الذين يُرَوِّضون الطرقات، والجدران الصغيرة والأعمدة، والأراضي الخالية من البناء، وعيون النساء تلك، التي تبتسم وتغمز وتبتعد مع المشية المتباطئة لنسوة لايزعجُهُنَّ الزمن.

أليست هذه هي مفارقة ثقافتنا أنها حين تصير سيدةً للمكان، تتحول إلى عبْدةً للزمان؟ في أفريقيا، يشعر المرء أنه

أقل سيادة وأقل عبودية، هذا إذا نجح في الهرب من نفسه. جربتُ ذلك. كنتُ أعرف أن أوهورو مانسيون، لم يكن يمثل عمق أفريقيا، ولا حتى نايبوتو. كنا فقط مجموعة من البيض ومجموعة من السود نتقاسم ثمار أرض كريمة؛ إلا أنه كان متنفساً لازماً لروحي، روح الرجل الحَضَري.

ما أخفته كلارانس عني، وهذه زلَّة صحفية طفيفة، هو أنها لم تأتِ فقط للاستمتاع بالهدوء، والعشب، والباباي بالليمون، بل كان هناك أيضاً شيء بسيط عليها أن تتحقق منه. هذا ما اعترفت لي به في اليوم الثالث حين كنا في الطريق، في سيارة مستأجَرة، وأنا أقود على الطريقة الانجليزية من المقعد اليميني، وهي تمسك الخرائط والأدلة. ألم يكن لدينا رغبة بالذهاب إلى خط الاستواء، حتى لو لم يكن إلا من أجل ملامسة الحد الذي يشير إليه؟ كان ذلك على بعد ساعتين من نايبوتو؛ في الطريق كان يمكننا أن ننعطف، لاشيء سوى انعطاف صغير حتى نحاذي نهر ناتافال.

سيَفهمني أولئك الذين قرؤوا تاريخ السنوات الأولى للقرن الجديد: يقال إنه على شواطىء الناتافال، اندلعت أولى أعمال العنف ذات الصلة بالقضية التي تعنينا. اتَّهَمَ بعض القرويّين السلطات بأنها وزعت «الفولات الهندية» ـ وهذا هو الاسم الذي كانت تعرف به في أفريقيا الشرقية ـ على أرض جماعات إثنية معينة، بِنيَّةِ الحد من قدرة أبنائها على التكاثر بهدف استئصالها في النهاية. نُهِبَ مستوصف، وكان هناك حوالى ثلاثين جريحاً، من بينهم أربعة سيّاح أوروبيين كانوا

يمرون من المكان، وبفضل مغامرتهم، سمع العالم بتلك الحوادث، الصغيرة في المحصلة.

كانت كلارانس تصر أن ترى المستوصف المتضرر بعينيها، وأن تتناقش مع القرويين. خلال دقيقتين أحيطت سيارتنا بحشد من أناس زاعقين؛ لاشيء من العدوانية إزاءنا، بل مجرد حفلة موسيقية من الاحتجاجات، بعضها بالانجليزية، وبعضها الآخر بالسواحلية. قَدِمَ شرطيان وطلبا منا الرحيل، خوفاً من أن يسبب وجودنا اضطرابات جديدة. لم أجعل أحداً يرجوني، فماحدث لاينسجم مع مفهومي عن الإجازات. تجنبتُ مع ذلك أن أوبِّخ رفيقتي. كانت تنتمي إلى ذلك النوع من المخلوقات التي تشعر بأنها مذنبة وعديمة الفائدة بمجرد أن تتوقف عن العمل؛ أيقظ هذا المغطس من الناس، إحساسها بالمسؤولية إزاء بقية الرحلة.

زوَّدَها أيضاً بشهادات ستستخدمها. لأن تمردات أخرى سوف تندلع قريباً في سري لانكا، في بوروندي، وجنوب أفريقيا، إثرَ مزاعم مماثلة. على حد علمي، لم يجرِ التأكد مطلقاً من أن وسائل الولادات الانتقائية، قد استُخدمت عن عمد منذ ذلك الوقت، كأداة تفرقة ضد جماعات عرقية، إثنية، أو دينية. إلا أن المسألة راحت تتكرر بلا كلل، وتفشَّى الشك والريبة.

لا أحد يجهل أنّ في كل بلدٍ، توازنات حساسة ودقيقة يتعينَّ الحفاظُ عليها. ولا أُفاجأ قط إن علمت بأن هذا الزعيم أو ذاك، قد خطط لنشر الـ «فولات» بين صفوف القبائل الإثنية التي تعاديه تقليدياً، محافظاً على النمو السكاني في القبائل

الموالية له. لاشك أنه سيأتي يوم يتوصل فيه الباحثون لإثبات الوقائع التي لن تثير سوى اهتمام حفنة من المؤرخين. الوقائع أقلُّ أهمية من المواقف التي تُولِّدُها. من هذا المنطلق، سوف نشهد عما قريب، وعاماً بعد عام، احتداماً في الاتهامات، والاتهامات المضادة، والأحقاد.

خاصةً في المناطق الريفية. لأن سكان المدن يعرفون بعضهم أقل، ويقدِّرون بعضهم أقل. إذا لوحظ في قرية ما، وعلى مدى بضع سنين، تدنٍّ حاد في عدد البنات، يثور الكبار في السن، رجالاً ونساءً. هم الذين يُعَدُّون آخر المؤتَمَنين على غريزة البقاء. فحين يشعرون بالخطر الذي يتهدد جماعتهم، يكشفون المصيبة، يزمجرون متَذَمِّرين، يُحَرِّضون، ويبحثون عمّن يحمِّلونهم المسؤولية: هل هم الرجال الذين حُقِنوا بالـ «مخدِّر»؟ أم زوجاتهم المتواطئات؟ أم المستوصف؟ أم الجماعة الإثنية المنافسة؟ أم السلطات؟ ولم لا يكون المسؤول هو المستعمر القديم، أليس هو مَن تصْدرُ عنه الاختراعاتُ الإجرامية؟

لا أريد أن أزعم أننا، رفيقتي وأنا، وَعينا، بزيارتنا لشواطىء ناتافال، الهوة التي تدفَعُنا باتجاهها تلك الريبة الشاملة، تلك الغابة الكثيفة من الأحقاد التي يشعر كل واحد فيها بأنه ضحية ولايرى حوله سوى الخطّافين والنهّابين. ماكان ممكناً، بأي معيار، اعتبار مسألة نهب مستوصف، حدثاً بارزاً. فقد وقعت، في كل أرجاء العالم، آلاف الحوادث المشابهة التي لم يكن عدد ضحاياها ولا شُهرتُهم، يبرران الكلام عنها. الحكومات المعنية وحدها، هي التي كانت تشعر في بعض الأحيان بالقلق.

ندرة من المسؤولين، توافَرَ لديهم بُعْدُ نَظَرٍ مبكرٍ بدرجة مقبولة، فكشفوا النقاب عن «المادة»، وعن مخترعيها وصانعيها، وحذَّروا رعاياهم من هذه البليَّة. إلا أنّ أصواتهم أُخرِسَت على الدوام. اعتباراً من ذلك الوقت اكتفى معظم القادة بمنع نشر أرقام الولادات المصنَّفة حسب الجنس، الإثنية، المنطقة أو الدين. فأصبحت حتى الأرقام الإجمالية للسكان سرِّية، وتلك التي يُسمح بتعميمها كانت، كقاعدة عامة، تتعرَّض لتصويب صارم. كان علماء السكان يشدُّون شعورهم، ويتحدثون عن «ارتداد لايمكن تصوره» يَصِلُ إلى مئة عام إلى الوراء، في طريقة جمع المعطيات؛ مع ذلك صار الأمر عرفاً، وسرعان ما اعتاد الناس على تلك الجداول التي تنتشر فيها ملاحظات مثل «لم يُبلّغ عنه»، أو «لا توجد معلومات»، أو «تخمينات»، وغيرها من عبارات الإقرار بالجهل.

من ناحية أخرى، يجب الإقرار بأن الأسلوب أثبت فاعليته. فقد أصبح الكلام عن فورات الغضب القروية، يَقِلُّ باستمرار. ونعلم اليوم أنها كانت عديدة، دامية، ولم تستطع السلطات حصرَها في كل مرة. إلا أنها على أية حال، أثارت، في تلك السنين، دوامات أقلّ من تلك التي أثارتها الخلافات التي كانت قد بدأت تثير الفوضى في بلدان الشمال.

M

علمت من خلال رسالة قصيرة، كتبت بخطٍ لاأعرفه، تلقيتُها في اليوم التالي لعودتي من أفريقيا، أن ڤالوريس توفي للتو. كان الثلج يغطي باريس. وخرج عرّابي للتسكع في شارعه. أصابتْه وعكةٌ قضت عليه.

جرت مراسم التشييع على نطاق ضيق. أرادت كلارانس أن ترافقني إليها. كان هناك أيضاً إيرين وإمانويل لييڤ، وثلاثة من زملاء ڤالوريس، إضافةً إلى امرأة يمكن بالأحرى اعتبارها شابة، ولم يبدُ أن أحداً منا يعرفها، إلا أنها من الواضح أنها كانت تأخذ دور الأرملة. كانت طريقتها في شتم الموت، بلا دموع، وبلا وشاح كئيب، هي أن تكون جميلةً، أن تكون الأجمل، والأكثر أناقة، لكي تشهد بأن أندريه عرف كيف يحب الحياة حتى النهاية، وبأن الحياة عرفت كيف تحبه.

نظراً لعمرها، القريب حتماً من الأربعينات، فلا بُدَّ أنها لم تكن أكثر من بُنَيَّة، حين كان عرَّابي يوصيني قائلاً: «علينا التمسك بأنبل قدر من الفسق: ألاّ نمارس الحب أبداً خارج نطاق الحب، وأن يتم ذلك بغض النظر عن الزواج.» دخلت هذه الـ «أرملة» حياته، بعد سلسلة من علاقات الحب الأخرى حتماً، إلا أن الامتياز الأليم الذي حصلت عليه هو أنها كانت رفيقته الأخيرة. هل كانت تعيش معه؟ هل كانت تختبىء في

غرفة نائية أيام الأحد التي كنت آتي فيها لرؤيته؟ أم أنها كانت تسرع بالذهاب قبل أن يحين موعدنا؟

على أية حال، فإنني عند انتهاء المراسم توجهت إليها بالذات أولاً وصافحتها معزياً. اصطف الآخرون جميعاً ورائي ليفعلوا مثلي. استسلمتْ لهذا الطقس غير المتوقع بابتسامة مُكرَهة، هازئة بشكل خَفي. ربما فكرتْ بابتسامة أندريه لو أنه رأى المشهد.

أكثرنا تأثراً كان إمانويل، الذي كانت زوجته تختلس النظر إليه بقلق. أن يشهد اختفاء «الصغير»، شيء يُشعِرُهُ عن كثب بغصات قلبه وصرير عظامه.

رافَقْتُهُ بضع خطوات باتجاه السيارات.

ـ هذا الولد، ڤالوريس، ياله من قذر، يسير في الثلج، هو الذي لا يحتمل البرد!

كان غاضباً منه. أجبتُ بكلام مبتذل، ذي صلة بالقدر، بالزمن، وبالمصير المحتوم.

كنت قد استأذنت من آل ليبف للتو، حين لحقت بي «الأرملة».

ـ عثرت فوق مكتب ڤالوريس، على هذا المغلف الذي كان موجهاً لك.

تركت المقود لـ كلارانس لكي أقرأ الرسالة أثناء الطريق. لم تكن وصية. وكان اختفاء صديقي وحده، يمنحها فخامةً مماثلة. على الغلاف دوِّنَ اسمي، وعنواني، وأُلصِقَ طابع كان النص يقول ببساطة:

«لدي فكرة أحب أن أناقشها معك في لقائنا القادم.

أعرضها لك منذ الآن، لأدع لك الوقت كي تفكر بها، كي تدفعها إلى الأمام. ربما نستطيع أن نجسدها دون تأخير كبير.

«هاهي: يبدو لي أن الوقت مناسب لتكوين جماعة سأسميها مؤقتاً: «شبكة الحكماء»، التي يمكن أن تمتد خيوطها إلى عدد كبير من البلدان، ويكون دورها تنبيه الرأي العام ومختلف السلطات، إلى الأخطار التي يجرُّها التلاعب غير المسؤول بالجنس البشري. أشعر بالنقمة جرَّاء الامتهان الذي تُؤخذ به الظاهرة، وجرَّاء لامبالاة مواطنيَّ، وهي لامبالاة تصبح أصعب على الفهم لاسيما إذا علِمْنا أن الخطر لاينحصر في أقطار الجنوب. سيكون من الوهم بقدر ما هو من الإجرام، الدعوة لحلٍّ سحري ونهائي لمشاكلنا أو التساهل مع حل من ذلك النوع الحقير الذي يتمثل بإبادة جماعية زاحفة.

«فكرت بـِ ليبف كي يرأس هذه «الشبكة»، وبكَ أنت ومعك رفيقتك، من أجل أمانة السر وبالتالي الإدارة الفعلية.

«لدي بعض الأفكار الأخرى بهذا الشأن، سنتكلم عنها حين تأتي لرؤيتي.»

أعادت هذه الجملة الأخيرة إلى ذاكرتي حوالى الخمسة والسبعين يوم أحد من أحاديثنا. لقد نقل لي متاعاً فريداً من المعرفة ومن الوجود، كنت أدين لذكراه بأن ألتقط بحَميَّة، الفكرةَ التي وقعت من يديه. في المساء ذاته، اتصلت بـِ ليبف، دون أن أشك لحظةً بجوابه. كان لديه مشاغل أندريه ذاتها، ومتمسك مثلي، بتكريمه بهذه الطريقة.

لكن ألم يكن يفكر بأنّ في تسمية «شبكة الحكماء» شيء طنّان، ومضحك قليلاً؟ هبَّ قائلاً:

ـ على الإطلاق. الحكمة هي الفضيلة المنسية في زماننا. العالِم الذي لايكون حكيماً أيضاً، يكون إما خطيراً، أو، في أحسن الأحوال، عديم الفائدة. ثم إن في كلمة «شبكة» ظلاً من السرية والغموض والخبث الذي سوف يثير فضول الناس. لا، لم يخطىء أندريه، شبكة الحكماء عنوان جيد. أنا موافق!

تميز رد فعل كلارانس بالحميَّة ذاتها، لذا قررنا أن ننشر إعلاناً مؤطّراً، هذا نصه القانوني:

«نحن، أهل العلم، والإعلام، والثقافة والعمل، من النساء والرجال، الحريصين على تجنيب أرضنا المشتركة، المغامرات الانتحارية، التي يمكنها مرة أخرى، أن تُطلق الأحقاد وتشوه التقدم، ندعو لخلق «شبكة الحكماء» التي سوف تعمل من أجل:

ـ وضع حد لكل تلاعب بالجنس البشري، وخاصةً من خلال الاختراعات المنحرفة التي ينجم عنها تمييز حسب الجنس، العرق، والإثنية، والدين، أو أي معيار آخر.

ـ دفع وتشجيع تقاربٍ متسارع، بين شمال الكوكب وجنوبه، بالوسائل كافة.

ـ تنبيه الرأي العام والمسؤولين ضد صعود الحقد والتعصب.»

تلي، قائمة بالـ «عرَّابين»، الذين تَوَقَّعَ كلٌ من ليبف وكلارانس استعدادهم للانضمام، إضافةً إلى عنوان، هو عنواني، شارع جوفروا ـ سانت ـ هيلير، من أجل إرسال التواقيع والمساهمات في نفقات نشر النداء.

ذُكرت أسماء «العرابين» الثلاثين، بالتتابع، حسب الترتيب الأبجدي، الاستثناء الوحيد، كان اسم ڤالوريس، الذي، رغم حرف الـ «ڤـ» الذي يبدأ به، وضع في البداية، إلى جانب عبارة منفصلة وبين هلالين «في الذاكرة».

حين تأمَّلتُ، بعد ذلك ببضع أيام، النص المنشور، والذي عُنِيَ بإحاطته بإطار مظلل يُبرِزُه، شعرت بالفخر لكوني قدَّمتُ لصديقي هذه الهدية بعد وفاته؛ إلا أنني في الوقت ذاته، شعرتُ بالحرج لرؤية اسمي وعنواني معروضَيْنْ بملايين النُسَخ بهذه الطريقة. يالها من خيبة إن لم أتلقَّ سوى حفنة من رسائل التأييد!! ويالها من مهمة إذا تلقيت عشرة آلاف منها! متى سأقرأها؟ وكيف أجيب على كل رسالة؟

لا أريد أن يتخيل أحد أنني، وقد غرقتُ في هذه الاعتبارات المبتذلة، أهملتُ الجوهري، الفحوى، معركةَ ڤالوريس و لييڤ و كلارانس، معركة أجد نفسي الآن في الصف الأول منها. ولكن تَحَوُّلي إلى شخص تُسَلَّط عليه الأضواء، تقريباً، صار أمراً واقعاً، مع خشية تصل إلى أقصى حد وعليَّ ألا أتنازل عنها قط. كنت مصراً أن أشير إلى ذلك منذ الآن، حتى لايسيء أحدٌ الظن حول معنى سلوكي اللاحق.

في الأسابيع التي تلت نشر الإعلان، كان لييڤ يتصل بي كل صباح. كان يبدأ بكلمة لاتتغير «آسف»، إما لأنه قطع عليَّ حمّامي، أو فطوري. ثم يبدأ باستجوابي بالتفصيل حول بريد اليوم. أحسب له عدد الرسائل، بعشرين رسالة وسطياً، وهو الرقم النموذجي بالنسبة لي، لأنه يكشف عن مصلحة ثابتة لي دون أن أنْهَرِسَ تحت ثقل المسؤولية.

كان إمانويل الذي أدعوه «الرئيس» على نحو طريف،

يدق الأرض برجليه طَرِباً في الطرف الثاني من الخط، في الوقت الذي أفضُّ فيه الرسائل بقوة. هذه الرسالة من زميلي فاقر بونتي الذي أُعيدَ احتواؤه كما هو واضح. وهذه المجموعة، واحدة من أكاديمي، وواحدة من وزير سابق، من حاخام، من عالِم أحياء، وأقلها توقُّعاً كانت مذيَّلة بتوقيع محام من شيكاغو، كان قد عَرِفَ ڤالوريس جيداً، بل تعاون ثلاثَ سنين مع مكتبِهِ. كان يدعى دون غرشوين، من شركة غرشوين أند غرشوين، « Attorneys - at - law » .

خصص القسم الأول من رسالته لصديقنا المشترك الذي سمع للتو خبر وفاته. ذكر بشكل خاص تلك العبارة التي لَطَمَهُ بها حين استقبله في مكتبه للمرة الأولى: «مازلت أثق بأنجلو-سكسونيٍّ يعشق باريس، حتى إذا كان محامياً.»

كان القسم الثاني من الرسالة هو المهم على أية حال. بعد أن رحّب غرشوين بمبادرة شبكة الحكماء بلا تحفظ، رجاني أن أزوده في أسرع وقت ممكن، بجميع الوثائق التي بحوزتي حول موضوع «المادة»، آثارها الطبية، الاجتماعية، وغيرها، « وذلك بهدف فتح دعوى يمكن أن تكون نموذجية».

لَفَتَ أندريه نظري أكثر من مرة إلى أن جدل الأفكار في فرنسا كان يميل لأن يتحول بشكل غير محدد إلى دائرة المفاهيم الأخلاقية والسياسية، في حين أنهم في الولايات المتحدة يبدؤون وينتهون أمام قاض. وكان، كَرَجُل قانون، يتولَّد لديه بعض الحنين عند ذكر الموضوع.

بهذه المناسبة، أعتقد جازماً أن شبكة الحكماء كانت ستظل لزمن طويل صندوق بريد متواضع لو لم تَقُم «الدعوى النموذجية» دعوى شيكاغو، والتي تلتها، والحق يقال، القضية الشهيرة جداً، قضية «فيتسيّا».

N

لم يعد اسم دون غرشوين يعني شيئاً، بالنسبة لكثيرين. بقي في الذاكرة فقط اسم إيمي راندوم، الزوجة الشابة لمُزارعٍ من الإلينوا. أرادت أن يكون ابنها الأول، الصبي الذي يتمناه زوجها. مدفوعةً برغبة وحيدة هي أن يُقَبِّلَها هاري بقوة، ثم يحمل ابنه بفخر، عمدتْ بغباءٍ إنما ببراءة، إلى التزود بـ«برشامات»، استعملت المسحوق الذي بداخلها بِرَشِّه فوق رغوة البيرة التي تسكبها لزوجها. عاشا، بسبب ذلك، حياة جنسية عامرة، وولد هاري الابن في الشتاء التالي، وبعد عام ولد التوأم تيد وفريد. اكتفى الأب، إلا أنه صار يرغب الآن بشدة أن يكون عنده بنت.

ذهبت إيمي، التي مازالت بالقدر ذاته من المراعاة، إلى الصيدلاني الذي تتعامل معه لتسأله العلاج المناسب. عبَّر لها عن أسفه لأن المادة «العكسية» غير موجودة، ليس بعد. عليها إذن أن تسلم أمرها للمصادفة؟ كرر لها الصيدلاني أسفه وقال لها، إنه مع الفحولة التي اكتسبَها زوجُها ـ وهذه تعابيره بالذات ـ ربما يضطران للانتظار سنوات عديدة لكي يحالفهما الحظ وينجبان بنتاً.

كان العلماء يشكُّون بطبيعة الحال، بالسِّمة غير القابلة للعكس تقريباً التي تتصف بها «المادة»، خاصةً إذا نُصِحَ

بتناولها بجرعات كبيرة. لكن أحداً لم يتجشم عناء إبلاغ إيمي وملايين مُستعمِلي الدواء الآخرين، بذلك.

تجرّأت إيمي، وقد أصيبت بالسخط، واليأس، وأضناها الإحساس بالذنب، أن تتجاوز خوفها لكي تكشف كل شيء لـِ هاري. ظَلَّ بضعة أيام، يطلق عليها جميع أوصاف الشعوذة، هدد بأن يوسعها ضرباً ويطردها من المزرعة. إلا أن الرجل لم يكن من النوع العنيف، وكانت إيمي ـ الحمراء الشعر، المُدَعْبَلة بعض الشيء، ذات الأنف المزركش بالبقع، والعينين المدهوشتين باستمرار ـ تعرف جيداً كيف تُثير حنانه. سرعان ماتَوَجَّها، يداً بيد، إلى محاميهما؛ الذي نصحهما بالتوجه إلى شركة شيكاغو غرشوين أند غرشوين كونه يعرف أنه ذا كفاءة أكبر في النزاعات بين المصارف والمزارعين، منها في النزاعات الطبية.

توعَّد الزوجان صيدلاني المنطقة بإيصاله إلى حبل المشنقة. أقنعهما دون غرشوين بتحميل المسؤولية للصانعين مباشرةً.

ستصبح قضيةُ إيمي راندوم التي هي بشكل من الأشكال، قضية «المادة»، منعطفاً في موقف الرأي العام والمسؤولين.

ربما كانت العقبة تكمن في إعادة إطلاق الخصومة القديمة والعنيفة غالباً، بين «أنصار الحياة» و«أنصار الخيار» من جديد. عرف دون غرشوين كيف يتجنب ذلك. وتمكّن بمهارة، من أن يجتذب إلى صفه، أعداء الإجهاض، مثلما اجتذب أعتى المدافعين عن حقوق المرأة. روَّج بين هؤلاء الأخيرين، أن المادة التي تُباع للزبونة، هي أداة تمييز

شنيعة لأنها لاتعطي حق الولادة إلاّ للصبيان فقط. حصل كذلك على تأييد الكنائس مثلما حصل على تأييد الأوساط العلمية والطبية، التي نُظِرَ فيها لطُرُقِ الدكتور فولبوت وأقرانه من أمريكا الشمالية، بعين الريبة والاحتقار.

نجح المحامي، فضلاً عن ذلك، في كسب مجموع الرأي العام، مبرهِناً بأن المصنِّعين قد استغلوا ثقة المستخدِمين لأنهم أخفوا عنهم الطابع وحيد الاتجاه للعلاج؛ وأظن أنه أثناء سير الدعوى والجدل الواسع الذي أحاط بها، استُخدِم للمرة الأولى، المصطلح البربري «تعقيم الجينات»، بل استُخدم، مصطلح «تعقيم» بلا زيادة، وهو أكثر إيجازاً إنما، عليَّ الاعتراف بذلك، خلافاً للأصول بما فيه الكفاية، من أجل وصف آثار «المادة».

شغلت قضية إيمي راندوم أمريكا حوالى عامين تقريباً، وانتهت باتهام الصناعي المسؤول وبدفع مليوني دولار للثنائي الضحية.لم يكن مبلغاً ضخماً جداً إذا ما قورن بالخسائر التي وقعت في نزاعات أخرى تسمى «دوائية»؛ لكننا حين نعرف أن عدة مئات الآلاف من الدعاوى المشابهة سوف تُرفع في العام ذاته، للغاية ذاتها، وتتمتع بالفرص ذاتها في النجاح، ندرك حجم المصيبة بالنسبة للمصنِّعين: جميع من تعاطوا هذه التجارة أصيبوا بالإفلاس؛ انتهى بعضهم في السجن، وفضَّل البعض الآخر الهجرة.

بعيداً عن الجوانب القضائية والمالية في قضية راندوم، فسوف يكون لهذه القضية أثر شافٍ في الكشف عن خفايا بعض الأشياء، على مجموع بلدان الشمال. حتى العام

الخامس لبياتريس ـ هل سيؤخَذ عليَّ إن أرَّختُ أحداث ولادة ابنتي بهذا الشكل؛ لديَّ أسبابي التي سيكتشفها قرَّائي المتسامحون بالتأكيد؛ ثم إن بياتريس ولدت على أية حال تقريباً مع ولادة القرن، ولن يتبقى أمام المؤرخين المتشددين إلا تعديل طفيف ـ، كنت أقول إذن إنه حتى العام الخامس بعد بياتريس، شهدت بلدان الشمال تفشّي الشرّ، كمتفرجة، محابية أحياناً وحذرة أحياناً أخرى، ولامبالية في معظم الأحيان. هذا هو مجمل المواقف المشتركة التي كانت تُتَّخذُ بمجرد أن يتعلق الأمر بـ «هناك». وكانت مسألة «المادة» في نظر الجميع، «شيئاً من هناك»، أو قضية من قضايا المتخلفين، إذا تكلمنا بفجاجة مثلما كان الكثيرون يتكلمون ذلك الوقت.

سوّى الشمال مشاكله المتعلقة بالسكان، فتوصل إلى معدل نمو مسطح، دون فائض أو زيادة. من ناحية أخرى، أظهرت الاستطلاعات أن الأزواج لم يكونوا يُميّزون بين الصبيان والبنات. لاخوف من أي تفاوت. كان يمكن أن يجري جدل حول هذا الموضوع مثلما يجري حول أشياء كثيرة أخرى، ويبقى كل شيء على مستوى الأفكار، لاشيء على مستوى محسوس. لا أتهكَّم، أو أكاد. أحاول أن أنقل الأشياء التي كان يفكر فيها الناس آنذاك. ليس في محيطي المباشر تماماً، ليس لبيف، ولا كلارانس، بل الرأي العام السائد.

صحيح أن «المادة» ظلت وقتاً طويلاً مجهولة، أو شبه مجهولة. وحين سمع عنها البعض، شبَّهوها بوصفة من وصفات الاحتيال. وللمفارقة، كان تقرير الأمم المتحدة والجدل الذي نجَمَ عنه، عامَ ولادة بياتريس، هو الذي منح طريقة الدكتور فولبوت بداية مصداقيةٍ علمية. وبهذا الشكل،

أصبحت تلك الطريقة ثمرةَ أبحاث مخبرية طويلة! وبهذا الشكل تم إثبات فاعليتها!

حين وُضِعت الأدوية الحاوية على «المادة» قيد البيع بشكل قانوني، في صيدليات باريس ولندن وبرلين وشيكاغو، لم يقف الناس صفاً طويلاً للحصول عليها، بل كان المخزون ينفد بهدوء، فيعاد تزويده بكميات جديدة، تنفد بدورها. من هم الزبائن؟ في أوروبا أجريت تحقيقات فورية أعلنت أن المشترين كانوا بالدرجة الأولى، من الأتراك، والأفارقة، والأفريقيين الشماليين؛ وفي الولايات المتحدة كانوا من ذوي الأصول الأسبانية. اطمأنت النفوس، لم يكن الشمال، بل أولئك الذين اختاروه مسكناً لهم فقط، حاملين معهم من ضمن أمتعتهم، «العقليات المَدَارية».

لوقت طويل، كان هناك رفض للإقرار بأن قَدْراً، يزداد كل يوم، من الرجال والنساء من أهل البلد، اختلط مع ذلك الحشد من ذوي البشرة السمراء. بالطبع ليسوا أكثر من أناس هامشيين، فقراء، «غير مصنَّفين، وغير قابلين للتصنيف»، أو، إذا أردنا استعادة دراسة علمية جداً نشرت آنذاك، «آخر المتمسكين بالعقليات البائدة» ؛ وحين ذُكرت حالة إيمي راندوم للمرة الأولى، لم تشعر بعض الصحف بأي حَرَج من اعتبارها «فلاّحة أمّيّة»، و «مدبرة بيت آليّة، تستطيع الدعاية أن تَحملها على ابتلاع مكنستها بالذات».

قلتُ «بعض الصحف»؛ لو كانت كلارانس هي التي تكتب هذه الأسطر، لأظهرت قدراً أقل من النعومة إزاء زملائها. كان لديها في ذلك الوقت شعور بأن مجموع وسائل الإعلام لم تكن تفعل شيئاً آخر سوى بث الرسالة الخادعة ذاتها بألف طريقة مختلفة، وهي أنه ليس لدى الشمال مايخشاه، وأن تأثير

«المادة» فيه «قليل الأهمية» و«ضعيف الدلالة»، و«محدود جداً»، و«خفيف»، و«مجرد راسب»، و«يمكن السيطرة عليه»... تسلَّتْ رفيقتي خلال بعض الوقت، في إحصاء جميع هذه العبارات التي كانت تعني الشيء ذاته بشكل ظاهر. أحصت منها أربعاً وعشرين، كما أعتقد، أو سبعاً وعشرين، إلى أن كفَّتْ هذه اللعبة الصغيرة يوماً عن أن تبدو لها مسلية.

ـ نتخيل أحياناً أنه بوجود هذه الكثرة من الصحف، والإذاعات، والتلفزيونات، فإننا سوف نسمع عدداً لانهائياً من الأصوات المختلفة. ثم نكتشف أن العكس هو الذي يحدث: إن قوة هذه الوسائل الإعلامية لا دور لها سوى تضخيم الرأي المسيطر في اللحظة الراهنة، إلى حدِّ جعلِ أي صوت جرسٍ آخر غير مسموع.

ـ زملاؤكِ لا يفعلون شيئاً سوى عَكس...

ـ هو كذلك! وسائل الإعلام تعكس مايقوله الناس، والناس يعكسون ماتقوله وسائل الإعلام. ألن نَكِلَّ أبداً من لعبة المرايا هذه، التي تصيب العقل بالخَبَل؟

ودون أن تنهض، أكَّدت كلماتها بحركة لاعب كرة قدم مُغتاظ.

ـ آه، رفسة جيدة في كل هذا!

يجب القول إنها شعرت بالسخط في ذلك اليوم، بسبب تحقيق هو من أكثر التحقيقات «طمأنةً»، كان قد نشر للتو. أجرته مجلة ألمانية من فرانكفورت في خمس مناطق ألمانية، وكان يشير إلى أنه من بين مئة من الأزواج الراغبين بإنجاب

طفل، فضَّلَ ستة عشر زوجاً منهم إنجاب صبي، وتمنى ستة عشر إنجاب بنت، في حين أن ثمانية وستين منهم لم يكونوا يكترثون لجنس المولود.

«توازن رائع! ياله من تناظر دقيق! علَّقت كلارانس في مقالٍ لها لاقى آنذاك صدىً فريداً. ياله من برهان بليغ على تراجع عداء المرأة! هذه النتائج تنسجم من ناحية ثانية، مع مانعرفه عن العقلية السائدة في مجموع أوروبا الشمالية بهذا الخصوص.

«المشكلة، أضافت كلارانس، هي أن وجود «المادة» اللعينة يجعل كل الأشياء مُفسِدة. منذ أن انتشرت، منذ أن أصبحت متوافرة في كل مدينة وكل قرية، منذ أن مَنَحَتْ شخصياتٌ مرموقةٌ، صفةَ المشروعية والاحترام لتلك الطريقة، لم تعد الأرقام تحمل المغزى ذاته إطلاقاً.

«الحساب الذي يستتبعه هذا الواقع الجديد، هو، للأسف، حساب في غاية البساطة. بين الثمانية والستين زوجاً الذين لايكترثون لجنس المولود الذي سينجبونه في المستقبل، يجب، وفقاً للاحتمالات السكانية العادية، أن يكون هناك خمسة وثلاثون صبياً، مقابل ثلاث وثلاثين بنتاً؛ وبين الستة عشر الذين يريدون بنتاً، يجب أن يكون هناك توزيع مكافىء، من أجل تدويرِ العدد أي، ثمانية إلى ثمان؛ بالمقابل، فإنه بين الأزواج الذين يريدون صبياً، يحتمل جداً أن يكون هناك ست عشرة ولادة مذكرة. لنُجْرِ حساباتنا: بين مئة مولود جديد، هناك تسعة وخمسون صبياً مقابل إحدى وأربعين بنتاً!»

لم تُجر رفيقتي أي بحث خاص، اكتفت بأن ألقت على الأرقام تلك النظرة التي أعرفها فيها جيداً، وهي مزيج من رجاحة العقل ومن الحاسة السادسة. مع ذلك، فسوف تَثبت

صحةُ تشخيصها بدقةٍ مدهشة؛ إذ أن هناك تقديرات تقول إنه في لحظة التوزيع الأوسع للـ «المادة»، كانت «الفرص المضيَّعة في الولادات المؤنثة» في ألمانيا، بَلَغت بنتاً من ثمان، وربما حتى بنت من سبع. وطالما أن الأمر يتعلق بمنطقة تشكل قلة الخصوبة فيها، بل التناقص المنتظم في السكان الأصليين، موضوع قلق، فإن هذه الظاهرة ستصير قريباً سبباً لصدمة نفسية، تكبر يوماً بعد يوم، وتصبح هاجساً.

هل هناك حاجة للإلحاح بأن أوروبا الشمالية كانت تُعَد وقت إجراء التحقيق، من المناطق الأقل «اعتقاداً بتفوّق الذكر» في الكرة الأرضية؛ كانت الفتيات اللواتي يولدن فيها يُستقبلن بالحرارة ذاتها التي يستقبل بها الصبية. مع ذلك، حتى هناك، كان يمكن أن تكون أضرار المصيبة بليغة.

من الأسهل الآن فهم البلبلة التي استحوذت على المسؤولين وعلى الرأي العام، حين أُذيعت إحصاءات معينة بخصوص الولادات في أوروبا المتوسطية والشرقية.

لا أريد إثقال هذه الذكريات بالأرقام التي يسهل العثور عليها في الكتب الموجزة؛ أوصي أولئك الذين تهمهم مثل هذه المعطيات، بقراءة النشرة التي وضعتها السلطات الأوروبية في بروكسل في العام السابع، تحت هذا العنوان نصف الشاعري، نصف المعبر عن نهاية العالم، إنما الذي فعل فعله: «...وأَقْفَرَت كل الأماكن من السكان».

لحسن الحظ، لم تُقْفِر كل الأماكن. ولكن يالها من ضريبة كبيرة تلك التي مازلنا ندفعها.

0

في حوالى العيد الثامن لميلاد بياتريس، أوقفتُ مختاراً، كل نشاط في البحث أو التعليم لبعض الوقت، ووافق متحف العلوم الطبيعية على منحي إجازة مأجورة وغير محدودة. كان الأمر استثنائياً، إلا أن كل فرد كان يدرك الآن أنه يعيش حالة استثنائية. كانت الكلمة الجوهرية بالنسبة لـ «شبكة الحكماء» هي «إنقاذ»، ولأن «شبكة الحكماء» كانت من أوائل من نبَّهَ للأخطار دون أن تجد من يصدِّقها، مثل كاساندرا، فقد صار لهذه الشبكة طابع الملاذ.

قبل أن أركِّز أكثر قليلاً على الدور الذي استعدته لنفسي أثناء اللعب، ربما يتعين علي أن أصف بشكل أفضل، المناخ الذي ساد، لأولئك الذين لم يعرفوا ذلك العصر.

نوَّهت باختصار إلى الجدالات التي هزَّت أوروبا والولايات المتحدة؛ لم أُشِر إلا مروراً، إلى أولى بوادر العنف في العالم الثالث. من واجبي أن أضيف هنا بعض العناصر التي لاغنى عنها، فيما يبدو لي، من أجل فهم ماسوف يلي من أحداث.

أولاً، كان النزاع الدائر حول «المادة»، ومجموع طرق «الولادات الانتقائية»، والـ «إجهاض التمييزي»،

والـ «التعقيم»، بصدد التحول إلى ظاهرة يومية تشمل الكوكب بأسره. لاشك أن المخترعين والمصنِّعين كانوا موضع اتهام، إلا أن هذه الرؤوس التي قُدِّمت ـ وكان في تقديمها، من جهة أخرى، انسجام تام مع العدل ـ لم تعد كافية. ففي الشمال اتُّهمت السلطات لغفلتها، وإهمالها، وبشكل من الأشكال، لتواطئها. في بلدان الجنوب، كما قلت، جعلت النزاعات قوماً يواجهون قوماً، وجماعة تواجه أخرى. كان يتعرض للهجوم أيضاً ـ وغالباً بغير وجه حق ـ كلٌّ من الهيئة الطبية والقادة السياسيين؛ ثم تصل الأمور شيئاً فشيئاً إلى توجيه الاتهام إلى المستعمر القديم، وإلى الغرب، ببساطة أكثر، كـ متَّهم، كـ أصل البلاء. ألم يُخطِط لذلك الاختراع الشيطاني في بلاده؟ أليس هو من يمكن أن يسعى بهذا الشكل لـ «تعقيم» هذه الجماهير من البشر الذين يختلفون عنه باللون والمعتَقَد والغنى؟ اتهام تبسيطي، وعبثي بالنسبة لمن تتبع القضية من البداية حتى النهاية. ولكنْ، تلك كانت الصفة المخادعة للـ «المادة» التي تؤدي إلى أن شعباً لايستطيع قط أن يحدد بشكل يقيني إذا كان تعقيمه قد تم على يد عدو نذل، أم أن تقاليده الخاصة المتوارثة عن أجداده هي المسؤولة عن ذلك.

هل اختراع فولبوت فاسد؟ أنا أول من يوافق على ذلك. إلا أن العقليات التي كانت تدفع مئات الملايين من الرجال والنساء للجوء إلى علاج مماثل، لاتقلُّ فساداً. من ناحية ثانية إن اللقاء بين فساد القديم وفساد الجديد، هو الذي أعطى الأحداث التي كنت شاهداً عليها، هذه الأهمية.

قلة من الناس كانت تطرح الجدل بهذه الطريقة، إلا أن الجميع كان يشعر بالصعود المحتوم للعنف . سيكون من المضجر تعداد الفِتَن، وجرائم القتل، وعمليات الاختطاف، والاختلاسات، وعمليات النهب؛ أريد هنا أن أقول فقط إن هذه الحقيقة الواقعة التي تشمل الكوكب وذات الحدود الغائمة إنما المهدِّدة، أصبحت منذ ذلك الوقت فصاعداً حاضرة في الأذهان؛ وإن الكثيرين أخذوا يستشفُّون إضافة إلى ذلك، مدى الخراب الذي سبَّبته «المادة» في مناطق مختلفة، حتى إن أُخفِيَتْ الأرقام التي تثبت ذلك، أكثر من أي وقت مضى. مع ذلك فإنه عندما كان يجري الكلام في الشمال عن عملية «إنقاذ»، فقد كان المقصود بالدرجة الأولى هو «إنقاذ» الشمال.

خطران، أحدهما هائل لكنه بعيد وغير محدد، والآخر أقل هولاً لكنه قريب، أليس من الإنساني الانشغال بالثاني أولاً؟

من السهل اليوم توجيه المَسَبَّات واللعنات. من السهل، بعد فوات الأوان، تقديم البرهان على أن الشمال قد جازف بازدهاره وأمنه الخاصين، إذ سمح للتدهور الحاصل في الجنوب بالازدياد، وأن الجنوب قد حكم على نفسه بالتقهقر، بهياجه ضد الشمال. كلٌ، في ذلك الوقت، كان يريد النجاة من الأخطار الأكثر مداهَمةً، بأسرع وقت، وأقل تكلفة.

أدع لآخرين، ممن بقي أمامهم عدد أكبر من السنين، أمرَ إقامة البراهين والحجج. من جهتي، فقد اعترفت على الدوام أن هذه المشاكل تتجاوزني؛ كان بوسعي، في أفضل الأحوال، أن أدل عليها. فقد ترك لي ڤالوريس حصتي من وضوح

الرؤية؛ إلا أن عنوان «شبكة الحكماء» الرنان، لايجب أن يكون موهِماً. فبأية معجزة كان بوسعنا أن نمنع وقوع الكوارث؟ هل كنا سوى مجموعة من الأشخاص الذين يحنّون لمستقبل آخر؟ ما الذي كنا نفعله، كَدُعاة مملين ليوم إجازة لاينتهي، سوى الكلام، والكتابة، والكلام؟

مع ذلك، فإن أولئك الذين عرفوا ذلك العصر لايمكن أن يكونوا قد نسوا ذلك العجوز الجليل إمانويل لييف، أنفه الذي على شكل خطم، وأذنيه اللتين تشبهان جناحي خفاش، وخاصةً صوته الذي كان يكلم الجميع ويكلم كل واحد على حِدة أيضاً. كان قد تحول إلى «جَدٍّ شامل»، بشكل من الأشكال، يبثُّ العزم بالذات، حيث كان يسعى لإثارة الخوف.

يصعب علي أن أثمِّن دوره أو دور الشبكة، بتجرد؛ يروق لي أن أعتقد أنهما لم يكونا عديميْ الأهمية. صحيح أن الأمر احتاج إلى اقتران مجموعة أحداث ـ دعاوى، وأعمال عنف، وإحصاءات منذرة بالخطر ـ لكي يولد، أخيراً، في أوروبا وفي الشمال ككل، ذلك الشعور بأن الأمر مُلحّ، ببدايات صحوة فجائية. لكني لن آخذ هامشاً مسرفاً من الحرية في التعامل مع الوقائع فأؤكد بأن أغلب القرارات التي اتخذَتْها السلطات في ذلك الوقت، أوحى بها أفراد من جماعتنا.

إذا تكلمت بتخصيص أكبر عن لييف، فذلك لأني أردت أن ألوذ بمن كان، حتى وفاته، حامل رايتنا، و حرزَنا. إلا أننا كنا كثيرين، عشرات ثم مئات، مبعثرين جداً عبر العالم، بحيث كان من الصعب أن نعرف بعضنا جميعاً، وكنا أشد حرصاً على الفعالية من أن نعقد جمعيات عمومية يعُمُّها الخواء. لا،

كنا متمسكين بفكرة «الشبكة». يجمعنا شيء أشبه بالخيط غير المرئي، وتوحدنا مثلٌ ضمنية، ويُبقينا ذلك الشعور بضرورة إيجاد علاج سريع، في حالة تأهب.

قلت إن بعضاً من أفكارنا أُخذ به وطبِّق، وبعضها الآخر كان موضع أخذ ورد، وأيضاً بعضها بلا فائدة، رغم أنها انطلقت من أفضل المشاعر. كان الهدف المشترك لجميع الأفكار المقترحة، هو حثّ السكان على إنجاب البنات، إلى حد يكفي لإعادة التوازن إلى نسب الولادات، وإعادة معدل الإنجاب إلى سابق عهده قبل الأزمة. يجب أن نعلم أنه في أكثر السنوات خواءً، قُدِّرَت الفرص المضيَّعة في ولادة بنت بحوالى مليون بنت في مجموع القارة الأوروبية. وهذا رقم لايقارن بما يمكن التنبؤ به في بعض المناطق من الجنوب، إلا أنه كافٍ لتبرير الخوف من نقص السكان.

كان يجب قبل كل شيء، منع أشخاص جدد من استخدام «المادة»؛ وكان ذلك هو الجانب الأقل صعوبة. مُنِعَ صنع وتسويق جميع المنتجات «المسؤولة عن الولادات التمييزية»، وحتى إذا حصلت بعض عمليات البيع خفيةً، فقد أصبح انتشارها في معظم بلدان الشمال لايُذكر. إلا أن ذلك لم يعد كافياً. نظراً للعدد الذي يدعو للدهشة من الرجال الذين عولجوا ـ ربما يجب أن يقال، الرجال الذين أصيبوا بالعدوى ـ، فإن العجز في الولادات المؤنثة سوف يستمر عدة سنين أخرى أيضاً، مفاقِماً من خطورة الخلل. كان يحتاج الأمر إذن إلى جعل الميل ينقلب إلى الاتجاه المعاكس بمختلف الوسائل.

أُريدَ على الصعيد العلمي والتقني، تسريع ضبط المادة التي تسهِّل ولادة البنات، والتي اتُّفق على تسميتها بالـ «المادة المعاكسة»؛ كانت الأبحاث قد قطعت شوطاً لابأس به، بل لقد أوجد نموذج أصلي، ولكنْ أُحجِمَ في النهاية عن توزيعه، بسبب بعض الآثار الجانبية التي لوحظت، والتي لم يستطع الباحثون التخلص منها أبداً. من ناحية أخرى كان المشروع موضع خلاف حاد. وحتى داخل الشبكة، وجد المعادون لجميع أشكال التلاعب الوراثي، أنه من غير المنطقي محاربة الشر بالشر، وتشجيع اعوجاج بهدف معالجة الضرر الذي سببه اعوجاج آخر. بالمقابل، فقد رحب الجميع دون استثناء بتخصيص أموال من أجل إعداد «ترياق»، أي، علاج قادر على الحد من مفعول «المادة» عند من استخدموها، أو حتى على إلغاء آثارها كلياً. مع ذلك تقدمت الأبحاث بأبطأ مما كان متوقعاً، وحتى عندما بلغت هدفها، تبين أن الطريقة معقدة ومكلفة، وبالتالي يصعب استخدامها على نطاق واسع.

كانت أكثر الإجراءات فاعلية، والتي ساهمت بالشكل الأكثر حسماً في إعادة التوازن إلى الولادات، ذات طابع مالي: قررت الحكومات، واحدة إثر أخرى أن تمنح تخفيضات ضريبية هامة للعائلات ذات الدخل المرتفع، عند ولادة بنت، وطوال فترة طفولة هذه البنت وفترة مراهقتها؛ وأن تمنح العائلات ذات الدخل المتواضع، مرتّباً خاصاً، بحيث يكون كافياً لدفع العديد من النساء لترك عملهن من أجل التفكير بطفل ـ يكون في الحالة المثالية بنتاً.

للأسف أن بلداناً عديدة اعتقدت أنه من الجيد توسيع هذه

الامتيازات لتشمل العائلات التي تتبنى بنتاً في السنوات الأولى من عمرها، تبنٍّ تُسَهَّل الشكليات اللازمة لإتمامه. كشفت الشبكة النقاب، إنما بدون جدوى، عن هذا الإجراء، الذي كان يُفترض أن يكون طابعه المخادع واضحاً في أعين الجميع: في عالمٍ أخذت تندر فيه البنات، وصار الحصول عليهن فيه يجلب مزايا مادية، بدأت تقوم تجارةٌ خسيسة لا يمكن ضبطُها، مؤججةً الأحقاد، وهذا ما سأجد قريباً الفرصة للحديث عنه.

إجراءات أخرى، ملهَمة أكثر، كان لها أيضاً تأثيرها، لاسيما تلك الحملة الصاخبة على الشاشات الصغيرة والكبيرة، وعلى شكل ملصقات عملاقة، كان يُرى فيها رجل يحمل في طرف ذراعيه، تحت رأسه، بنتاً صغيرة ينظر إليها بحب غامر، مع شعار مقتضب في الأسفل: «والد، ابنة».

ذلك الرجل الذي نشرت صورته على الملصقات، كان أنا، والبنت، كانت بطبيعة الحال، بياتريس. المختصّ بالإعلانات هو الذي اقترح عليَّ أن يبتكر إعلاناً عليه صورتي بهذا الشكل، إلا أنني أشك بأن كلارانس هي التي أوحت له بالأمر. في البداية ضحكتُ من الفكرة، ثم قبلت في نهاية الأمر، في لحظة غواية، منقاداً للاقتناع بأنه إذا كان للصدق أية فعالية، فإن نظرتي لـ بياتريس ربما يكون لها قدرة على الإقناع.

لم يكن من السهل بالنسبة لي أن أحمل بطرف ذراعيَّ، بُنَيَّةً في التاسعة من عمرها، أصبحت طويلة القامة، وأن

أبقيها في الهواء بضع ثوانٍ ثقيلة. مع ذلك نجح المصور في إعطاء الصورة حركة طيران، تُذكر بالإبداع، واللعب، والارتفاع من جيل إلى آخر.

طيلة بقائي في الاستديو ـ احتاج الأمر لحوالى مئة لقطة، على امتداد ثلاثة أيام ـ، ظلت الفكرة فكرة، إلا أنني حين رأيت نفسي فوق الجدران، بحجم يفوق الحجم الطبيعي، شعرت بنفسي كالمحطم؛ اتجه تفكيري أولاً نحو المتحف: لحسن الحظ أني لم أعد أذهب إلى هناك، قلت لنفسي، لن أستطيع قط، أن أتحمل ضحكات الطلاب، أو تهكُّم الزملاء.

لكن جانب النكتة هذا غير مهم، فقد كانت فكرة الحملة أبعد من ملصق ومن شعار. كان المراد هو توطيد فكرة في الأذهان تقول إن الوريثة لاتقل قيمة عن الوريث. تطورت القوانين في هذا الاتجاه، باستثناء نقطة، شكلية لكنها جوهرية: الإسم.

كيف تُحل هذه النقطة؟ هل يكمن الحل بمنح الابن، كما في أسبانيا على سبيل المثال، اسماً مزدوجاً هو اسم الأب والأم؟ من الواضح أن هذا لايستأصل النزعة «الذكورية»، أو، «وراثة اسم الذكر» حسب مصطلح استُخدم في جدالات ذلك الوقت. ما العمل إذن؟ تخيير كل طفل بين اسم أبيه واسم أمه؟

من ناحيتي فقد كنت من أنصار إصلاح أكثر راديكالية: فرض اسم الأم. فمثلما حمل الأطفال إلزامياً اسم الأب لوقت طويل، فسوف يحملون من الآن فصاعداً، اسم الأم ، بالطريقة الإلزامية ذاتها. لن أعود هنا لحججي، وسأكتفي بأن أبيِّن أن

الفكرة الأساسية هي العكس الجذري لمفهوم الوراثة باتجاه أكثر توافقاً مع المنطق البيولوجي، وأكثر ملاءمةً لبقاء النوع.

لو لم أُتَّبَع حتى النهاية، لَقَبِلَتْ بلدانٌ عديدة أن تُعَدِّل القانون المتعلق بالإسم؛ فلم تعد كلمة «باترونيم[1]» تُلفظ بالثقة ذاتها التي كان يلفظ بها في السابق.

ولكن ليس المهم أفكاري أو مساهمتي؛ لستُ صالحاً أن أكون مؤلفاً في هذا الخصوص. الشيء الوحيد الذي يستحق الإشارة إليه، عندما يتعلق الأمر بهذه السنين، هو أن قطار الإجراءات الذي تم تبنيه في بلدان الشمال، بدا فاعلاً. عادت الولادات الأنثوية للارتفاع شيئاً فشيئاً. ولم يطل الأمر حتى أُذيع، استناداً إلى الأرقام، وأمام ارتياح الجميع، بأن تناقص السكان قد أوقف.

هذا هو بدون شك السبب الذي جعل الناس لا تفهم في الحال بأن الشر قد وقع.

(1) باترونيم : الاسم الذي ترثه الأسرة عن الأب.

P

في حفلة الرضا عن النفس الموسيقية التي كانت تصمّ جميع دول الشمال، ارتفعت بعض الأصوات رغم ذلك، لتطرح السؤال الصحيح الوحيد: ما هي العواقب التي قد تنجم في السنوات القادمة عن الخلل الكبير الذي وقع للتو في الولادات؟ لم يعرها أحد إلا الانتباه الذي كان سيعيره غريقٌ أُنقِذَ في الرمق الأخير، لمن يحذِّره من تأثير التيارات الهوائية على ملابسه المبللة.

وإذا قيل لهذا الناجي، بأن غريباً مايزال يغرق في الطرف الثاني من الشاطىء، فهل سيقفز لنجدته؟ لا، سيبقى هناك، ممدداً، بلا حراك، منهكاً، غير مصدق، يستعيد مراراً، لحظات الخوف، والذعر، ثم الخلاص. على هذا النحو أفسر لنفسي الفشل الأوليّ للحملة التي أطلقتها الشبكة في العام الثالث عشر، حول موضوع: «تم إنقاذ الشمال، فلننقذ الجنوب».

اليوم أيضاً، بالكاد أصدق ما قرأته وسمعته. الحجج القديمة ذاتها، حجج برادان، قُدِّمت كما هي، كما لو أن الأحداث لم تفعل شيئاً آخر سوى تبريرها. كان الشمال مهدداً بخلوه من السكان، احتاج الأمر إلى عملية إنقاذ؛ أما فيما يتعلق بالجنوب، فالكل يعرف أنه، بالمقابل، مكتظ بالسكان.

قد لايكون انخفاض الخصوبة اختلالاً بالنسبة له، بل بالعكس تماماً، قد يكون عملية إعادة توازن شافية. زيادة على ذلك، الآن وقد شهدت بلداننا نقصاً في سكانها، فقد أصبح من المستحب أكثر، أن يحدث، «هناك»، نقص مكافىء على الأقل. للوصول إلى هذه النتيجة، فإن جميع الوسائل جيدة...

أنا الذي كنت أظن أن الشياطين القديمة قد دُفنت! عند سماع تلك المحاكمة، تذكرت نقاشاً مع أندريه. كان لي آنذاك من العمر اثنا عشر أو ثلاثة عشر عاماً، وكان قد سألني خارج السياق تماماً: «هل تؤمن بالعودة بعد الموت؟» «لا!» أجبت محتجاً، شاعراً بالاستياء من احتمال أنّه ظن أنّي قابل للتأثر بحماقات من هذا النوع. «حسناً، أنت مخطىء. لاأتكلم عن تلك الجثث ذات البراثن التي تسير في نومها بجوار المقابر. أتكلم عن الأفكار التي تعود وتكون أيضاً ذات براثن ومدماة؛ سوف تلتقي بها في جميع مراحل عمرك؛ ولن تستطيع قتلها لأنها ميتة.» سواء كانت استعارة أم لا، فإن تلك الأفكار العائدة من الموت لازمت دماغي الشاب، زمناً طويلاً. ومازلت حتى اليوم، أرى بعضاً منها، أطاردها بعنف في كل مكان، وإن يكن بدون أوهام.

تلك هي تقريباً الحالة النفسية التي كنت أعيشها في الوقت الذي انفجرت فيه القضية المؤسفة التي أُطلقَ عليها اسم قضية «فيتسيا» أو «السفينة السماوية». وهي حدث مأساوي بقدر ماهو هزلي، مجرد ذكره يُشعرني بالخجل، مثلما يجب أن يُشعر جميع معاصريَّ بالخجل. ولكن ما العمل، لقد وصل العالم إلى تلك الدرجة!

سبق أن قلت إن حكومات عديدة قررت تسهيل تبنّي الفتيات من الخارج، بهدف سدّ العجز في الولادات، وإن شبكة الحكماء احتجَّت بلا جدوى. كان رأينا هو أن التبنّي يلعب بالتأكيد دوراً في التعويض العاطفي، إلا أنه لايجوز في أي حال من الأحوال أن يتحول إلى وسيلة للتعويض السكاني؛ فهو يمثل التزاماً إنسانياً رائعاً، شرط أن يبقى فردياً حصراً؛ كما لايجوز أن يكون موضوعاً لأية مساومة تجارية، أو أن يجر أرباحاً مالية. حين يتعلق الأمر بالطفولة، فإن خيطاً رفيعاً يفصل بين السامي والخسيس، بين الكريم والنذل...

إلا أن السلطات، مثل الرأي العام، لم تعد تريد، وقد لسعها الخوف من نقص السكان، أن ترهق نفسها في فروق من هذا النوع. كانت تفكر في المعدلات، والعجز، والتوازنات الشاملة، وكان هناك استعداد تام لاعتبار الترحيل الجماعي للبنات من الجنوب باتجاه الشمال، عملاً مشروعاً، بل منقذاً.

قرر قس «إنجيلي تلفزيوني»، أمريكي من أصل أوكراني، لايحضرني اسمه الحقيقي الآن، إلا أنه كان يسمي نفسه عموماً «فيتسيا» ـ الاسم الذي يعني «أب» بالأوكرانية الدارجة على ما أظن ـ، وقد شجعته الشرائع، بقدر ماشجعه الشعور الشعبي، أن يطلق عملية واسعة ترمي إلى نقل عشرة آلاف مولود جديد، معظمهم تقريباً من البنات، من البرازيل والفيليبين ومصر ومن العديد من مناطق الجنوب الأخرى، باتجاه الشمال. فنظم، تسانده دعاية كبيرة، جسراً جوياً حقيقياً، دشنه مُطلقاً عليه الاسم الرنان «السفينة السماوية».

يجب أن يكون المرء قد عاش هذه الأيام مباشرةً، أو كـ «فرجة حقيقية» كما كان يحب البعض أن يقول في ذلك

الوقت، لكي يلتقط كل مغزى ماحدث. اعتَبَرَت قنوات تلفزيونية عديدة أن عملية فيتسيا كانت نعمة حقيقية غير منتظرة بالنسبة لوسائل الإعلام، قادرة أن تستهوي جمهوراً يتأثر تأثراً خاصاً ويثير مشاعرَه إلى أقصى حد كلُّ ماله صلة بمشاكل السكان؛ وأن العملية ربما كانت حدثاً تاريخياً كبيراً، لايُغتفر «تَفْويتُهُ».

خلال ثمان وأربعين ساعة، أي نهاية أسبوع كاملة، بقي مئات الآلاف من الناس مسمَّرين في منازلهم أمام أجهزة استقبالهم التلفزيونية، يشاهدون مراراً وتكراراً صور العملية، التي تقطعها لقاءات مع بطل الساعة، الرجل العملاق، ذي اللحية المتلألئة والحاجبين المشعثين.

لم يكن الـ فيتسيا، رجلاً عامّياً مُلهَماً، ومتعطشاً للضجيج، كما يطيب للناس أن يصفوه اليوم. ولم تكن مجموع الحجج التي بسطها، خرقاء. كان يقول، لنأخذ حالة بنت ولدت للتو في قرية سودانية. فإذا أخذنا بعين الاعتبار وفيات الأطفال والأخطار المرتبطة في المستقبل بعمليات وضعها، يكون معدل حياتها حوالىأربعين عاماً؛ وفي أوروبا، ستعيش هذه البنت ذاتُها ثمانين عاماً. فمن هو ذلك الذي يستطيع أن يقرر بكل برود أن يحرمها من نصف عمرها؟

سؤال: ألا يجدر بالأحرى مساعدة هذه الطفلة حيث هي، وجعل عيشها بين جماعتها ممكناً؟ جواب فيتسيا: «هذا هو بالضبط مايرددونه على مسامعنا منذ نصف قرن. ولكن لم يفعل أحد شيئاً. إذا كنت لا أرغب أن أرى هذه الطفلة تموت خلال ستة أشهر، بسبب وباء، أومصابة بعلّةٍ ما، أو أن تقضي

في اللحظة التي تضع فيها طفلها الأول، فليس بوسعي أن أنتظر إلى أن تُحل جميع مشاكل الكوكب. ليس الأمر عبارة عن دراسة مصير كائن غير محدد، أو نموذج غير ذي شأن، يعالجه كومبيوتر تكنوقراطي. الأمر هو أن تذهب إلى البلدان التي يتفشى فيها البؤس، تلتقي بطفلة، تنظر في عينيها، ثم تتساءل: هذه الطفلة بالذات، هل سأنقذها أم سأدعها تموت؟ الأمر بهذه البساطة. حين أعلم أن آلافاً وآلافاً من العائلات في البلدان الغنية تنتظر هذه الطفلة، وأنها مستعدة أن تستقبلها، وتغدق عليها الحب، وتؤمّن لها التعليم الذي سيتيح لها أن تتكفل بنفسها ككائن إنساني يتمتع بجميع المزايا والحقوق التي يتمتع بها البشر، وأن تعيش حياة كريمة، حياة مديدة سعيدة، فهل من حقي أن أتردد؟»

سأله صحافي، ولكن إلى ماذا تسعى في النهاية، هل تريد أن تنقل جميع أطفال الجنوب إلى الشمال؟ أجاب المبشر ببسمة هازئة من التحدّي الهادىء: «الجميع، لن أستطيع أن أفعل ذلك مع الأسف، لكني إذا تمكنت من إنقاذ عشرة آلاف طفل، فلن تكون حياتي الخاصة، آنذاك، عديمة الجدوى.»

لم يبدُ لي في هذا الكلام أي شيء يستوجب اللوم، أو أي شيء معيب. وإذا لم تكن دوافع العملية على ذلك القدر الذي كان يدَّعيه من النُّبل دائماً، فما أزال، حتى اليوم، ورغم كل ماحدث، غير مقتنع بأن ذلك الرجل كان شخصاً قذراً. مما لاشك فيه أن انزلاقاً هائلاً حدث، يتحمَّل مسؤوليته. إنما مع تباعد الزمن، يبدو الـ فيتسيا، فقط، كشخص كَشَفَ بصخبٍ عن فسادٍ لم يساهم فيه كثيراً.

إن أخطأ، فذلك يعود، فيما يبدو لي، إلى ضخامة

مشروعه التي تصل إلى حد المغالاة، بالدرجة الأولى، وإلى الرعونات المذهلة المرتبطة بهذه المغالاة. وهكذا، فإنه نتيجة إصراره على القيام بعملية عملاقة تستطيع أن تثير خيال الجمهور، وتغري الصحافة، رأى من العبث أن يسعى بشكل مسبق لإيجاد أسرة تستقبل كل طفل، مقتنعاً أن هذه الأسر متوافرة بأعداد لاتحصى. لذا، استَقْدَمَ في طائرات عملاقة، إلى باريس ولندن وبرلين وفرانكفورت، وإلى كوبنهاغن وأمستردام، إذا لم تَخُنِّي ذاكرتي، دفعةً أولى من ألفي رضيع للـ «تسويق» ـ هذه هي أول كلمة ترد إلى ذهني ـ فأوكل أمره من جديد للضوضاء الإعلامية من أجل اجتذاب عائلات تأخذ الأطفال.

ولكي يبدد مخاوف الأشخاص الذين يحتمل أن يصيروا أهالٍ بالتبني، فقد أخضَعَ الأطفالَ لفحوصات طبية شديدة الدقة، ولم يَستَبقِ سوى الأسلم منهم. ولكي لايتبادر لأحد أدنى شك بهذا الخصوص، طبع ملصقات يبدو فيها وهو يحمل رضيعاً فوق ذراعه اليسار، في الوقت الذي يلوح فيه بيده اليمنى بشهادة طبية موقعة حسب الأصول. ارتدى للمناسبة مريولاً خاصاً بالمشافي، قطعاً لكي يعطي مظهر الحرص على الصحة، إلا أن هذه اللوحة كانت تُذكِّر، إلى حد يدعو للحنق، بإعلانات وُزِّعت قبل بضع أسابيع ، واحتلت مساحة كبيرة، لمدح جناح النقانق الذي يملكه.

ولَّدت تلك الصورةُ أولَ انطباع سلبي، سوف تتلوه انطباعات كثيرة أخرى. سجَّلت أقنية التلفزيون التي كانت تغطي الحدث بشكل مستمر، معدلاً لاسابق له من المتابعة، لكن الـ فيتسيا، الذي كان يجد نفسه كل ساعة في بث مباشر يتلقى

وابلاً من الأسئلة، والذي أنهكته رحلته، أفلتت منه، شيئاً فشيئاً بعض الجمل التعيسة. بل إنها كانت جملاً مفجعة! هكذا، أقر بأن الأطفال الذين كان يظهر عليهم أدنى مرض، أدنى دلالة على وجود شيء غير طبيعي، كان يتم استبعادهم. « إذن، لفت أحدهم نظره، بدلاً من أن تهتم بأولئك الذين تستوجب حالتهم أكبر قدر من العناية والرعاية، آثرت الذين هم في حال جيدة، باعتبار أن إيجاد مكان لهم أكثر سهولة.» لم تكن تفسيراته مقنعة كثيراً.

جواباً على سؤال آخر، سمعوه يوضح بأنه قرر تقسيم الأطفال إلى ست فئات، حسب تدرجات الألوان، «لكي يسهل على الأهالي الاختيار الأكثر توافقاً مع جوّهم العائلي.»، وأنه قد يقبل بإنقاص السعر للذين يوافقون على تبني طفل ينتمي إلى عرق مختلف عن عرقهم، دون أن يتخلى عن مبدأ «المساهمة المالية» لكل طفل يتم تبنيه. كانت تفوح من هذا رائحة «سعر الشراء» ورائحة أطفال أجريت عليهم تنزيلات «رخصة» لم أكن الوحيد الذي وجدها تدعو للغثيان.

بدأت المحطات التجارية تتلقى مكالمات استنكار من مشاهدين حانقين، بل مهدِّدين. ثم اندلع أول حادث حين خطرت للمبشر، وهو يمدح المزايا العديدة لترحيل الأطفال نحو الشمال، الفكرة السيئة التي جعلته يقول إنه حرص أن يجمع عدداً كبيراً من الرضع من الأوساط الإسلامية، لاسيما من مصر، وتركيا، والصومال، والسودان، «لإنقاذهم، وخاصة البنات منهم، من المصير المؤسف الذي قد ينتهون إليه في وسطهم الأصلي، وإتاحة الفرصة لهم للاندماج في محيط ديني وثقافي أفضل.» نشرت جمعيات إسلامية مختلفة

بيانات احتجاج، وسرعان ما بدأت تجمهرات صاخبة بالتشكل، بطريقة بادية العفوية، في مختلف الأحياء التي تقطنها نسبة عالية من السكان المهاجرين، في فرنسا، في هولندة، في بلجيكا، في إنجلترا، وفي ألمانيا.

في ليل السبت إلى الأحد، وبينما كانت عملية «السفينة السماوية» قد بدأت منذ حوالىأربع وعشرين ساعة، وكان ينتظر وصول موجة جديدة من الناقلات الجوية الضخمة، اندلعت اضطرابات. ذكّر اتساعها بتلك التي حدثت في حي واتز وغيره من الأحياء السوداء في المدن الأمريكية، في ستينات القرن الأخير؛ إلا أن مسرحها هذه المرة كان أوروبا بشكل رئيسي. لاشك في أن الغيتوات السوداء كان يأكلها عُنفها الداخلي منذ زمن طويل. وهذه واحدة من التفسيرات التي قدمت آنذاك... الوضع هو أن الحوادث العارضة الوحيدة التي سُجلت في الولايات المتحدة، وقعت في الأحياء الأسبانية، وأنها لم تبلغ أبداً الضخامة والهيجان اللذين أمكَنَ ملاحظتهما في القارة العجوز.

من الطبيعي جداً أن التوترات تراكمت منذ عقود، وأن الحذر بين «أهل البلد» وجماعات المهاجرين، كان أمراً مفروغاً منه تعلَّمَ الجميع التعايش معه. ولكن باستثناء بعض فورات الغضب المحصورة والعابرة، فقد بقي العنف تهديداً افتراضياً. وقد سببت قضية «السفينة السماوية»، كونها جاءت بعد الخوف الكبير من نقص السكان، حالة من الهيجان. خلال ما يقرب الأسبوع، اتّسع الغضب الشديد، ممتداً إلى عشرات المدن الأوروبية، ومتحولاً إلى فِتَنٍ، لاشك أنها كانت بدون إشراف أو تخطيط، إلا أنها تقيدت على نحو يدعو للعجب،

بنوع من النموذج المشترك من أفعال النهب والتخريب، أكثر مما هي أفعال دامية؛ مستهدفةً دوماً الأهداف ذاتها، أي كل ما يمثل إما الدولة ـ لافتات إشارات الطرق، سيارات شرطة، حجرات الهواتف العمومية، باصات، مباني رسمية ـ؛ أو الثراء ـ متاجر، مصارف، سيارات كبيرة ـ أو ما يمثل النظام الطبي أيضاً.

نسبياً، وقع عدد قليل من القتلى، إذا ضَمَّنَّا جميع البلدان، يكون الحاصل حوالى ستين قتيلاً ككل، إلا أن عدد الجرحى الذي أحصي، لم يكن أقل من ثمانية آلاف جريح؛ وبطبيعة الحال، خسائر مادية بالمليارات. أصيبت المدن الأوروبية، طيلة أسبوع، بالشلل، كما لو أن إضراباً عاماً قد أعلن فيها، فالشوارع تظل معتمة وخالية، وكثيراً ماتكون مغطاة بما تبقى من أشياء محطمة...

وحتى بعد أن مضى وقت على انقضاء الأسبوع، ظلَّ الحذر مقيماً، كما لو أن مادة سامة امتزجت زمناً طويلاً بالهواء الذي يتنفسه كل فرد.

2

احتاج الأمر إذن إلى هذه التمثيلية الهزلية العملاقة، وإلى ذلك الخوف الذي شمل القارة، لكي تتزعزع الأنانية المقدسة، وتمتد فكرة الإنقاذ أخيراً إلى كل أرض البشر.

طالبت «شبكة الحكماء» في تصريح أردناه ضاجاً وفخماً، بتنظيم قمة عالمية، تُعقد خلال العام، حول مشاكل السكان. كانت الفكرة قد نضجت، وظهر الترحيب فورياً وحماسياً. وأعلن عدة رؤساء دول أو رؤساء وزراء أنهم قد يرأسون وفود بلدانهم بأنفسهم.

بدا مقر الأمم المتحدة في نيويورك في الحال الإطار النموذجي لإعطاء هذا الحدث، الصدى المطلوب. تقرر أن تدعى إليه، إلى جانب الدول، بعض المنظمات «الناشطة في مجال التضامن الإنساني»، وكذلك عدد صغير من الأشخاص «الذين قد يفيدون المشاركين بمعارفهم وبحكمتهم».

بدت هذه الكلمات كما لو أنها فُصِّلت لجعل وجه إمانويل لييف وصوته يحلِّقان وسط هذه الجمعية، كان يجدر بي بالأحرى أن أقول، فوقها.

مرة أخرى، إلا أنها آخر مرة، كان إمانويل لييف مدهشاً. بقامته الهزيلة، ورأسه الذي حلم به رسام كاريكاتير

إلهي، صعد إلى المنصة بخطى فلاح يتسلق كومة من الأحجار. أجال نظرة طير حط عالياً، بين هذه الشخصيات المئة من ملوك، ورؤساء، ووزراء وغيرهم من أصحاب المعالي، بلامبالاة إنما دون احترام شديد. توقعتُ تقريباً أن يقول «أبنائي». كان بوسعه أن يفعل؛ كان في الثامنة والثمانين، العمر الذي يؤهله أن يكون والدهم جميعاً. إلا أنه اختار أن يبدأ بالشكل التالي:

ـ هل سيحقد علي أحد إن لم أبدأ بالعبارات المألوفة؟ لاأحفظها، وقد تأخر الوقت جداً لكي أحفظها. لذا أكتفي أن أتوجه إليكم بالصفة التي ينبغي أن يشعر كل منكم أنها تشرِّفه: أيها الرجال أصحاب الإرادة الطيبة!

تكلم إمانويل تسع دقائق، دون العودة إلى ملاحظات مدونة، ولكن دون تلعثم، أمام مشاهدين صامتين حتى الخشوع. نقلت مداخلته مباشرة إلى جميع بلدان العالم تقريباً. وتبدو لي الآن مع مرور الوقت، نموذجاً لوضوح الرؤيا، دون أن يجعلها ذلك خالية من الأمل.

ـ نحن كثيرون على هذه الأرض، قال. وسيقول البعض كثيرون جداً. أنا لا أعتقد ذلك. لا أعتقد أيضاً أنه يجب أن يتضاعف عددنا إلى ما لانهاية؛ بل إني أجد أن «انتقام المهود» الذي تلجأ إليه بعض الشعوب الخاضعة كوسيلة للتمرد على الأقليات المسيطرة، يدعو للرثاء.

»كثيرون، نعم، ولا شك أننا تكاثرنا بسرعة كبيرة جداً. ومع ذلك، فإنه إذا غرق الثمانية مليار نسمة من أمثالنا في

البحر الأبيض المتوسط، هل تعرفون كم سيرتفع مستوى المياه؟ عُشر ميلليمتر! نعم، يا أخوتي، ياأخوتي الصغار الأعزاء، لا نشكل، جميعنا، رجال و نساء القارات الست، سوى طبقة رقيقة، طبقة زهيدة من اللحم ومن الضَّمير فوق سطح العالم.

››هل يتكلم البعض عن الازدحام؟ إذا كانت الأرض مزدحمة، فهي مزدحمة بأطماعنا، و أنانياتنا، و استثناءاتنا، و «مجالاتنا الحيوية» المزعومة، و «مناطق نفوذنا» أو «مناطق أمننا»، وأيضاً استقلالياتنا التافهة.

››أثناء القرن الماضي، انقسم الكوكب إلى جنوب ينتقد بمرارة وشمال يحنق. استسلم البعض لأن يروا في ذلك حقيقةً تافهةً إما ثقافيةً أو استراتيجية. الكره لايبقى حقيقة تافهة، إلى ما لانهاية. يوماً ما، ينطلق من عقاله، تحت ذريعة ما، ونكتشف أنه منذ مئة عام، ألف عام، ألفي عام، لم يُنسَ أي شيء، أية صفعة، وأي خوف. حين يتعلق الأمر بالكره، فإن الذاكرة تَعبر الزمن، وتتغذى بكل شيء، وحتى بالحب في بعض الأحيان.

››قليلة هي النظريات، التي عرفت كيف تجتثُّ الكره، عبْر التاريخ. اكتفى معظمها بتحويل موضوعه من شيء إلى شيء آخر. إلى فاقد الإيمان، إلى الغريب، إلى المارق، السيد، العبد، الأب. بطبيعة الحال، لايسمى الكرهُ كرهاً إلا حين نراه عند الآخرين؛ أما الكره الذي فينا، فإنه يسمى بألف اسم آخر.

››حَمَلَ الكرهُ اليوم اسم مادة ضارة، هي ثمرة أبحاث

مشروعة، ثمرة الأبحاث الوراثية ذاتها التي تسمح لنا أن نحارب التشوهات الخلقية أو الأورام، ثمرة التلاعبات الجينية ذاتها التي تسمح لنا أن نحسِّن ونضاعف مواردنا الغذائية. لكنها ثمرة فاسدة، كشفت في كل فرد أسوأ غرائزه.

»منذ آلاف السنين، ناح مليارات من البشر عند ولادة بنت، وابتهجوا عند ولادة صبي. وفجأة جاء شخص مُغوٍ ليقول لهم: انظروا، أمَلُكم يمكن أن يصبح حقيقة. منذ آلاف السنين، هناك شعوب، وإثنيّات، وأعراق، وقبائل تحلم بإبادة مرتكِبي الخطأ الذي لايُغتفر باختلافهم عن الآخرين. وهاهو مُغوٍ يقول لهم: تعالوا، تستطيعون القضاء عليهم، دون أن يرى أو يعرف أحد شيئاً.

»يحدث لي ـ أنا واثق أنكم ستغفرون هذيانات رجل عجوز ـ أن أفكر أن الفردوس الأرضي التي نُوِّه عنها في الكتب المقدسة، ليست أسطورة من الزمن القديم بل نبوءة، رؤيا للمستقبل. منذ بضع عقود، بدا الإنسان أنه بصدد بناء هذه الفردوس. لم يسبق له قط، أن عرف إلى هذا الحد كيف يسيطر على المادة، والحياة، وطاقات الطبيعة، وَعَدَ نفسه أن يتغلب على المرض؛ وربما يتغلب يوماً ما على الشيخوخة، والموت. ليست كلماتي كلمات شخص فَقَدَ إيمانه؛ إذا نجح العلم في إخفاء إله «كيف؟»، فهذا لكي يعمل بصورة أفضل على إظهار إله «لماذا؟». هذا الإله الذي لن يختفي أبداً. أعتقد أنه قادر أن يعطي الإنسان جميع القدرات، حتى قدرة السيطرة على الحياة والموت، اللذين ليسا في نهاية المطاف سوى ظاهرتين طبيعيتين. نعم، أعتقد أن الله قادر على إشراكنا،

نحن، مخلوقاته، في خَلْقه. حين أتلاعب بجينات الأجاص، فإن لدي قناعة عميقة بأن الله منحني القدرة على ذلك والحق بالقيام به. إلا أن هناك ثماراً محرمة. ليست الجنس أو المعرفة، مثلما فكر أجدادنا بسذاجة؛ الثمار المحرمة هي أكثر تعقيداً، أصعب على التطويق، وحكمتنا هي التي ستدلُّنا عليها أكثر مما تفعل معتقداتنا.

››مهما بلغتُ من الشيب، ومهما زعمت أني عالِم وحكيم، أعترف بأنني أجهل أين تقع على وجه الدقة، الحدود التي لايجوز تجاوزها. إنها تقترب قليلاً، بلا شك من الذّرّة، وكذلك من بعض التلاعبات بدماغنا أو بِمُوَرِّثاتنا. ما أستطيع استبيانه، إذا جاز لي القول، بصورة أكثر ثقةً، هي اللحظات التي تُعَرِّض فيها الإنسانيةُ نفسَها لأخطار مميتة مع نفسها، سلامتها، هويتها، وبقائها. هي اللحظات التي يضع فيها العلم الأكثر نبلاً نفسَهُ في خدمة الأغراض الأكثر خساسة.

››وقعت أحداث تثير القلق؛ وهي ليست شيئاً بالقياس إلى ماسيقع. أتكلم وأنا أزن كل كلمة بعناية: هناك مصائب معينة ماعاد تجنُّبُها ممكناً. دعونا نعيها جيداً حتى ننجو من الأسوأ.

››يوجد، عبر العالم، آلاف المدن، وملايين القرى، التي لم يتوقف عدد البنات فيها عن التراجع؛ يرى البعض أن الظاهرة مستمرة منذ حوالى عشرين عاماً. لا أنوي أن أحدثكم عن جميع البنات اللواتي مَنَعَتهُنَّ، عمليةُ تمييزٍ تدعو للاحتقار، من المجيء إلى العالم. لم تعد المسألة هنا. سأقول لكم بشكل فج، مايسبب لي الغم، ولكن هذا هو الشكل الذي ستطرح

المشكلة نفسها من خلاله: أفكر بتلك الحشود من الرجال الذين سيطوفون لمدة سنين بحثاً عن رفيقات غير موجودات؛ أفكر بتلك الحشود المسعورة التي ستتشكل وتتضخم وتهيج، وقد أصابها الحرمان بلَوْثة ـ ليس الحرمان الجنسي فقط، فهم محرومون بالقدر ذاته من أية فرصة لعيش حياة طبيعية، لبناء أسرة، وبيت، ومستقبل. هل بوسعكم أن تتخيلوا فقط، مخزون الحقد والعنف لدى هذه الكائنات، التي لن يستطيع شيء أن يرضيها أو يهدئها؟ أيَّة مؤسسات ستصمد؟ وأية قوانين؟ وأي نظام؟ وأية قيم؟

»نعم، حصلت، في كل مكان تقريباً، انفجارات عنف. إلا أنَّه لم يكن ذلك هو عنف المسعورين بعد. كان عنفَ مخلوقاتٍ قلقة، لم تعِشْ الحرمان بنفسها بعد؛ مخلوقات، كانت لها أُسَر وفرحت بأن لديها أبناء، وَرَثة. هؤلاء يحتجُّون ويثورون لأنهم قلقون على مستقبل جماعاتهم، إلا أن قلقهم يبقى معتدلاً، لأن المأساة لم تقع عليهم بالذات، لأنهم يثورون دون يقين، ضد شرٍّ لم تعرفه البشرية سابقاً قط، ويبقى بالتالي غامضاً، وافتراضياً . غداً ستأتي أجيال الكارثة، أجيال من الرجال بلا نساء، أجيال بُتِرَتْ عن كل مستقبل، أجيال الحقد غير القابل للترويض.

»بين يدي تقرير سري عن مدينة كبرى في الشرق الأوسط. أُحصِيَ فيها اليوم، مليون ونصف من الصِّبية تحت سن السابعة عشرة، وأقل من ثلاث آلاف بنت. لاأجرؤ حتى أن أتخيل ما ستكون عليه شوارع هذه المدينة خلال عام، خلال عامين، عشرة أعوام، عشرين عاماً... مهما نظرت بعيداً، لاأرى سوى العنف والخَبَل والفوضى.

»بسبب حسابات دنيئةٍ، وقحة، بسبب اللقاء اللعين بين التقاليد البالية وعلم مُفسَد، سوف يجتاز الكوكب الذي هو وطننا، وسوف تجتاز الإنسانية التي هي أمَّتنا، أخطر منطقة غليان في التاريخ، ودون أن يكون هناك عذر يمكن إحالته على القدر أو بليَّة من الله.

»هل مازال باستطاعتنا أن نمنعها؟ نستطيع فقط أن نحاول تخفيف الآثار. إذا وضعت الوسائل كلّها قيد الاستخدام، إذا تعبَّأت جميع الأمم في الشمال والجنوب، ناسيةً أحقادها، متجاوزةً الفروق فيما بينها، مثلما كانت ستتعبَّأ في حرب؛ إذا بدأنا منذ الشهر القادم، بإعادة التوازن إلى الولادات، إذا تخلصنا من الأحكام المسبقة المدمِّرة، إذا وجَّهنا جميع الطاقات المكبوتة نحو عمل جبار، عظيم، خلاق، مبهج، مُهذَّب؛ إذا تمكَّنَّا، دون إسراف في العنف، من المحافظة على قدرٍ، مهما كان ضئيلاً، من الانسجام والنظام في التبادل بين القارات، عندئذٍ قد لايغرق هذا المركب الذي يحملنا. ستهزه العاصفة، سيتضرَّر، ولكن ربما نستطيع تلافي الغرق.

تقدم الخطيب خطوة كما لو أنه أراد مغادرة المنصة، ثم عاد، متأملاً، مرتبكاً، مترددا، ليكرر هذه الكلمة فقط: «ربما.»

حين نزل الدرجات، لم يكن رد الفعل متوقعاً، كان خارقاً، لم يسبق له مثيل أبداً في تاريخ المنظمة، على حد علمي. بدأ المندوبون، الذين أصابهم الذهول لثوانٍ، بالنهوض، واحداً إثر آخر، ولكن بدون هتاف، ودون

تصفيق. احترام صامت، احترام مُضنَى. فقط بعد أن عاد لييف إلى مكانه، بعد أن جلس، بعد أن دعا جيرانه المباشرين للجلوس، عاد الحضور للجلوس ثانية في مقاعدهم، التي أصبحت فجأةً غير مريحة، فجأةً مرتَجَّة.

أغمض إمانويل عينيه، لحظة طويلة، كما لو أنه أراد أن يُفلِت من انتباه العالم. كان جاره إلى اليسار أمريكي من أعضاء الشبكة، هو البروفسور جيم كريستوبال؛ وجارته إلى اليمين لم تكن سوى كلارانس. حين استؤنفت الجلسة، كيفما اتفق، مالت نحو «العجوز» لتهمس في أذنه:

ـ إنه المجد!

ـ بالفعل، المجد. العجز والمجد.

R

لم أذهب إلى نيويورك بنفسي. كانت الشبكة ممثلة بإسهاب من قِبَل لييف، ومن قِبَل بعض الأعضاء المرموقين من مختلف الجنسيات؛ وكانت كلارانس، المرفَقة بي في أمانة السر، أكثر نفعاً مني بكثير في هذه الرحلة، حتى لو لم يكن ذلك إلا بسبب علاقاتها مع الصحافة. لذا تابعتُ المؤتمر من بعيد، بدا لي أن أداء إمانويل يفي بالمراد، أعني أنه كان مأساوياً بما يكفي من أجل إثارة الهزة التي كانت تفرض نفسها. كان موقف المجلس، مؤثراً بشكلٍ خاص، حتى عند مشاهدته في التلفزيون، فقد كان لدى المعلّق من الذوق السليم ومن الاستجابة السليمة ماجعله يمتثل لصمت ممثلي الوفود. كان الوقت ليلاً في باريس، وكانت بياتريس الساهرة بجانبي، مشدودة إلي.

أحتفظ بذكرى متأثرة من تلك الليلة. أولاً لأن ماحدث كان انتصاراً بيِّناً لكل ما قاتَلْنا من أجله، كلارانس، أندريه، إمانويل، وأنا نفسي منذ سنين. ثم لأنني أشهد الحدث بصحبة الكائن الأعز. لابد أن قول هذا بهذه الطريقة، يبدو له وقعٌ ساذج، إلا أنني لم يسبق أن أمضيت ليلة بيضاء وجهاً لوجه مع ابنتي قط. طبعاً كان هناك، عند ولادتها، وفي الأشهر التي تلت الولادة، ليالي عديدة من الأرق، متعطشة للنوم وضاجة

بالبكاء الصارخ. تلك، لا أحسبها، إنها شيء آخر، فلم تكن ابنتي أكثر من حلقوم، يرقة؛ أمّا هذه المرة فإنها امرأة حقيقية صغيرة، فتاة حقيقية وجميلة في الرابعة عشرة من عمرها. كانت الساعة هي الثالثة صباحاً، وكنا قد تقاسمنا للتوّ الخشية ذاتها، والحماسة ذاتها، وأيضاً، في نهاية الأمر، قليلاً من الشمبانيا.

قررت أن أنتظر الساعة السادسة صباحاً ـ منتصف الليل في نيويورك ـ قبل أن أتصل بكلارانس في فندقها. في ساعات الانتظار، رويت لبياتريس للمرة الأولى بشكل مترابط ومتسلسل تاريخياً، الأحداث التي ستكون موضوع هذا الكتاب. بل إنني وأنا أجمع ذكرياتي، في تلك الليلة، وأحاول أن أنظمها، وأجد لها، إذا صح القول، «منطقاً للعرض»، خطرت لي، للمرة الأولى، الفكرة التي كانت ماتزال غائمة، وماتزال شاردة وغيرمكترثة، فكرة وضع هذه الأشياء الدخيلة على حياتي، في صيغة مكتوبة.

كان مشروعي الأول هو أن أخاطب بياتريس، ربما من خلال رسائل متتابعة، أو من خلال طريقة أخرى مجرَّبة، لكي أحكي لها عن القرن الذي انطفأ ساعة مولدها، فوق أية مقاعد انزلق. وربما أرسم الملامح الأولى للقرن الذي سيكون قرنها.

يعرف المتكلمون والمؤلفون أحياناً تلك اللحظة التي تُقلِع فيها الجملة، كما لو أنك تنتقل من مرحلة من اليقظة إلى مرحلة أخرى. تتحمس وتغدو أجمل. تتوقف عن الكلام، تترك العنان لنفسك وتستمع لها وهي تتكلم. أنت لم تعد تكتب، بل تكتفي بمدّ يدك بالغذاء حتى لاتخذلك اليد المطية التي لاتتأثر بالرحلة التي تدفعها لإنجازها.

في تلك الليلة البيضاء بصحبة بياتريس، كنتُ ذلك المتكلم المُلهَم، لمدة ساعتين طويلتين؛ لو أن آلة تسجيل شُغِّلت، لكان كتابي قد كُتِب، حتى هذا السطر، بنبرة أقل ترددا، وبصرامةٍ إزاء الأحداث، أكثر تطابقاً مع طبيعتي من تلك التي أسعى إليها بمشقةٍ، في السن الذي أنا فيه اليوم.

لم يعد وجه بياتريس يتلفت، انشدَّ نحوي بوفاء رهيف يشبه وفاء زهرة عباد شمس. حين رأيتها بهذه الصورة، لم أعد أجرؤ أن أتوقف، أو أخرج عن الموضوع، أو أن أضعف.

حين وصلت قصتي إلى اجتماع نيويورك، أشرت بحركة مسرحية إلى الجهاز الذي كان قد انطفأ للتو، كطريقة للقول على سبيل الخاتمة: «وبهذا الشكل...»

وجهت بياتريس نظرها بانقياد نحو الشاشة التي أشرت إليها، ولكنها أعادته في الحال نحوي.

ـ أتعرف، حين سألتقي بالرجل الذي سأعيش معه حياتي، أتمنى أن يكون شبيهاً بك.

كنت سأجيب، بالابتسامة التي تتصف بأكبر قدر من السخرية الرقيقة، بأن جميع الفتيات قلن ذلك لآبائهن. لكنني مع أول مقطع ألفظه، انبجست دمعة غادرة، وراحت شفتاي وخداي ترتجفان.

أخذت بياتريس التي اتكأت على الكنبة بركبتيها تمسح دموعي بطرف كمها، وهي أكثر هزلاً من عادتها.

ـ أليس من المخجل أن أباً كبيراً مثلك، يبكي مثل بنت صغيرة؟

ـ أليس من المخجل، أن تقول بنت صغيرة مثل هذه الكلمات لأب عجوز؟

أحاطت عنقي بذراعيها، مثلما كانت تفعل وهي بنت صغيرة عندما أحملها إلى مربيتها، أكليل مازال بالقدر ذاته من السمرة، وليس أشد ثقلاً بكثير، دافئاً، ندياً، ومعطراً بعرق الأطفال الطيب.

أما أولئك الذين يرون في كل شيء زنى محارم، فليتفضلوا ويفسِّروا كما يحلو لهم: بين ذراعي هذه الطفلة التي هي من لحمي، كنت أتمنى أن أبقى هكذا حتى نهاية الزمن، ثقلها يسحق أضلاعي، وشعرها ينتثر فوق عيني، لأيّ سبب سأبعده؟ ماهو الشيء الآخر الذي كنت سأرغب أن أراه؟

خرسنا الآن أنا وهي، أصبح تنفُّسُها أبطأ وارتخت يداها اللتان تعانقاني. بدأت أتحرك بأبطأ مايمكن حتى لاأوقظها، فوضعت ذراعاً أسفل ظهرها، وأسفل ركبتيها، ثم حملتها إلى سريرها، حيث وضعتها.

بينما كنت أنهض ثانية، شعرت بفقرة ظهرية تصرّ. هيكل عظمي خمسيني لعين. مع ذلك، حين يحدث لي حتى هذه الأيام، خصوصاً هذه الأيام، أن أوقظ الألم ذاته، إثر فعل متهور ما، لا يخطر ببالي أن أشتكي. ذلك لأني أفكر ثانية بتلك الليلة البيضاء، بوجه بياتريس اللطيف، بأنفاسها وهي نائمة، بذلك الحمل العذب والثقيل الذي وضعته، فيصبح ألمي، وقد واسَتْهُ الذكرى، ملاطَفَةً، مناكَدةً، عقصة رقيقة مُحِبة.

لم أستطع أن ألتقط كلارانس إلا في الصباح الباكر، وبعد

ثلاث محاولات للاتصال. كانت قد عادت للتو من عشاء - اجتماع مخصص لتحرير النص النهائي للمؤتمر. كانت منتصرة، إلا أنها مُنهَكَة. مع ذلك كان لديها القوة لتقرأ لي النقاط الرئيسية التي كانت أحياناً تعيد استخدام تحذيرات إمانويل لبيف حرفياً، وتوصي المشاركين، بلهجة حاسمة مهذبة، بسلسلة من الإجراءات: منع صناعة وتوزيع «المادة» موضع الاتهام، حصراً وإجمالاً، وتدمير المخزون القائم. تَبنّي مجموعة قوانين موحدة تتعلق بتجارة الأطفال. تخصيص اعتماد مالي سخي لمساعدة البلدان العاجزة عن مجابهة الوضع بوسائلها الخاصة. وعلى رأس كل ذلك، حملة واسعة عالمية، ضاجّة، تهدف لشرح هيجان الأحقاد.

قلت بما فيه الكفاية في الصفحات السابقة، إلا أنه يتعين علي أن ألح مجدداً وأقول، إلى أي حد كانت هذه المهمة الأخيرة هائلة. هنا لم يعد الموضوع ببساطة، موضوع «المادة»، ولا كل تلك الحوادث التي لمحتُ إليها في هذا الكتاب. كانت المشكلة أكثر بكثير من أن تكون «غير قابلة للقياس»، حتى هذه العبارة الرنانة، هي هنا تورية مسطحة: كان الموضوع عبارة عن مجرَّد تهدئة كل الأحقاد التي أثارت، عبر آلاف السنين، الإنسان ضد الإنسان، لا أكثر ولا أقل من خلال حملة إعلامية. ألا يكفي قول الأشياء بهذه الطريقة لكشف العبثية الملائكية لمهمة مشابهة؟ بأية معجزة كان سيحدث ذلك الوعي؟ ناقشت الأمر مع كلارانس ذلك الصباح، وعدة مرات أخرى أيضاً في الأسابيع التي تلت.

كانت تزعم، الأمر الذي كان يبدو منطقياً بشكل ما، أن البشر كانوا خائفين، وأنهم كانوا يشعرون، أكثر من أي وقت

مضى، إلى أي حد هم مهدَّدون في بقائهم، وأن موقف جميع الأمم في نيويورك، كان يبيِّن جيداً أن حدوث صحوة أمر ممكن، أو أنه على أية حال لم يكن مستبعداً. قالت موضحةً الفرق البسيط: لم يكن المراد بالطبع إزالة الأحقاد، بل تهدئة ثورتها الحالية، التي سببتها «المادة». ألم تحدث في الماضي صحوة مشابهة أمام خطر الحرب النووية، الأمر الذي سمح فعلياً، بتجنب الكارثة؟ أضافت، لدينا اليوم فضلاً عن ذلك، وسائل اتصال وإقناع لم يوجد لها مثيل في السابق؛ إذا استُخدمت في كل مكان وفي اللحظة ذاتها، بعزم أكيد، وبشكل غير محدود، فإن المعجزة قد تتحقق.

كانت تَبسِط حججَها بشغف، وحدَّة، وضراوة من يقاتل من أجل بقائه وبقاء ذويه.

ـ باعتبار أنه لم تنجح أية نظرية في إزالة الأحقاد، فربما يكون الخوف أفضل مستشار! ربما بقيت لنا اليوم هذه الفرصة الوحيدة فقط!

ـ ها أنت تتكلمين مثل إمانويل ليبف!

بدا كأن جملتي، مع أنها غير مؤذية، قد بلبلت رفيقتي. بقيت بضع دقائق صامتة ولاهثة، قبل أن تقول بصوتٍ بدا فجأةً مطفأً:

ـ المأساة هي أن إمانويل يتكلم بين الناس مثلي، إلا أنه يفكر مثلك.

شاعراً بقليل من الذنب لأنني حطمت بهذا الشكل، وعن بُعد، حماس كلارانس المؤثر، حاولت أن أصلح الأمور:

ـ تعرفين، إمانويل وأندريه ڤالوريس متشابهان. فقد

واكبا الحقد عن كثب إلى درجة تُمَكِّنهما الآن من أن يستشعرا بوجوده من مسافة بعيدة جداً. هنا تكمن قيمتهما، باستثناء أنهما يميلان للاعتقاد بأنه ينهض بعد الموت، وهو على الأرجح لايقهر. أنا نفسي وقعت تحت تأثير أندريه بشكل فظيع. لو أنني أطعتُ نفسي، أو استسلمت لأكثر إغراءاتي حقيقيةً، لانزويت بنفسي في بيتي ورحت ألعن العالم، وأتنبأ بحدوث طوفانات، وحين تحدث، أكون موزعاً بين ابتهاجي لأنني كنت على حق، وبين الخجل من كوني ابتهجت بهذا الشكل. فليكن ياكلارانس، اشتعلي حماسة، قاومي، توهَّجي حيوية، لأنه حتى إذا أثبتت الأحداث شكوكي، فسوف تظلُّ شكوكي أقل نبلاً، وأقل مدعاة للإكبار من أكثر آمالك سذاجةً.

«أحبكَ» كان جوابها، من نيويورك إلى باريس. ارتدت الكلمات ذاتها، مثل رجع الصدى، من باريس باتجاه نيويورك. ثم أضفت:

ـ واعلمي أن بوسعك الاعتماد حتى النهاية على «سانشو بانسا» خاصَّتِكِ!

علي أن أعترف اليوم، أنه كان يوجد في الوعد الذي وعدت بطلتي به للتو، من الحب الأصيل، بقدر ما يوجد من ازدواجية أصيلة. لأنني إذا كنت مستعداً أن أعينَها حتى النهاية، فلم يعد ذلك بالطريقة التي قمت بها حتى الآن. كنت حريصاً أن أبقى بجوارها، لأحيطها من كل ناحية برعايتي، وأؤمِّن لها، أقول هذا دون سخرية، استراحة المحارب الطرية والمقوِّية، باختصار، كنت مستعداً أن أكون رفيقاً وأخاً وابناً وأباً، وأكثر من أي وقت مضى، حبيباً.

في هذه الأثناء، ولدت في داخلي رغبة مغرية بدأت تلح علي أكثر فأكثر: الهرب من كل نشاط عام والعودة إلى مختبري، وكتبي العلمية، وميكروسكوبي، وحشراتي العزيزة.

كنت أعلم أن الوقت غيرمناسب، وأنها قد تَعتَبِر هذا الموقف خيانة وفراراً، وربما تكون على حق. مع ذلك، قررتُ اليوم ذاته، مدفوعاً بهذا القدر الفائض من الهواجس، الذي سببته لي الليالي البيضاء، أن أتصل بمدير متحف العلوم الطبيعية الذي اقترح علي أن أذهب لزيارته.

قد يقال لي إنني تسرعت في الأمر قليلاً، طالما لم أتخذ قراراً. أوافق. ولكن يجب التصرف مع الأفكار المغرية مثلما نتصرف مع بعض الحشرات النادرة: علينا، إذا صادفناها، حتى إذا كنا نبحث عن شيء آخر أن نعطيها الوقت الكافي لأجل الإمساك بها، فَهْرَسَتِها، اصطلاح تسمية لها، هذا مع احتمال نسيانها بعد ذلك لمدة عشر سنين في أحد الأدراج.

انعطفت إذن باتجاه متحف العلوم الطبيعية، ببساطة، لكي أقول للمدير، وهو زميل منذ زمن طويل، إنني لا أستبعد العودة يوماً ما، إلى مختبري، ولكي أسمعه يقول إنه سيكون هناك دوماً مكان لي في «البيت»، حين أرغب بذلك ووفق الصيغة التي أتمناها. حددنا، إذا جاز لي القول، تاريخاً بدون تاريخ. وهذا بالضبط ماكنت أريد.

شعرت فجأةً وأنا أغادر مكتبه، بالنشوة من شدة الإثارة والغبطة؛ بدلاً من أن أجتاز الشارع الذي يقودني مباشرةً إلى بيتي، رحت أتسكع في حديقة النباتات، يداي معقودتان وراء ظهري، عيناي تنظران إلى البعيد، وأسير بخطى موقَّعة. ومع كل خطوة، كانت رغبتي تتأكد، تتثبت، تنغرس بداخلي مثل أمر

جليٌّ كُمِّمَ زمناً طويلاً. كيف استطعتُ أن أعارض طبيعتي إلى هذا الحد، وأنخرط في هذه الحياة العامة التي اعتبرتُها دوماً استبدادية وتدعو للاحتقار؟ أردت، أمام ميكروسكوبي، وكذلك أمام الحياة، أن أكون دوماً من الناس الذين يراقِبون، وليس من الناس الذين يُشَرَّحون. أي ضلال هو الذي دفعني لأقايض مكاني بمكان الحشرة؟ بأي إفراط لاحدَّ له استطعتُ أن أتبختر، وأظهر في الإعلان؟

كلما ذرعت الممرات سيراً، ازداد وقع خطاي سرعةً، وازداد غيظي، إلا أنني، فيما يتعلق بالمستقبل كنت أشعر بالمرح. ما أن تتاح لي الفرصة، سأكلم كلارانس وإمانويل بالأمر، ثم سأبدأ عملية تحولي من جديد، سأغير هيئتي، سأدع لحية مشعثة وغير متقنة تنبت لي، مشعثة كما يليق برجل علم عازم على أن يكون كذلك، وعلى ألا يكون أي شيء آخر، وغير متقنة، كما يليق برجل خمسيني. هكذا، سيمر وقت لن يعود أحدٌ قادراً على التعرف فيه عليّ، باستثناء القريبين. لم يسبق أن حطَّ نظر الآخرين عليَّ يوماً دون أن أعاني من الأمر. ليس مردُّ ذلك الخوف من الحشود. إذ أنني أتحمل، أن أكون في ساحة زاخرة بالناس ومزدحمة، إذا كنت غير معروفٍ بينهم. أما أن أدخل مثلاً إلى مطعم، يكون فيه شخص، شخص واحد يمكن أن يتعرف عَلَيَّ، فهذا بالنسبة لي معاناة لاتطاق، أخرج منها متألماً جسدياً.

قد أُسأَل، كيف استطعت إذن أن أمارس التعليم؟ سأعترف بالحيلة التي كنت ألجأ إليها من أجل الالتفاف على رُهابي: كنت أصل إلى قاعة الدرس قبل طلابي دوماً، أدخل قاعةً خالية، آخذ مكاني، أفرِد أوراقي، أركز نفسي

فوق مقعدي، بهيئة المنهمك. ماعاد أي شيء يمكن أن يزعزعني. أما حين كان يتعين علي دخول مدرج، واجتياز الممشى تحت الأنظار، وصعود المنصة، فكنت أعاني في كل خطوة، كنت مستعداً أن أعطي عشر نهارات من حياتي مقابل أن أكون في مكان آخر. وحين أجلس في مكاني، كان يلزمني وقت طويل حتى أستعيد أنفاسي وأتلفظ بفكرة مفهومة.

بكلمة واحدة، أو بألف كلمة، لستُ، ولم أكن، حيواناً اجتماعياً قط. علَّلتُ نفسي: غداً سأعود، يحميني درع لحيتي، الكائنَ الذي تطلعتُ دائماً أن أكونَهُ: راجل مولع بالتأمل، مفتون بأصغر الحيوانات، ولامبالٍ بعمقٍ بالكبيرة منها.

لم أعد أنتظر سوى فرصة؛ كانت للأسف، من أشد الفرص ألماً؛ وفاة إمانويل لييف، التي حصلت بعد عيد ميلاده التاسع والثمانين، في سكون منزله الريفي.

لم يكن «مخترعَ» شبكة الحكماء، فالفضل في ذلك يعود لڤالوريس؛ ولكنه باستثناء ذلك، كان كل شيءٍ بالنسبة لنا. هذا هو الحكيم الذي وصلت الشبكة من خلاله إلى الأسماع وإلى كل نجاح من نجاحاتها؛ إننا منذ الآن أمام منظمة ذات أبعاد بحجم الكوكب، كان وجود «العجوز» وحدُه يعطيها القوة والتلاحم؛ كان رحيله يتطلب، بشكل بديهي، مراجعة البنى وسير العمل. ولعدم توافر شخصية لها القامة ذاتها، احتاج الأمر إلى تشكيل مكتب عالمي تستطيع نوعيةُ أعضائه وشهرتُهم، ملء الفراغ الذي تركه إمانويل؛ كان أمر آخر يفرض نفسه أيضاً، هو تشكيل أمانة سر أكثر تجهيزاً، بمقر مركزي، ومكاتب في المناطق، ولجان محلية، وميزانية.

جرت عملية الاستيفاء هذه بمجموعها ـ أريد أن أفترض أنها كانت ضرورية بمجموعها ـ وسط سيرك من المساومات والمؤامرات. أعرف أن الأمور تسير بهذا الشكل في جميع المجالس الإنسانية، في أشد الرهبانيات قداسة، وفي أشد الهيئات الدينية تقديساً... إلا أني لم أكن أستطيع احتمال كل ذلك. كنت بعيداً، جسماً وروحاً. من ناحية أخرى، منذ وفاة إمانويل، أقلعت عن حلاقة ذقني. ولم يرَ أحد في ذلك، حتى كلارانس، وبياتريس، سوى تعبيرٍ بالٍ عن الحداد.

S

أمضيتُ الصيف الضبابي والعاصف الذي سبق يوم ميلاد بياتريس الخامس عشر وعودتي إلى المخبر، في أرافيس، في جبال الألب بمنطقة السافوا العليا. حيث تملك عائلتي، منذ أربعة أجيال، بقعة جبلية، فيها مستودعاً لإيواء الماشية، ومغارة في المنحدر، وكوخ راعٍ، جميعها مهجورة ولاتوجد طريق تؤدي إليها. وكانت هذه المُلكية قد هُجِرت منذ أيام أهلي لصالح بعض أماكن الاصطياف الأصلح للتنزه، لم أُمض سوى عصر يوم قصير فيها طيلة فترة طفولتي؛ كنا في الجوار وأراد والدي أن يتأكد من أن بقعة الأرض «ماتزال في مكانها» وأن المستودع مايزال قائماً؛ لاأكثر، ولم أكن أظن أنها تركت عندي أدنى ذكرى.

أي دافع مفاجيء دعاني إذن لإنهاض تلك البقعة من الأرض الباردة في وطن ضائع؟ أي صوت همس لي ذات ليلة أنني، في ذلك المكان بالذات، من بين جميع الأماكن، سأدع لحيتي تنمو، بينما كنت أبحث عن العزلة والسلام عندما يحين وقتهما، هناك في أرافيس، بين المستودع والصخور.

لم تصحبني إلى هناك أي من كلارانس أو بياتريس، مفضِّلتين كليهما، كل من ناحية، الاسترخاء اللذيذ الذي يوفره

الشاطىء، على الإزعاجات الجبلية بصحبتي؛ صحيح أنني اضطررت للنوم في سرير مرتجل في الوقت الذي راح فيه العمال الذين جنَّدتُهم على عجل، يحوِّلون المستودع إلى مايشبه البيت، ودرب الحمير إلى طريق سالكة للعربات إلى حدٍّ ما. لم أطلب منهم إجمالاً إلّا الأعمال الجوهرية، عازماً أن أتصدى بنفسي، على مر السنين، وبلمسات الهاوي، للترتيبات الحميمية.

لم أعد أحتمل كثيراً يديَّ المَدَنيَّتين جداً ووجهي الأجرد جداً. لابد أن البعض، وحتى الأكثر قرباً، ظنوا آنذاك أنني كنت أمر بأزمة من تلك الأزمات التي أَلصقَ بها المرشدون المعاصرون سلسلةً من الأسماء اليونانية؛ وإذا آمنّا بما يقولون، يكون كلُّ عمر في الحياة وكلُّ مغامرة للروح عَرَضاً مَرَضياً يتطلب العلاج والمراعاة، ويستدعي الوشوشات. كانت كلارانس تقول حين تعارفنا، بأنني كنت من الطراز القديم والبائد إلى أبعد حد. لم تكن مخطئة كثيراً، فأنا أحن إلى ذلك الزمن الذي لم أعشه إلا في الكتب، والذي كان مايزال بوسع الرجل أن يتكلم فيه عن الكآبة أو عن الاختناق دون أن يجد أحد في ذلك سبباً للشجار.

افتقدتُ زوجتي وابنتي ذلك الصيف بالطبع؛ إلا أني كنت أفتقد أكثر عشب الطرقات، ورائحة الأرض الحيوانية، والعزلة، وسلام قمم الجبال. كنت أنظر إلى الجبل الأبيض المقابل عند شروق الشمس، حين لاتكون المناظر إلا لوحات ثابتة لوِّنت بالباستيل؛ كنت أنظر إليه في الليل أيضاً، والأفضل بدون قمر، حين لايدينُ بياضُهُ إلّا لأبَديته.

في ليل أرافيس الصريح، جميع أشكال الضجيج هي حشرات ساعية لممارسة الحب، كنت أستمتع في تمييزها مثلما يستمتع آخرون في تسمية النجوم.

كنت أنام قليلاً ودون رغبة.

في أرافيس، ذلك الصيف، كانت صلتي اليومية الوحيدة مع هيجان العالم البعيد، تتمثل في جهاز راديو أبحّ، ثقيل الظل وبالٍ، كنت أشغِّلُهُ في الصباح الباكر، حين أنتظرُ العمال وأمامي قطعة جبن مغطاة بالعسل ومزينة بالآس.

كنتُ بهذه الوضعية حين علمت بمأساة نايبوتو في نهاية شهر تموز. المآسي بالنسبة للتاريخ مثل الكلمات بالنسبة للفكر، لايمكن أن نعرف قط، إن كانت تصيغُهُ أم أنها تكتفي بأن تكون مجرد انعكاس له. ولأنني كنت مرةً، بالمصادفة، شاهد عيان هزَّه مارأى، كنت أعرف أن ألف فورة غضب صغيرة اندلعت، وأنها جميعها كانت تُنبىء بالمأساة؛ إلا أن هناك للأسف عتبة للأذيَّة لاتُسمع فوقها الأصوات، ولايُحسب الموتى بَعدها. إذا تكلمتُ بمرارة عن ذلك، فهذا لأنني مازلت مقتنعاً أن الشر بقي زمناً طويلاً قابلاً للعلاج؛ إلا أنه أُهمل طالما كانت تلك القابلية موجودة.

هاأنذا أستسلم مرة أخرى للإغراء المُحنِق والذي يميل إليه العجائز، بتعنيف معاصريّ، في الوقت الذي فرضت على نفسي فيه أن ألزَم الوقائع...

لكني أعود إليها: في مساء يوم 27 تموز، اندلعت فتنة

في حي موتودي، الذي تسكنه الجماعة التي تحمل الاسم ذاته؛ كانت الاتهامات التي أطلقت حتى الوقت الحاضر روتينية وشعائرية: «تعقيم»، «تمييز»، «خِصاء»، «قتل جماعي» - لم أترك الأقواس إلّا لأشدد على تحفظي إزاء التعابير التي لافرق بينها، إلا أنها ليست سوى تحفظات متفرج محميٍّ؛ فقد كانت كل كلمة في نايبوتو ترعد مثل صدمة عنيفة.

ما استطعت أن ألاحظه في الغضب القروي عند ضفة نهر ناتافال كان مايزال خجولاً ومهذباً، ولم يكن مقصده إلا الواجهة المجدَّرة لمستوصف ريفي. كيف كان لتجربتي المختَصَرَة والزهيدة أن تضيء لي ما كان يحدث في نايبوتو؟ هل يمكن لِلَسْعَة نحلة فوق إصبعٍ حِشَرِيٍّ أن تعطي فكرة صحيحة عن هيجان خلية نحلٍ اعتُدِيَ عليها؟

يقال إن الفتنة اندلعت في ألف حارة في الوقت ذاته وأنها اتجهت نحو مركز العاصمة، مخرِّبة كل شيء، مشعلةً النار أثناء مرورها في بعض الفيلاّت والمخازن التجارية، والمصارف، والسفارات.

في جوار القصر الرئاسي، فتح جنود مذعورون نيران رشاشاتهم على الحشود، سقط المتمردون بالمئات، إلا أن آخرين أقبلوا من الطرق الجانبية، قفزوا فوق الجدار ونجحوا في تحطيم الحاجز الصغير الذي سُمي «مدخل الجنائنيين». اندفع الموتوديُّون الغاضبون من خلاله، مسلحين بالعصي والسكاكين وبعض المسدسات والغدّارات، وسرعان مااجتاحوا القصر وكل قاعة من قاعاته؛ ذُبح رئيس الدولة، الذي كان يقيم حفل استقبال، مع أسرته، وأقربائه، وغالبية

مدعوِّيه. وقبل الفجر، نُهِبَ وأُحرِقَ مركز الاتصالات الدولية، الذي دُشِّن حديثاً، وكذلك معظم الأبنية العامة.

ما أن انتشرت تلك الأنباء، حتى تفكك الجيش، وسارَعَ كل ضابط، أو صف ضابط، أو جندي للالتحاق على عجل بالمنطقة التابعة لجماعته العرقية، المكان الوحيد الذي يستطيع أن يشعر فيه بالأمان. أصبحت نايبوتو عبارة عن رقعة ضامة مكونة من غيتوات متشددة، توالت فيها المجازر بلا انقطاع، متقدمةً أكثر فأكثر لتبلغ الضواحي كافة.

الشيء الذي أثار شعور العالم الخارجي، هو أن آلافاً من السيَّاح من كافة الجنسيات كانوا منتشرين في أنحاء البلاد؛ قيل إن عدة مئات منهم تجمعوا في فندق كبير في مركز البلد. كيف السبيل لإنقاذهم؟ سلطات البلد لم تعد موجودة تقريباً، وقوات الأمن تجزأت إلى زُمر متنازعة، أو حسب التعبير الفظ لأحد المعلِّقين، «عادت إلى عناصرها الأولية». أُغلقت المطارات، وانقطعت الاتصالات ببقية أنحاء العالم كلياً، وتُرَجِّح جميع الاحتمالات أن غالبية السفارات الأجنبية قد اقتُحمت.

لَزِمت دواوينُ القنصليات صمتاً جنائزياً. وتداولت العواصم حول الموقف الذي يتعين اتخاذه.

التدخل؟ ولكن في أية نقطة من هذه المَجمَرة الهائلة؟ وبأية وسائل؟ وضد من؟

توجيه إنذارات؟ ولكن من هم المسؤولون الذين مازالوا في مواقعهم أو مازالوا على قيد الحياة لكي يحسبوا لها حساباً؟

الانتظار والمراقبة؟ ولكن كل ساعة تضيع يمكن أن تعني موت مئات الأجانب...

بطبيعة الحال كان كل بلد يفكر أولاً برعاياه. ليس هذا انتقاداً، بل أسجِّل فقط أنهم في الشمال كما في الجنوب، كانوا منشغلين أولاً بالجماعات العرقية التي تخصهم، هو هكذا، لن أتهم أحداً. حتى أنا، من ناحية أخرى، ماهو أول مافعلته وأنا أستمع لهذه الأخبار؟ سارعت للاتصال بكلارانس، عند أهلها في سيت، لأطمئن أن امرأتي الصحافية لاتفكر ملياً في المشروع الجنوني بالذهاب من أجل رصد هذه المذبحة عن كثب.

T

ما الذي جعل من مأساة نايبوتو من بين جميع الاضطرابات الدامية التي أثَّرت ببلاد الجنوب خلال العقود الماضية، ذلك الحدث الدليل، ذلك المنعطف، ما الذي جعل منها «ساراييڤو القرن الجديد»، مثلما وصفها أحد المؤرخين المعاصرين؟

الانهيار المفاجيء وغير المنتظَر لكل سلطة، هيجان سورات العنف، والعداء المفتوح إزاء الشمال وإزاء كل مايمثله أو ما يرمز إليه، كل ذلك كان، وهو أمر يُفهم بسهولة، مؤثراً ومضلِّلاً، سواء بالنسبة للجمهور أو للمسؤولين. إلا أن الشيء الأخطر يكمن في حقيقة أن مُكوِّنات المأساة كانت موجودة جميعها، بدون استثناء، وبالطاقة الكامنة ذاتها على جر الويلات، والعُته غير المتوقع، في عشر أو عشرين أو مئة نايبوتو أخرى عبر العالم!

أشاع ذلك «التعقيم» المذكور الدمار في كل مكان، وأمكَنَ في كل مكان ملاحظةُ بوادر فيضانات كبيرة، وكان يتصاعد في كل مكان، بشكل بائن، الحقد ذاته ضد الشمال وضد «خَدَمِه» في الداخل. مع اتهاماتٍ ماكان مراقبٌ غيرُ متحيزٍ ليحكمَ بأنها مقنعة، ولكن الجمهور لا يمكن إقناعه، بل يمكن

إثارة حماسته: كان هناك هياج مشروع وظلال براهين، وكان ذلك كافياً. وهذا ماحصل .

سيكون من الظلم ألا نضيف بأن أفراداً مثل فولبوت وأقرانه، لم يفعلوا شيئاً أكثر من أنهم فاقموا وضعاً كان أساساً، ومنذ زمن طويل، حرِجاً بشكل يتعذر إصلاحه؛ هم لم يخترعوا الفقر أو الفساد أو الاستبداد، أو الأشكال التي لاحصر لها من التمييز؛ لم يحفروا بأيديهم ذلك «الصدع الأفقي» بين شمالٍ وجنوب؛ ربما كانوا، بأدمغتهم التي هي أدمغة مشعوذين متمرنين، يبحثون عن علاج لتلك البلايا؛ إلا أن اختراعهم كان الفتيل الذي يلزم للبرميل.

حين استشهدت بالمقارنة مع سارابيڤو، كنت أعي أني استعدتُ عادة في التفكير، عادية وخداعة. من يأخذ على عاتقه رواية قصة حرب، يجد نفسه مضطراً لتحديد تاريخ اندلاع الأعمال الحربية، والإشارة بإصبعه إلى بعض الأفعال التي لايمكن إصلاحها. أما أنا، الذي أدور بالأحرى في فلك العلم الذي أعمل به، وليس في فلك التاريخ، فإن هذا المنطق التسلسلي لايساعدني كثيراً على الفهم. أنا أميل للاعتقاد بأن الانقلابات الخطيرة تعيش كينونتها الخفيَّة طويلة الأمد. كذلك الأمر بالنسبة للكوارث، والبلايا المتسترة. هي لا تولد، بل تنكشف. وينطبق الأمر ذاته على الحروب.

نعم، لمَ الإنكار، مرة أخرى تخطر ببالي يرقات الحشرات. العالَم الذي عاشرته، ولِيَ فيه نقاط استدلالي الوحيدة، وقناعاتي اليقينية النادرة: وُحوشُ اليوم ولدت أول أمس، ولكن كم يبلغ عدد الذين يستطيعون رؤية الصورة تحت

القناع؟ في الواقع الشنيع لعصر شيخوختي، لم يكن هناك شيء لا يُعقل، أو لا يمكن استدراكه، أو لايمكن تجنبه منذ خمسين أو تسعين عاماً؛ ومع ذلك لم يُعقل أي شيء ولم يُستَدْرَك أي شيء، ولم يُتجنب أي شيء.

ولكن ما جدوى العودة إلى أصل سلسلة المسببات؟ ماجدوى معاكسة المنطق الظاهر؟ من الأجدى مراصفة التغيرات الطارئة.

بعد ثلاثة أيام من الشك، تأكدتْ أكثر الشائعات فظاعةً: نعم، المجازر مستمرة، في نايبوتو وعلى امتداد البلاد، بالمدفع كما بالسلاح الأبيض؛ نعم، مئات الأجانب ماتوا، ديبلوماسيون، وسياح، ومغتربون، و رجال أعمال. لا، لاشيء كان يشير إلى احتمال عودة الاستقرار من جديد. وفي واشنطن، ولندن، وبرلين، وموسكو، وباريس وغيرها، كانوا يصرِّحون: « سينال المذنبون عقابهم»؛ ولكن شريطة أن يكون للمذنبين وجوه وأسماء.

وصل الأمر إلى حد الأسف على الوقت الذي كان فيه الشمال مزدوجاً، والذي كان يُلجأ فيه، من أجل مهاجمة إحدى القوتين، لكفالة القوة الأخرى، لأسلحتها، ولمفرداتها الخاصة.

لأن ما أعطى لمأساة نايبوتو طابَعها المخيف، الذي كان لابد أن يمكث في ذاكرتنا طويلاً، كان يفوق تفاصيل المذابح، يفوق حتى الصور والشهادات التي كانت ترشَح باتجاه الخارج، هو ذلك الانطباع الذي أعطاه العالمُ بأسره، بأنه

بلا ذراعين وبلا علامات للاستدلال، كما لو أن التاريخ راح يرطن فجأةً بلغة غير مفهومة، لغة بُعِثت من عصر آخر، أو هبطت من كوكب آخر.

أفسر اليوم الظاهرةَ لنفسي بشكل أفضل قليلاً. حين ترى مجموعة من السكان أنها مهددة في بقائها، فإننا نشهد في بعض الأحيان انهياراً مفاجئاً لجميع القوانين الاجتماعية التي تحكم سلوكها في العادة. كم من جماعة وكم من قبيلة شعرت آنذاك بأنها في طريقها إلى الانقراض! فأية سدود تلك التي يمكنها أن تقف في وجه جنونها؟

لم تكن نايبوتو سوى مرحلة على طريق طويل من المحن. بالكاد أعيد إليها ما يشبه النظام، وحُصرت فيها كلُّ جماعةٍ عِرقية في منطقتها، حتى تفجرت مآسٍ أخرى في مناطق أخرى، مُتَّبِعةً النموذَجَ الدامي ذاتَه. راح المؤرخون يتكلمون الآن عن «متلازمة[1] نايبوتو»؛ كان يقال آنذاك «عدوى». هذه الكلمة الأخيرة ليست في موضعها. فعندما تَفقُسُ بيوضُ العقرب ذاتِه الواحدة تلو الأخرى، لايمكننا، بحصر المعنى، أن نتكلم عن العدوى. إلا أنه كانت هناك، بشكل لامجال للشك فيه، ظاهرة محاكاة، كان ڤاليفر سيلاحظها بالتأكيد لو أنه عاش في عصرنا: حين نرى على مليارٍ من الشاشات، أحد أتباع الطرف الكبير يذبح أحد أتباع الطرف الصغير، فإن جميع أتباع الطرف الصغير على الأرض يشعرون أنهم مهددون، ويكتشف الكثير من أتباع الطرف الكبير في أنفسهم روحَ الإجرام.

---

(1) متلازمة: عبارة طبية تلازم مجموعة أعراض أو دلالات تشكل كياناً سريرياً يمكن التعرف عليه بسهولة.

ألا يعرف الأخصائيون المحاكاة الموجودة لدى المصابين بهوس الإحراق، التي تُضخِّمُها وسائلُ الإعلام؟ لايمكن أن تظل صورةُ تلك الجموع التي تنادي بموت المسؤولين عن «التعقيم»، دون صدى لدى السكان الذين أصابتهم البليةُ ذاتها.

لمن الدَّور بعد نايبوتو؟ كان بعض ذوي الأذهان الواضحة أو الكئيبة يستشعرون في كل مكان «أعراضاً»، و«كواشف»، و«مقدمات منطقية»، و«طلائع». وإن صدقناهم، فالبلدان التي ستوفرها المأساة قليلة.

أبعدَتْني هذه المأساة زمناً عن كلارانس. كانت لدينا الرؤية ذاتُها للأخطار، إلا أنها كانت تستمد منها أسباباً جديدة للنضال، في حين أنني كنت متعجلاً أكثر من أي وقت مضى، لأن أستأنف من جديد حياة المختبرات. حين كان للكلمة معنى، قلتُ بضع كلمات. حين كان للحكمة دور ألعبه، لعبتُ دوراً. لكننا اعتباراً من الآن أصبحنا نعيش عصر الاختلال العقلي، حيث لم أكن سوى متطفل، رث. سوى مفارقة تاريخية ـ فما جدوى الكذب على النفس؟ لمَ التظاهر بمقاومة تدفق الحقد في الوقت الذي كان الناس الكبار يتفاخرون فيه بعجزهم؟

كان قَوْلي ينسجم مع طبعي وقَوْل كلارانس مع طبعها. كنت معجباً بها، ولم يكن لها مأخذٌ عليَّ، كنا نتناقش بدون خشونة. إلا أن طريقينا كانا يفترقان.

كانت قد عزمتْ على تشكيل «لجان حكماء» تنتمي إلى الـ «شبكة»، في أكثر المناطق اضطراباً، تكون بمثابة «سدود» لاحتواء صعود العنف، بتأثيرها على الرأي العام وعلى القادة، وبالاحترام الذي سوف توحي به للجميع. هذه المهمة ذات الأبعاد التي تشمل الكوكب، قادت كلارانس للطواف المستمر في القارات، ولم تكن باريس في أحسن الأحوال سوى مكان للتوقف المتكرر.

اضطررت من جهتي، خلال الفترة ذاتها، أن أقوم بنقلة ذات طبيعة مختلفة تماماً، لابد أن تبدو لقارىء اليوم تافهة، إلا أنها تطلبت مني جهداً مثابراً من أجل التكيُّف.

حين أكَّدتُ لمدير متحف العلوم الطبيعية قراري الحازم بالعودة إلى «البيت»، كرر على مسامعي أنني على الرحب والسعة دوماً؛ مضيفاً دون أن يبدو عليه أنه يفرض شرطاً، أنه ربما يكون من الأنسب له ولطلابي إذا أجريتُ عَودة طفيفة إلى وضع سابق: بدلاً من الاهتمام كما فعلت حتى ذلك الوقت، بمغمدات الأجنحة، فربما أوافق، لمدة عام أو عامين، أن أدير مجموعة بحث حول الحرشفيات.

«الفراشات؟» كان أول رد فعلٍ لي من المفاجأة و بغض الاحتقار. لستُ أقلَّ تأثراً من غيري بجمال هذه المخلوقات، وبأناقة حركة جناحيها؛ بل إن بوسعها حتى أن تصل بجمالها إلى فخامة حقيقية، في حقول معينة من الضوء. المسألة فقط هي أنني فضلت على الدوام أن أنحني أمام أشكال من الجمال أقل إبهاراً للعين المجردة.

نعم، «الفراشات»، أعاد المدير القول، وكان لهذه التسمية في فمه مثلما كان لها في فمي، وَقْعُ كلمةٍ عامية، تُرافقُها بالضرورة سعلة خفيفة مُزدَرِية. «أقترح عليك ذلك لأن هناك مكاناً شاغراً، لكني لا ألحّ، أعرف أن أشخاصاً أكثر شباباً منك ومني قد يترددون في التحول عن موضوعاتهم المفضلة.». لم يكن يلح، إلا أنه، دون أن يلح، كان يعلن، سراً، عجزي عن الخوض في مجال جديد من الأبحاث، في عمر متقدم بهذا الشكل. «لا أجهل أنك، حجةٌ في موضوع مغمدات الأجنحة منذ كنتَ في الثلاثين، ومازلتَ رغم هذه السنوات من الانقطاع. يكفيك أن تقول كلمة واحدة، لأكلفك بهذا القطاع من جديد.» وأوضح بأقل ما يمكن من الإقناع أن الشخص الذي كُلِّف به طيلة غيابي سيتنحَّى بطيبة خاطر.

لقد فهمت. «تَحوَّلْ إلى الفراشات!» لم أكن أريد أن تَقلِب عودتي المواقعَ المكتسبة. ثم إن التحدي كان يثيرني. كنت أشعر بأنني قادر تماماً على ارتياد طرق جديدة، وأتعجل لأبرهن على ذلك.

سيقال لي، ليس هناك داعٍ للمبالغة، إذ أنني لم أكن أغير مهنتي، ولا حتى مادة عملي. وما زلت في موضوع الحشرات. ولكن الشَّبَه بين الجُعَل وفراشة الأستياناكس، يعادل الشَّبَهَ بين النسر وقرد الشمبانزي تقريباً. لاشك أني في دراستي لعلم الحشرات، درست جميع الفصائل والرُّتيبات، الحرشفيات ومزدوجات الأجنحة، كبيرات الفكوك وعديمات الأجنحة. لكن الأمر كان مجرد مرور سريع، وتمَّ ذلك قبل سنين. ثم إنني، وهذا ما وجدتُ الفرصة للإشارة إليه، كان لدي ما أشغل به

أيامي بوجود أنواعي الثلاثمئة والستين ألفاً من مغمدات الأجنحة! قلت لنفسي، لابأس، سأتدرب بشكل إضافي، حتى لو اضطررت للاستغراق من جديد في جميع الكلاسيكيات القديمة بدءاً بـ لينِّيه[1].

هكذا وأثناء قراءاتي الاعتباطية تعرفت على فراشات من نوع الأورانيات. لاشك أنها ذُكرت أمامي في أحد الدروس، فالاسم لم يكن غريباً عليّ. لكني لم أكن أعرف شيئاً عن ردائها أو عن عاداتها.

إنها كبيرة بحجم يد طفل، محززة بالأخضر المعدني، والأسود اللامع، وأحياناً أيضاً بالأحمر البرتقالي، وإلى الوراء شريط حاشية أبيض. يمكن مشاهدة الأورانية في مناطق مختلفة من الكرة الأرضية، من المحيط الهادىء إلى مدغشقر، ومن الهند إلى الأمازون. النوع الذي استرعى انتباهي بشكل خاص هو ذلك الذي يُعرف باسم أورانيا ريفيوس، والذي نجده خاصةً في أمريكا المدارية.

استطاع العلماء الذين اهتموا بها أن يلاحظوا ظاهرة مفاجِئة وتستحق المشاهدة: في أيام معينة من السنة، تتجمع عشرات الآلاف من هذه الأورانيات في أماكن من الغابة متاخمة للمحيط، ثم تطير إلى الأمام بشكل مستقيم، مئات الأميال البحرية، إلى أن تقع من الإنهاك وتغرق، كونها لم تجد أية جزيرة تحط عليها.

---

(1) شارل لينِّه: عالم طبيعيات سويدي صنف النباتات إلى 24 طبقة، وكان تصنيفه لمملكة الحيوان، فريداً بالنسبة لعصره 1707 - 1787 .

تضع بعض الإناث بيوضها في الغابة قبل الهجرة، الأمر الذي يضمن بقاء النوع؛ لكن معظمها تطير وهي ماتزال في مرحلة الحمل، جارَّةً ذرِّيَّتها إلى انتحارها الجماعي.

سحَرَني طيرانُ الأورانيات منذ اللحظة التي وقع فيها نظري على بيان الملاحظات الأولى. كنت أتساءل إذا كانت هذه الرحلة إلى العدم تعكس «عطلاً» في غريزة البقاء، أو خللاً وراثياً، أو «خطأً» مأساوياً في نقل الإشارات المرمَّزة التي يبدو أنها تحكم هذه الهجرات؛ وكان بوسعنا مضاعفة الفرضيات.

إنها لحظة مباركة في حياة باحثٍ، تلك اللحظة التي يكتشف لنفسه فيها هوىً جديداً، كنت أحتاج إليه في هذه المرحلة من تجوالي. استوطنني موضوعي هذا إلى درجة نجحت معها بدون مشقة، في إقناع الطلاب الذين يصل عددهم إلى حوالى الخمسة عشر طالباً، ممن كنت أدير أبحاثَهم، أن يخصصوا جزءاً من وقتهم للأورانيات. أغريتُهم ، دون أن يكون في نيَّتي خداعهم، برحلة إلى كوستاريكا. إلا أنني لم أنجح في الحصول على الاعتمادات اللازمة لبعثة حقيقية للدراسة. أتساءل، فيما إذا تخطيت هذه العقبة، كيف سأتمكن من الابتعاد عن باريس ـ أي عن بياتريس ـ طوال الأشهر التي قد يحتاجها بحثٌ من هذا النوع، في وقتٍ كانت كلارانس متغيبة فيه غالباً.

يحدث لي حتى اليوم أن آسَفَ لكوني لم أقم بتلك الرحلة. إلا أني أعزِّي نفسي، يساعدني السن الذي أنا فيه، بالقول بأن

رصد الموضوع على أرض الواقع شيء مفيد لكنه مضجر، وأنه لا يضيف، بالتأكيد، شيئاً للوقائع المعروفة مسبقاً. كان من المفهوم والمشروع بالنسبة لأعضاء فريقي أن يعكفوا على أعمال الرصد التي أجراها آخرون من أجل تمثُّلها ومحاولة تفسيرها.

استطعنا أن نصوغ بعض الفرضيات التي كانت مادةً لدراسة وافية لم تعطني الظروف متسعاً من الوقت لنشرها، وماتزال موجودة في أدراجي. أعبر فيها عن رأي مفاده أن سلوك الأورانيات ليس نتيجة فقدان غريزة البقاء، بل على العكس، هو نتيجة بقاء رد فعل سَلَفي مازال يقود هذه الحشرات إلى أماكن كانت في الماضي تتكاثر فيها، ربما جزيرةٌ يُحتَمَلُ أنها اختفت. هكذا يكون انتحارها الظاهري فعلاً لا إرادياً سبَّبَهُ سوءُ تكيُّفِ غريزة البقاء مع حقائق جديدة. فتَنَتْ هذه الأفكار طلابي، إلا أن بعض الزملاء أبدوا تشككاً إزاء التعبير.

شغلت الأورانيات قوام العامين الأولين من مهنتي العلمية التي استعَدْتُها. كنت أخصص الوقت الذي يتبقى، لـِ أرافيس، حيث كانت بياتريس ترافقني أحياناً وتشارك في الأعمال. كان المنزل يتخذ شكلاً وروحاً، رغم وسائل الراحة التي هي أقرب إلى البدائية. التنازل الوحيد الذي قدَّمتُه للتجهيزات الحديثة، أني ركَّبتُ فيه ذلك الجهاز المريح الذي يسمح بتشغيل التدفئة عن بعد، من أجل تفادي الانزعاج من دخول مكان واسع جلَّدَهُ البرد. لم يكن يمضي قط أسبوعان دون أن

أذهب إلى هناك، ولم تكن تردعني عن ذلك حتى كثافة الثلج على الطرقات.

لم تأت كلارانس إلى المكان أبداً بعد، إلا أننا اتفقنا على مشروع قضاء شهر من الصيف فيه، نحن الثلاثة معاً؛ شهر هادىء، وحياة بيتية، ساكنة، ومُرَمِّمة. كانت هذه الكلمات توقظ لدى رفيقتي رغبة حلوة كانت تُجبر نفسها على إسكاتها. كانت تعترف أحياناً في ظلام غرفتنا، ببعض التعب، ولكنها اختارت أن تكون عَجَلةً في آلة، ولم تعد تشعر أن لها الحق بالتوقف، حتى من أجل استراحة. لم تكن تريد أن يقف ضَعفُها عائقاً في طريق معركتها، أياً كان الثمن.

تمكنتُ مع ذلك، من أن أنتزع منها وعداً بذلك الشهر من السلام، مركِّزاً بصورة خاصة على أن ابنتنا لن تلبث أن ترفض فكرة قضاء العطلة مع «أبويها العجوزين»، وأنه يتعين على أمها أن تُلازِمها أكثر، أن تكلمها وتستمع إليها. رغم احترامي لالتزام كلارانس، وكذلك لكيفية تنظيمها لوقتها، فقد كنت مصمماً أن أمارس جميع الضغوط اللازمة من أجل حملها على الوفاء بوعدها.

لم أحتَج للأسف، لاستخدام قدرتي على التأثير، ولا قدرتي المشكوك بها على الإقناع. يدٌ مجهولة اتخذت القرار بدلاً منا، بأكبر قدر من الفعالية العنيدة.

U

ذهبت كلارانس في جولة في أفريقيا. قررت، في اللحظة الأخيرة، حريصةً على تجنب إخباري بالأمر، أن تتوقف لمدة يومين في نايبوتو. صحيح أنه لم يُشَر فيها منذ شهور لأية مجازر، إلا أن الوضع هناك كان مايزال غامضاً، متقلباً، و«سريع التطاير».

أرادت رفيقتي إعادة الصلة بالبلد، وإعادة تنشيط أحد هوائيات «شبكة الحكماء» الذي تَشَكَّلَ فيها ولم يتمكن من إيصال صوته؛ كانت تأمل بالمناسبة ذاتها أن تلتقي ثانيةً ببعض الأشخاص الذين تعرفت إليهم في رحلات سابقة، وخصوصاً نانسي أوهورو، مالكة الـ «مانسيون»، التي ربطتها بها صداقة أثناء إقامتنا، قبل اثني عشر عاماً.

عند وصولها إلى المطار، حيث كان يخيم مايشبه النظام، ولكن بدون أي دفق آخر سوى دفق المتسولين، أدهشَها أن تضطر إلى تقديم شرح عن المكان الذي توجد فيه أوهورو مانسيون، لسائق سيارة الأجرة الشاب جداً. كان عليها منذ ذلك الوقت أن تحذر، وأن تزيد من حذرها حين نبَّهها الرجل بأن الطريق لم يعد مطروقاً جداً.

مع ذلك لم تكن السيارة تبعد أكثر من دقيقتين عن الهدف حين اعترض طريقَها رجالٌ بثياب عسكرية؛ أُجبر السائق على

التوقف قرب متراس موجَز ـ غصن شجرة ضخم، وبرميل مبقور، وبعض الأحجار المكومة، وبشكل خاص رشاشات مصوَّبة ـ . كان الأمر يتعلق حتماً بواحدة من عصابات الجنود الذين تحولوا إلى السلب والذين كانوا يعيثون فساداً في طول البلاد بكاملها. كانت الصحافة الأجنبية تقول بأنهم ما عادوا ينفذون عملياتهم في جوار العاصمة؛ كان واضحاً للعيان خطأ ذلك الكلام.

تلقت كلارانس الأمر بالنزول من السيارة. كان سائقها ينتمي بالمصادفة، للجماعة العرقية ذاتها التي ينتمي إليها اللصوص، بحيث تركوا له سيارته، مكتفين بـ «مصادرة» أمتعة المسافرة التي برفقته. عندما احتجَّت هذه ورفعت صوتها، مهدِّدة، ووصلت إلى حد انتزاع حقيبة اليد التي تحتوي على جواز سفرها، ونقودها، ومفاتيحها، وأوراقها من أحد المعتدين، تلقت ضربة عصا على مؤخرة جمجمتها، طرحتها أرضاً، فاقدة الوعي.

جرَّها السائق إلى السيارة، وحصل، بعد نقاش ممل وصبور، على الإذن بمتابعة طريقه.

للحظ السعيد جداً، كانت نانسي أوهورو هناك، ودائماً بالقدر ذاته من الرحابة والابتسام رغم خراب الـ «مانسيون» الذي تملكه، والذي لم يجازف أي زبون بطبيعة الحال، في الذهاب إليه منذ زمن طويل جداً. نقلت كلارانس إلى مستشفى يديره الصليب الأحمر، حيث تم تشخيص صدمة خطيرة في الجمجمة.

حين وقع الحادث، كانت نانسي أشد انشغالاً بمصير الضحية وبوسائل الرعاية التي كانت تقدم لها، من أن تحاول

الاتصال بي؛ فضلاً عن أنها لم تكن تعرف إحداثياتي، كما لم تُترك لـ كلارانس أية ورقة يمكن أن تشير إلى عنوان.

تابعتُ إذن حياتي الروتينية اليومية خلال خمسة أيام، دون أدنى هاجس، ودون أدنى شعور بالقلق، فلطالما اعتادت رفيقتي أن تمضي أوقاتاً طويلة دون أن ترسل أي خبر عنها.

تلقيتُ من جنيف، من مقر الصليب الأحمر، رسالة على مسجلة هاتفي، ليس فيها سوى رقم هاتف وطلب بالاتصال العاجل.

أية لحظة كانت الأسوأ؟ ليست تلك التي علمتُ فيها بالهجوم الذي وقعت كلارانس ضحية له، وبخطورة حالتها. لا، فقد خشيت ذلك منذ تلقيت المكالمة، كانت شفتاي تهمهمان فقط بصلاة محمومة: «فلتكن على قيد الحياة!». أسوأ اللحظات لم تكن كذلك تلك التي لمحتُها فيها، ممددةً، وماتزال غائبة عن الوعي، «مضمدة» مثل مومياء، ومحاطة بأجهزة مضيئة وذات دوي. لا، أسوأ اللحظات كانت تلك التي، سمعتُ فيها، بعد أن طلبت الرقم في جنيف، و عددتُ رنات الجرس الأربع، حركةَ رفع السماعة، واضطررت أن ألفظ فيها مقاطع اسمي بانتظار الحُكم.

ـ لدي خبر خطير أخبرك به، لكن الشخص المعني حي، وحالته ثابتة. لابد أنك رفيق كلارانس...

إنها حية. حية. هذا كل ماكنت أطلبه من السماء.

أخبرني الصوت ببضع كلمات بما حدث لها، وأشكال

العناية التي أُغدِقت عليها حتى اللحظة. كانوا ينوون إعادتها إلى باريس خلال الاثنتين والسبعين ساعة.

ـ لو كانت المهلة أطول، كنا اقترحنا عليك أن تذهب لتلازمها قرب سريرها.

كان من الواضح أن لدى الرجل الذي كلمني، عادة التعامل مع ذوي الأشخاص الذين تعرضوا للحوادث، بدت نبرة صوته منخفضة ورزينة لاتدَّعي أنها تُطمئِن مجاناً، وهذا هو بالذات، مايجعلها تبدو مهدِّئة. كان يستَبِقُ المطالبَ التي كان يمكن أن أصوغها، يلتفُّ عليها، متمكناً في نهاية الأمر من جعلي أصبر أطول وقت ممكن حتى لا أذهب وأضطرب بين أقدام فرق الإنقاذ.

ـ سأقترح عليك أن توافينا فقط إلى المستشفى.

بعد ثلاثة أيام من ذلك، استقر بي المقام فوق كرسي بلاستيكي قرب سرير رفيقتي الهامدة، رأسي بين يديّ، ومرفقيّ مغروسان في فخذيّ. وإلى جواري بياتريس، صامتة، بعينين مغضَّنتين ومحدِّقتين، كما لو أنها كانت تتعلم الوقار.

في الأيام الأولى، بقيتُ هناك، متضايقاً في جلستي، شديد التحرك، مشتَّتَ الذهن، أستعرض صورَ الماضي. بدأت بعدها أحضر وبحوزتي كتاب؛ ومن وقت لآخر، كنت أحاول الكلام بصوت مرتفع حين أكون وحدي مع كلارانس، مخاطباً إياها، أطمئنها عن حالتها؛ فقد قرأت أن المرضى، حتى وهم

في غيبوبة، قادرون على سَماعِ وفَهْمِ مايقال حولهم، وأنهم حتى لو لم يتذكروا الكلام حين يعودون إلى الوعي، فإنه أحياناً يرفع معنوياتهم. قال لي، طبيبُ أمراض عصبية يشرف على حالتها، كلمةً في ذلك، دون أن يكون قصده تماماً إعادتي إلى الصواب. «بلا شك، حين لا تكون الغيبوبة عميقة جداً...» أما في عينيه الماكرتين فكنت أقرأ: «إذا لم يستطع ذلك أن يساعد المريض، فربما يساعد أقرباءه.»

صحيح أننا، بياتريس وأنا، كنا أكثر هشاشة، في تلك الأيام، من كلارانس. تذكرتُ آنذاك جملةً قالتْها رفيقتي في أحد لقاءاتنا الأولى. كنت قد قلت لها للتو إننا حين نحب أحداً، فإن أكثر مانتمناه هو مغادرة العالم قبله. أجابت بصوت عابث: «الموت فعل أناني!» هل كانت الحالة التي هي فيها حالياً، أقل أنانية؟ كان يمكن أن تنتقل من لامبالاة الغيبوبة إلى لامبالاة الموت دون نظرة إلى الشخص الذي كان يحبها، والذي لن يستعيد، في حال موتها، طعم العيش ذاته قط؛ كان هذا الهجر يبدو لي فظاً بعض الشيء.

كما يُرى، لم تكن جميع الأفكار التي مرت ببالي آنذاك، حنونة إزاء كلارانس. كنت مغتاظاً لمخاطرتها بنفسها بهذا الشكل، أكثر مما كنت حاقداً على المجهول الذي ضربها. لم يكن لهذا الأخير، في نظري، وجودٌ أو مسؤولية. كان ينتمي إلى تلك الكائنات الوحشية، التي يزداد عددها يوماً بعد يوم، وربما يتضاعف أيضاً، كائنات ظُلِمت بقدر ما ظَلَمت ، وحوش ولدت من العماء وعملت على استمراره. أما كلارانس، فأي عذر يمكن أن يكون لها؟

كنت أحمل عليها بعينيَّ، وفي اللحظة التي تلي أحضنها ثانية، واعداً إياها، إن هي بقيت على قيد الحياة، ألا أبتعد عنها بعد الآن وأن أرمم كل عاهاتها، مقابل هذه الهدية.

وقع حادثها في منتصف آذار، في 14 منه تماماً؛ وبعد ظهيرة يوم 2 تموز فقط، تحركت شفتاها من جديد. لم تكن تقول شيئاً مفهوماً بعد، ولكن ذلك كان انبعاثاً من الموت. صحيح أن الأطباء طمأنوني في وقت مبكر جداً حول الشيء الجوهري: الدماغ ليس متضرراً؛ وكان يكفي أن ننتظر، وستتحرك ثانيةً بالتأكيد، ستتكلم، وستنهض. أما أنا، فلم يكن ذلك أكثر من كلام منمَّق بالنسبة لي؛ فقد كنت أنتظر كلمات كلارانس أكثر مما أنتظر كلمات الأطباء.

في يوم 2 تموز ذاته ـ تاريخ مبارك إلى الأبد ـ فتحت عينيها، ورأيت جيداً أنه داخل هذه الضمادات كان مايزال يقيم ذلك الذكاء الذي فتَنَني.

أصبح باستطاعتي، منذ الآن، أن أرصد ولادتها الثانية من ساعة إلى ساعة؛ كنت أكلمها طويلاً، وكان يبدو أنها تسمع دون تعب، وتبتسم أحياناً، تؤيد، أو تُشكِّك. تتكلم قليلاً وبشكل بطيء، إنما بقدرٍ من الوضوح جعَلَني أطمئن بعد مضي بضعة أيام، على مَلَكاتها العقلية.

كان عليها أن تجرجر آثار ذلك العدوان وقتاً طويلاً أيضاً. وسوف تكون كل السنين القادمة بالنسبة لكلينا، بمثابة إعادة تربية صبورة، وصعود جديد وبطيء. ولكننا توصَّلنا، إلى رؤيةِ فرصةٍ مؤاتية في هذه النكبة: «في الوقت الذي يميل

فيه الآخرون إلى الانحطاط مع تقدم العمر، قالت كلارانس، أستعيد أنا، في الخمسين من عمري، امتيازاً يخص الأطفال، هو امتياز التقدم خطوة خطوة، وإعادةُ تعلُّمِ الحركات والمباهج.»

كانت تقول ذلك بوجه فيه قدر من الطراوة والطلاقة أقنعني أن كل كائن يحتاج إلى سقطة قوية قبل أن يصل إلى السفح الآخر من حياته. الأفراد والمجتمعات الإنسانية، والنوع البشري أيضاً. ربما كان ذلك هو ثمن الرمق الجديد.

٧

في العام العشرين من قرن بياتريس، في شهر تموز، وبينما كانت كلارانس متشبثة بذراعي، تقوم بنزهتها الصباحية من طرف المسكن حتى طرفه الآخر، أُعلن في شكل عاجل ولاهث، نبأ وفاة عبدان، زعيم ريمال، «الجنرال الشديد التُّقى»، الحاكم الطاغية منذ ستة عشر عاماً، لبلدٍ من أكثر بلدان الجنوب غنى.

لو حدث هذا الاختفاء قبل بضع سنين خلت، لما أثار لدينا إلّا ارتياحاً مشروعاً؛ فقد عشنا، شباباً، تلك الأوقات المرحة التي كانت تتساقط فيها تلك العظاءات، الواحدةُ إثر الأخرى. لعبة بولينغ فظيعة كانت أعينُنا تتسلى بمرآها. لكن الزمن غيَّرَنا، تعلَّمْنا أن نخشى الفوضى أكثر مما نخشى الاستبداد. حصل منذ أحداث نايبوتو، من الانهيارات، ونتج عنها من الأعمال الوحشية، ومن الانكفاءات، أكثر بكثير من أن نتحمَّس للتغيير بحد ذاته فقط، وأكثر بكثير من أن تغرينا الشعارات. سيكون مضحكاً، أليس كذلك، أن أسأل إن كنت أنا من يشيخ أم التاريخ، لكن الجواب لايبدو لي بديهياً دائماً.

وضع عبدان حين وصل إلى الحكم، حداً لملَكية فاسدة قطعاً. قال حرية وجمهورية، وعادت هاتان العذراوان اللتان انتُهِكتا ألف مرة، عذراوين من جديد؛ كنا بحاجة للإيمان،

وتَرَكَنا عبدان نؤمن. وحين أَعدَمَ بالرصاص، بعد وصوله إلى سدة الحكم بوقت قليل، أحدَ معاونيه الطموحين للغاية، أشَحْنا بوجوهنا، مقتنعين بأنه لاينبغي إدانة تجربته بناء على هذا الفعل الذي هو دفاع مشروع عن النفس. مقتنعين أيضاً، ولكننا لم نكن آنذاك نقدِّرُ ما ينطوي عليه موقفُنا، أننا بصفتنا أبناء الشمال، وأصحاب الثروة، المحظوظون، والمستعمِرون القدامى، لا يحقُّ لنا أن نعطي دروساً لشعوب الجنوب.

أكرر، لم نكن، بأي شكل من الأشكال، نرى ماينطوي عليه موقفنا. نحن ـ أقصد أنا، وجيلي والأجيال التي كانت تحيط بنا ـ كنا نثور إذا أُسكِت أحد المعارضين الأوكرانيين، أما إذا أُلقي بأحد الريماليين في زنزانة، فإننا نهتدي فجأةً إلى مفهوم عدم التدخل، الذي كان منسياً. لنصدق أن إزالة الاستعمار بدأت مع بيلاطس البنطي[1] . ربما كانت هذه هي الطريقة التي انحفر بها في الأذهان ذلك «الصدع الأفقي»، الخط الذي يقسم القيم الأخلاقية، أو مثلما قال فيلسوف منسي من أيام طفولتي، الخط الفاصل بين «البشر وبين سكان البلد». في الوقت ذاته الذي انحسر فيه التمييز العنصري، فَرَضَ مفهوم «التطور المنفصل» نفسَه على صعيد الكوكب بأسره: الأمم المتحضرة، بمواطنيها، ومؤسساتها، من ناحية، وتلك الـ «بانتوستانات»، أو المحميات الجذابة التي تُساس وفقاً لأعراف أهلها والتي كان يُفترض أن تُذهِلَنا، من ناحيةٍ أخرى.

أذكر أنني التقيت بأحد الجامعيين الريماليين، وصل به

(1) بيلاطس البنطي: حاكم يهودا في العهد الروماني. حوالىالقرن 39 بعد الميلاد.

الأمر إلى حد الأسف على أيام «البعثات الحضارية»؛ كان هناك على الأقل إقرارٌ، حتى لو لم يكن إلا على المستوى النظري الخالص، بأن جميع الناس كانوا قابلين للتحضر. وكان الموقف الأكثر إضراراً في رأيه، هو ذلك الذي يقوم على «التأكيد بأن الجميع متحضرون، بحكم التعريف، وبالدرجة ذاتها، وأن جميع القيم متساوية، وأن كل ماله علاقة بالإنسان هو إنساني، وأنه يتعين على كل واحد بالتالي، أن يتبع الميل المنقوش على جذوره».

كان الشاب يخفي غيظه الشديد بستار من التهكم البارد: «في الماضي كنا نعاني من عنصرية مزدَرِية؛ واليوم نخضع لعنصرية موقَّرة. غير عابئة بتطلعاتنا، لكن الإحساس بثِقَلنا قد لَيَّنَها. يتحول أَخَسُّ أشكال البقاء، وأكثر التشوهات إذلالاً، إلى «إرث ثقافي». لكلٍّ قرنُه!»

كان ذلك هو شعور العديد من الريماليين، خاصة ضمن الشريحة الأكثر تعلماً. أما عبدان، فكان على العكس، يغتبط برؤية الآخرين يُقِرُّون بخصوصيته، وأصالته. كان يختال بالثوب التقليدي الفضفاض لكي يوحي جيداً بأنه ينوي أن يلعب لعبة السلطة حسب قواعده الخاصة، التي ينظر إليها الأجدادُ بعين الرضى التام. وحين تصمتُ أصواتُهُم الألْفيَّة، أحياناً، كان عبدان يعرف كيف يتكلم من بطنه، وكيف يكون مُلَفِّقاً بطيبة خاطر.

بقيت هذه المهارة كافية لزمن طويل. وكان رعاياه طيِّعين؛ ونحن، أهل الشمال، كنا مفتونين. ألم يكن مرتشياً؟ ألم يكن منحل الأخلاق خلف أسوار قصوره العالية؟ لكنه في الشوارع، كان يحافظ، بمساعدة الهراوات، على الورع

الجماعي. ألم يعيِّن أخوَتَه العديدين وأبناءَ عمومته في جميع المناصب الهامة؟ لو حدث هذا في الشمال، لَتكلَّمَ الناس عن محاباة الأقارب؛ أما والأمر يتعلق بالجنوب، فكان يقال «قاعدة عائلية». كان العديد من المفاهيم يحتاج للترجمة بهذا الشكل بمجرد أن يجتاز «الصدع الأفقي». كلارانس هي التي لفتت نظري إلى ذلك: الأوروبي الذي يعارض النظام الاستبدادي كان يسمى «منشقاً»؛ لكنها حين تكلمت يوماً في مقال لها، عن «منشق أفريقي»، عمد أحد رؤساء التحرير، وقد حَكَمَ بأن الكلمة في غير مكانها، إلى استبدالها من تلقاء نفسه، بكلمة «مُعارض»، دون أن يشعر حتى بالحاجة لاستشارتها، كما لو أنه يصحح خطيئة في الأسلوب أو في الإملاء. ويندرج تحت منطق الأفكار ذاته، أن يسمى عامل من الجنوب يقيم في الشمال «مهاجر»؛ ويقال لعامل من الشمال يقيم في الجنوب «مغترب». فدعونا لا نخلط الأمور!

لا أريد مُراكَمَةَ الأمثلة، نيتي الوحيدة هنا هي أن أذكِّر من هم دون الثلاثين، أو الذين ربما يكونون قد نسوا، أيَّ جوٍّ كان يسود آنذاك، وأيَّ ضباب كان يتشكل مثل ستار بمجرد أن يتعلق الأمر بالاضطرابات التي تحدث في الجنوب.

حدثت الانتفاضة ضد عبدان قبل الفجر بقليل. دخل ضباط من الحرس إلى مكان حريم الجنرال، وذبحوه مع الزوجة التي كانت تقاسمه ليلته؛ وفي اللحظة ذاتها، استولى عسكريون آخرون على مقر التلفزيون ليعلنوا موت «الطاغية الكافر، المارق، المخادع، خادم الغرب المفسِد والمعقِّم»، ويَدْعوا الشعب للثورة. في الحال لُبِّيَت دعوتهم، إذ كان لهم

بلا شك مساندون أقوياء في أحياء مختلفة. هوجم أقرباءُ الجنرال أولاً، وأفرادُ عشيرته، ومعاونوه. وفي وقت آخر من النهار، ودون أن يُعرف إن كان الأمر استمراراً للمخطط الثوري ذاته أم أن انزلاقاً قد حدث، هوجمتْ الأبنية الحديثة التي كانت تضم مكاتب الشركات الأجنبية. ثم تدفقت الجموع باتجاه الأحياء السكنية حيث كانت فيلاّت المستوطنين الأوروبيين تتجاور مع فيلات الريماليين الأثرياء؛ صار الأمر عندئذٍ إسرافاً في القتل والاغتصاب والتعذيب والتدمير؛ من ناحية أخرى حدث تدميرٌ أكثر مما حدث نهب، مثلما لاحظ شهود بقوا على قيد الحياة؛ لم يكن المنتفضون يطلبون شيئاً، ولا يسرقون شيئاً، لم يكن يشوب حقدَهم أيُّ طمع.

من المهم توضيح ذلك، لأنهم تكلموا آنذاك ـ بل إنني أقرأ ذلك حتى اليوم، في بعض الكتب غير الدقيقة ـ عن «نايبوتو جديدة». أليس في إطلاق هذه التسمية على كل انفجار مفاجيء يفضي إلى الفوضى الشاملة، شيء من التبسيط؟ مع أنه كان يوجد بين الحدَثيْن، ذلك الاختلاف في طبيعة كل منهما، الذي أشار إليه إمانويل لييف في خطابه بنيويورك، والذي كان الأشخاص القريبون من شبكة الحكماء ومن مشاغلها، وحدهم القادرون آنذاك على كشفه. لكي أبسّط أقول: إن المنتفضين في نايبوتو كان مايزال لديهم نساء، إلاّ أنه لم يعد لديهم بنات؛ أما الذين انتفضوا في ريمال، بدءاً بالضباط المتمردين، فكانوا يشعرون أنهم محكومون بقضاء حياتهم كلها دونما نساء، أو أطفال، أو أسرة.

لماذا في ريمال تحديداً؟ بلا شك لأنه في هذا البلد الغني والمتقهقر رغم غناه، استُخدِمت «المادة» والوسائل الشبيهة

بها في وقت مبكر جداً، وعلى نطاق واسع جداً. لم يكن الإيمان بالتفوق المطلق للذكر، أمر مسلَّم به إلى هذا الحد في أي مكان آخر، ولم تكن التكنولوجيا الحديثة، وخاصةً في مجال الطب، سهلة المنال بهذا الشكل، في أي مكان آخر من مناطق الجنوب. انتشرت وسائل الولادات الانتقائية بسرعة كبيرة، بين كل شرائح السكان الحضر أو الرُّحَّل دون أي حاجز أخلاقي أو مالي. أما في نايبوتو، وفي أكثر السنين مَحْلاً، فكانت ماتزال تولد بنت بين خمسة مواليد أحياء؛ بينما كانت النسبة في ريمال، ولعدة سنين متتالية، أقل من بنت لعشرين صبياً ـ وليس هذا أكثر من تقديرات، بطبيعة الحال، فقد كان عبدان أحد أوائل القادة الذين منعوا نشر وحتى جمع الأرقام التي تخص السكان.

هل كان ذلك عدم وعي؟ هل كان عماء مجرماً؟ تلك هي الكلمات التي استخدمتها الصحافة في الأيام التي تلت سقوط زعيم ريمال؛ مع ذلك لم يكن ذلك الزعيم يختلف في شيء عن قادة العصر الآخرين. قلائل جداً هم الذين كانوا قادرين على التأمل بِرَصانةٍ، في مسائل قد لاتُطرح إلا بعد خمسة عشر أو ثلاثين عاماً؛ كانت الغالبية تفضل تركها إرثاً مسموماً لذاك الذي سيكون له التغطرس الكافي وهو يتحول إلى وريث.

من ناحية أخرى، كان الجميع يعتقدون بأن ريمال سوف تبقى في منأىً عن الاضطرابات التي تهز الجنوب. كانوا يتظاهرون أنهم يلعنون قبضة عبدان الشديدة، أما حين يرون ما كان يحدث في كل مكان تقريباً، فكانوا يباركونها بصمت.

في إحدى المرات ـ أذكر أن ذلك حدث قبل الانفجار بثلاثة أو أربعة أعوام ـ ، أحصَتْ منظمةٌ إنسانية أنه حدث في

ريمال في الإثني عشر شهراً الماضية، ثمان مئة وخمسون عملية إعدام حتى الموت بتهمة الاغتصاب؛ طلب المستبدُ تقديم الإجابة التالية: إنه امتثل لقانون بلاده، وتقاليد شعبه، وبأنه لن يدع نفسه تنجرُ إلى الدروب التي تقود إلى الهلاك. كان الرد على هذا القول يزداد صعوبة أكثر فأكثر، لاسيما أنه كان معلوماً علم اليقين بأن الاغتصاب لم يعد جنحة فردية، بل صار تعبيراً عن عدوانية شاملة يخشى الجميعُ هيجانَها.

ربما تُفهم الآن وبشكل أفضل، الحيرةُ التي وقعنا فيها أنا وكلارانس، في ذلك الصباح من شهر تموز. منذ المساء، وفي اليوم التالي بصورة خاصة، حين عُرفت أنباء المجازر، لم يعد هناك مكان كبير للغموض؛ كان يتعين علينا، للأسف، الانضمام للشعور السائد، شعور المسؤولين، ووسائل الإعلام، والناس في الشارع الذين كانوا ينتهون، وهم يبدون التحفظات إزاء الشخص المخلوع ونهجه، إلى الإعراب عن الأسف على أيام الفساد، والاستبداد، والازدواجية، باعتبارها أيام عصر ذهبي.

كان في السُعار الذي تدفق على ريمال، شيء ملحمي في هوله ومغالاته. لا أريد، عبر هذه الكلمة، أن أمنح الجريمةَ طابعَ النُبل، ولا أن أضفي الرِّفعةَ على الجنون المدمِّر. لا، أحاول فقط أن أوضِّح أن الأحداث اكتسبت، منذ الأيام الأولى، معنى رؤيوياً مرتبطاً بقيامة العالم. كما لو أن شيئاً يتعذر إصلاحه قد حدث للتو، كما لو أن البشرية بكاملها وعَتْ فجأةً كابوساً كانت قد تمكنت، من إخفائه، إلى حد ما، عن نفسها. كان هناك بالطبع، صور الرعب، وعدد الموتى، الذين كان

بينهم مئات الأجانب ـ حتى الحكومات التي تتباهى بالشفافية، لم تكن تجرؤ أن تؤكد الأرقام ـ. ولكن هناك المزيد من الشعور بأن قسماً من العالم، القسم الأكبر، والأكثر ازدحاماً بالسكان، كان يتحول إلى منطقة ممنوعة، إلى أنصال ما عاد بوسع أحد أن يجازف بعبورها، ولن يلبث أي تبادل أن يصير مستحيلاً معها.

ودفعة واحدة، أدرك الشمال أن هذا «الكوكب الذي في الأسفل»، الذي اعتاد أن يعتبره ثقلاً ميتاً، كان يشكل جزءاً من جسده الخاص، وراح فجأةً يعيش انهيار الجنوب كأنه تَشَوُّه أو، أسوأ، كأنه غنغرينا.

W

أي عزاء ضئيل، أنّ كسر العالم سيكون له أفضل أثر مرَمِّم بالنسبة لبيتي الخاص.

لم يبدُ لي أبداً أن هناك أدنى شراكة بين كلارانس وبياتريس ـ كما لايوجد أيضاً أي تضاد ولا أي خلاف ـ . كان يبدو لي أنهما بقيتا غريبتين الواحدة عن الأخرى بطريقة لاشفاء منها. كنت أجتهد في محاولة تقريبهما، فأوجِد بينهما كلما سنحت الفرصة، لقاء وجهاً لوجه، تهامساً، أو مسارّة... بلا طائل. بقيتْ أُسرتي مثلثاً بلا ذراعين، كلارانس وأنا، بياتريس وأنا، ثنائيين عموديين، وكان هذا، مثلما أشرت سابقاً، منذ ماقبل ولادة ابنتي، حين لم تكن سوى مشروع، ورغبة، تشكلتْ فيَّ أكثر مما في زوجتي، التي لم تحمل بها إلا من أجل إرضائي.

باحت بياتريس بأول تجربة حب حمقاء لي أنا. تأثرتُ وشعرت بالإطراء إلى درجة لم أفكر معها بالتصرف كأب؛ إذا كان قوام التصرف كأب هو الإدلاء ببضع كلمات لائقة، وبضع مواعظ مطلقة لاتحتمل النقاش، فإن هذا الدور الذي خطَّه آخرون، لم يكن يستهويني؛ حصلت على ماهو أفضل، حصلت على امتياز ثقتها، دمعتين ذرفَتْهما فوق قميصي، دمعتين

غطَّيتُهما براحة يدي كما لو أنني أردت مَنعَهُما من أن تجفَّا.

كذلك كنت أنا من اقتَدَتْ به بياتريس حين اختارت أن تدرس البيولوجيا بدلاً من الصحافة.

كانت أمور قبيلتي قد وصلت إلى هذا المستوى حين جاء حادث كلارانس ليقلب اللعبة القائمة. طالما أن الأم كانت أماً والابنة ابنة، فإن العلاقة بينهما ظلَّت باردة، ونوعاً ما منشّاة. الصورة التي كنت أناديها بكل قواي، صورة أب وأم متحاضِنَين، منشرِحَين حول مهد، لم تتحقق أبداً؛ لدي على طاولتي، في اللحظة التي أكتب فيها هذه الأسطر، صورة أخرى مؤطرة: أب وابنة متحاضنَين حول كرسي نقَّال. بهذا الشكل اجتمعنا من جديد، بفضل تبادل الأدوار هذا كانت بياتريس تتصرف بحنان أمومي، وكانت كلارانس ذات مسلك بَنَوي صلب. المهم لقد أصبحتا صديقتين في نهاية الأمر.

بعد هذه الفترة الطويلة جداً من الكمون، لم يعد ممكناً، أن تؤول علاقتُهما إلى الركود في مياه ضحلة، وهذا ماينبغي. فقد أصبحت، دفعة واحدة، علاقة جامحة ونَهِمة، مثل علاقة حب بحَّارٍ وفيّ. كانت أيضاً علاقة مثمرة.

في أحد الأيام، لدى عودتي من متحف العلوم الطبيعية، رأيتهما في حال غير متوقعة: كلارانس جالسة في أريكتها، تُملي جملاً تتدافع بقوة، وبياتريس جالسة أرضاً، مقعية أمام الشاشة، تكتب، موقِّعةً بنزاهة كمن يوقّع على البيانو، كلام الأم. أحياناً، عندما كانت رفيقتي تصمت، تحاول ابنتُنا أن تطرح سؤالاً أو تقدم اعتراضاً. كانتا تتجادلان، تتحمسان،

تعيدان القراءة، تصححان سوية. عمل مشترك لهما كان يتشكل. «طفل» لهما، لم أكن أنا في أفضل الأحوال، أكثر من عرَّاب له.

لو أن رجلاً آخر في مكاني، لَشَعَر بأنه مهدد ومعزول. أنا لست هكذا، كان لقاؤهما يفعمني. كنت أراقبهما، أستمع إليهما؛ ولكي أقاطعهما أو أناديهما أقول: يا «بنات!»، مفتوناً بِكَوني أشملُهما بهذا الشكل، دون تمييز بين الأعمار، بالتسمية الحامية ذاتها.

حين نُشرت مقالاتهما، مسلسلةً، في صحيفة يومية ذات سمعة، ضمنت لهما الأخبار اليومية جمهوراً واسعاً ومهتماً.

لم تكن فكرة المنطلق جديدة: يوجد لدى المجتمعات الإنسانية، كما لدى الأفراد، مبدأ مذكر، هو مبدأ عدواني، ومبدأ مؤنث، هو مبدأ استمراري. بعض الرجال يعانون من فرط في الهرمونات الذكرية، أو من وجود صبغيّات مذكرة فائضة؛ هؤلاء يكونون أذكياء أحياناً، ولكن ذكاءهم مشوه، كما يقال، بعدوانية مفرطة، غالباً ماتتجه نحو الإجرام؛ وربما ضمّت حوليات المحاكم حالاتٍ لاتحصى من هذا النوع. أليست هذه هي الظاهرة التي نشهدها، تساءلت كلارانس وبياتريس، ولكن على صعيد الكوكب؟ ألم نتسبَّب، نتيجة خطأ بعض العلماء عديمي الذمة، وكذلك نتيجة ذلك «الصدع الأفقي» الذي لم يستطع أحدٌ تَداركَه، بحدوث اختلال هائل في مجتمعات، وإثنيات، وشعوب، وربما في الجنس البشري بكامله؟

لا أريد أن أجادل في قيمة هذا الطرح، الذي لا تنبع قيمته من دقته العلمية بقدر ما تنبع من قدرته على التطابق بقوة مع الأحداث الجارية، التي كانت أذهانُنا الجميلةُ عزلاءَ أمامها. بناء على هذا، تكون شعوب الجنوب قد تحولت، أمام أعيننا، إثر تغير مفاجىء في الجينات، إلى كيانات مهووسة بالعنف، لأنها حرمت من أي وجود طبيعي، ومنعت من أن يكون لها مستقبل؟ كان هناك أشياء أكثر بكثير من مظهر الأشياء لأجل تأكيد رؤية من هذا النوع. أمكَنَ لكل فرد أن يتأمل أهرامات الأعمار المتفاوتة تلك، إنها نقل بارع للفظاعات اليومية؛ من نايبوتو إلى ريمال، مشاهد لاتحصى من الدخان والدم كانت تنتصب كالشواخص في ذاكرتنا، وكل منا يستشف أن المستقبل القريب سيكون بالألوان ذاتها.

حين نجد أنفسنا فجأةً على السفح الآخر من الرعب، يبدو كل شيء منطقياً، بديهياً، متوقعاً، ومحتَّماً. نعم، قطعاً، كان كل شيء متوقعاً، منذ اللحظة التي انحفر فيها ذلك «الصدع الأفقي»، منذ اللحظة التي وقعت فيها أسرار الحياة بين أيدي المشعوذين المتمرنين؛ كانت جميع المقدمات المنطقية للفوضى الشاملة موجودة في القرن الماضي: تلك المدن التي كانت تضمحل، الواحدة تلو الأخرى، تلك الأمم التي كانت تتفتت، ذلك الهرب المُنافي للعقل إلى ألف سنة ولَّت، تلك الاستبعادات، وتلك الانزواءات.

سيقال لي، يالها من حيلة عبقرية، السبب والنتيجة! من هو الذي كان سيستطيع، ضمن الاحتمالات اللانهائية، أن يتعرف في الوقت المناسب على انعطاف يوم القيامة؟ سأجيب

بأني عرفت رجالاً ونساء كانوا يقرؤون أسرار العالم بسهولة؛ بعضهم مضوا، وبعضهم مازالوا حولي، ومازلت أتدفأ بنارهم المقدسة. رجال ونساء عَرِفوا، كما سبق أن قلت، كيف يرون حدود «الصورة» داخل «اليرقة».

ولكن عليَّ أن أخصص بضع مقاطع مركزاً على «الصورة». بوسع كل إنسان أن يرى، مثلما أرى، الشكل الذي راح العالم يتشبَّهُ به اليوم. لاشيء سيكون مجهولاً فيما قد أصفه بأنه مجهول، لاشيء سيكون مفاجِئاً؛ إنما تلك هي المهمة العبثية التي وضعتُها لنفسي، شاهد، رسام شرعي، كاتب محكمة يكتب مشاهد روائية.

كيف سيمكن، للذين عاشوا مثلي، عصر الحواجز المموَّهة، والكون الذي يرتبط بنفسه بألف طريق مضيء، التعرف على أنفسهم في هذا الكوكب المقطَّع بحواجز. أبداً ما كنت لأصدق أن هذا الانبساط قد يكون زائلاً، وهذا القدر من الأسوار، التي يصعب اجتيازها، قد يقام في الطرقات وفي العقول.

انغلقت بلدان الجنوب، بلداً إثر آخر، ومثلما يحدث في مخيم، انطفأت النيران في الليل. ولكن لم يكن ذلك من أجل فترة من النوم. فقد كانت الظلمة تُطبق نهائياً، أما الأجفان فلم تكن تنتظر الفجر.

زوَّدَنا القرن الماضي بمئة نموذج لمجتمعات كانت تغرق فجأةً في العته. كان الناس يتعهدون أن يرأفوا، إلا أنهم كانوا يتكيفون. كان العالم مايزال يركض في دُوار من

الصياح، أما المتخلفون، والمتورطون، والمنهكون فأمرهم لله، التاريخ في عجلة من أمره، ولايستطيع التوقف في كل محطة من المرارة. ولكن، إلى أين كان يمضي هذا التاريخ؟ كان لديه موعد مع ماذا؟ وفي أي تاريخ؟

من هو إذن ذاك الذي كان يجرؤ أن يتنبأ بالنكوص؟ النكوص، فكرة كئيبة، مضحكة، شاذة، غير لائقة. نتشبث بأن ننظر إلى التاريخ وكأنه نهر يجري في مشهد مسطح، يجنُّ في الأرض الوعرة، ويقاسي من بعض الشلالات. وماذا لو لم يكن سريره محفوراً مسبقاً؟ وماذا لو عجز عن الوصول إلى البحر وضاع في الصحراء، تائهاً وموزَّعاً إلى قطع عديدة من سبخات راكدة؟

كلمات مخيِّبة؟ آمل فقط أن يتاح لـِ بياتريستي أن تشيخ في عالم بُعث من جديد؛ وأن يُتَوصل، في المستقبل، إلى حصر هذه العقود اللعينة بين قوسين هائلين.

منذ ماقبل حوادث ريمال، نصحتْ بعض بلدان الشمال رعاياها بعدم التوجه إلى المناطق الخطرة. وهي دعوة متحفظة، تنحصر مبدئياً بالمناطق التي سبق أن شهدت فيضاً من التقتيل، مثل نايبوتو.

لم تظهر ريمال في القوائم أبداً بالطبع، فقد أزال الجنرال عبدان الخطر، أليس كذلك، واجتث العنف؛ ما كان أحد ليوجه في حقه إهانةً بالكلام عن خطر. كان سقوطه العنيف جداً، والمصير الذي لاقاه الأجانب الذين كانوا يعيشون تحت

حمايته، أشياء تعني أنه لم يعد هناك أية وجهة آمنة منذ اللحظة التي يتم فيها اجتياز خط العرض الجهنمي.

كف السعي لمراعاة الحساسيات الديبلوماسية، وبوشر بترحيل العائلات المقيمة في الجنوب بعشرات الآلاف. بقي عدد ضئيل من دواوين القنصليات متمسكاً بتمييز أخير بين البلدان التي كان العنف فيها «معلناً»، وتلك التي كان مايزال فيها «كامناً». زالت هذه الفوارق، على أية حال، في النداء الذي كان يسري في العالم : انجوا بأرواحكم.

ارتكاسة مفهومة جداً لكنها عجَّلت في التدهور. فكيف يمكن للسكان المحليين أن يتابعوا مجرى حياتهم اليومية، أمام مشهد الآلاف من المغتربين الذين يجمعون أمتعتهم على عجل لكي يذهبوا ويتكوموا في المطارات؟ لقد أخذ الجنون ببلدان عديدة كانت حتى ذلك الوقت شبه هادئة؛ أُضيفَ إلى رحيل الأجانب، رحيلُ النُخب المحلية، وحتى رحيل أناس من العامة، الذين كان المستقبل يثير الرعب في نفوسهم.

حتى اليوم، في الوقت الذي نعرف فيه أشياء أكثر بكثير حول سبب الأحداث التي ابتلي بها الكوكب، كم من الناس مازالوا يرفضون أن يروا في سكان الجنوب ضحايا ولايحتفظون إلا بصورتين لهم: هذه الكثرة المهاجرة، إنهم قريبون منا، قريبون جداً؛ أو تلك العشائر المعتوهة، في البعيد، المستبسلة في هدم عالم لم تعد تفهمه، والتي كانت تعاقب نفسها بنفسها قبل كل شيء. ربما تقوم محكمة للتاريخ يوماً ما، بإصدار حكم متأخر بتهمة «حرمان من المستقبل».

هنا، في الشمال، لاتصيبنا المصائب إلا بطريقة غير مباشرة. لنفكر أحياناً بأولئك الذين يتعرضون للصدمة. لنفكر بتلك البلدان التي ما عاد أحد يجرؤ أن يخاطر بالذهاب إليها، والتي أُغلقت دون العالم الخارجي، وتفككت إلى قبائل تقاتل كل منها الأخرى بضراوة، في قلب البؤس الشامل، وقد هجرها أفضل أبنائها، تمارس بقاءها في الخرائب مثل الأعشاب المجنونة. وفي الأفق خرائب أخرى.

في ريمال ، كما في ثلثين كبيرين من الكوكب، صار الزمن من الآن فصاعداً يراوح في مكانه. لم تعد الطائرات تحط، ولم تعد تقلع، كان هناك فقط قاذفة قنابل قديمة. والطرقات، الممتدة إلى ما لانهاية، والتي شقها الجنرال بنفقات مفرطة، كما لو أنه أراد أن يُطَوِّق الصحراء بها، امَّحت خلال بضعة أشهر، غارقة تحت الرمال المنتقِمة. المناجم عادت مغائر، والآلات انحلَّت بصبر في الصدأ والنسيان. في الأحياء الحديثة، مازالت الأبنية قائمة، لكنها مسودَّة، مشجوجة، ومعظمها مبعوج. آثار وقحة لحضارة ذات يوم. تقول الأحجار، هاقد انقضت ألف سنة، ألف أخرى.

مازال الناس، من ريمال، من نايبوتو، من كل الشرق القريب أو الأقصى، ومن أفريقيا، وأيضاً من أكواخ العالم الجديد القذرة، يهربون كلما استطاعوا، بالمراكب أو على ظهور البغال. حَمَلة الأنوار القديمة، الأخيرون، يهربون مثلما تهرب الكلمات من فم رجل يموت.

للوصول إلى الشمال، حيث البحر المتوسط، وريو غراندي، لاتوجد أية حاجة للبوصلة، سبقهم الأكبر منهم،

الطريق منقوشة على مورثاتهم، مشقَّاتها عذبة، وقسوتها مصفوح عنها مسبقاً. الكثيرون في البلدان المستقبِلة، يعتبرون أنهم تعرضوا لاجتياح؛ ولكن ما العمل، لايعاد قذف الغريق في الماء.

أذكر أني قرأت قديماً، بقلم كاتب من أصحاب أفضل النوايا، وصفاً مجازياً غريباً. كوكبنا، يقول المؤلف، يشبه صاروخاً بطابقين، أحدهما ينخلع ويقع ثانيةً على الأرض، ويتحطم أثناء سقوطه؛ والآخر ينفصل، ويندفع في الفضاء، سليماً ومتخففاً من حمله.

حتى في اللحظة التي نشر فيها ذلك النص، كان من السهل أن يتهكم المرء، متخيلاً على سبيل المثال، ما الذي كان سيحدث لو أن أسفل الكوكب تحطم وهو مازال معلقاً بأعلاه بواسطة مسمار لم يُحلّ جيداً... ولكن أوهام معاصريَّ كانت هكذا، ساذجةً، مخزيةً، وحقيرة؛ إلا أنها مع ذلك مشروعة، مثلما هي جميع ارتكاسات البقاء.

X

هل أستطيع أن أنكر أن ساعة الفراق تُحلِّق بلا انقطاع بين الأب والابنة. كنت آمل فقط ألا أعيشها بالأشكال القديمة، أمد ذراعي لبياتريس عند باب بناء، أرافقها بضع خطوات خرقاء، أُسلِّمُها ثم أعود إلى الصفوف، أحتمل النظرات الخاصة بالمناسبة دون تأثر... لا، قلت لنفسي، لم تعد ساعات الرحيل تُعاش هكذا. لا ثوب ولا طَرْحة. لاذراع أبوية ولا مدعوون. عندما سيحدث هذا الأمر لن يكون مثبَّتاً إلى تاريخ معين.

قمة الاحتياطات، هي أنني انفتحت في وقت مبكر جداً على ابنتي، منذ ماقبل مغامرتها الأولى: كنت ألح بأن غرفتها هي غرفتها، وأن هذا البيت هو بيتها، وأن بوسعها، كما يحلو لها، أن تغادره ثم تعود إليه، وحدها أو مع أصدقاء؛ مهما ذهبت بعيداً، ستحتاج أن تحافظ في «خلفية رأسها» على عزاءِ وجودِ ميناءِ ارتباطٍ تحتفظُ فيه على الأقل ببعض الأشياء من طفولتها. قالت «نعم»، بتأثر، وأسمتني، مداعِبةً، بكل الأسماء الملاطِفة التي أحبها. كنت مطمئناً وفخوراً.

إذا أخذنا كل شيء بعين الاعتبار، فإن الحياة لم تكن ضارية بالنسبة لبيتي، هزته قليلاً فقط. بما كان كافياً فقط لاستمرار الحياة.

حين بدأت بياتريس تصادق مرسي، لم أضطر لبذل أي جهد من أجل نيل صداقته. كان من أب مصري وأم من السافوا؛ هي التي أصرت، مع ذلك، أن تسميه بهذا الاسم، الذي كان يسخر منه بطيبة قلب. «حين أقدم نفسي، ألفظ مرسي بسرعة كبيرة؛ الرجال يسمعون مارسيل والنساء موريس!» حدَّثتُه، بالطبع، منذ لقائنا الأول عن زيارتي المختصرة والوحيدة لبلده، وقت انعقاد المؤتمر عن الجُعَل.اعترف لي أنه هو ذاته قد عاش على الدوام في فرنسا أو في سويسرا، وأنه لم يذهب إلى القاهرة إلا مرتين، لقضاء إجازتين قصيرتين؛ وشعرت كلارانس بالخيبة من كونه لم يطأ الاسكندرية ، المدينة التي تتباهى بأنها منها.

ـ كنت أظن أن أسرتك جاءت من سالونيك، قالت بياتريس مندهشة.

ـ وأنا من أوديسا، قلت بسوء نية تام.

وضعت كلارانس يدها على كتف مرسي.

ـ اشرحْ لهما أن وطني هو مجرَّة من المدن! اشرحْ لهما أننا، أنت وأنا، ولدنا من نور الشرق، وأن الغرب لم يفِق إلا على أنوارنا! قل لهما إن الشرق لم يكن على الدوام غارقاً في العتمة! احك لهما عن إزمير وأنطاكية وسالونيك، وعن وادي الملوك، والأردن، وعن الفرات. ولكنك ربما لاتعرف!

كانت تتكلم بمزيج من التشدق ومن السخرية، وكان مرسي حزيناً، مثلما يمكن للمرء أن يكون عند رؤية دموع مهرج.

مع ذلك فلم يكن يغلب عليه الحزن. التقت به بياتريس في

المخبر حيث تم توظيفها للتو؛ كان يعتبر أكثر الباحثين فيه براعة، لكنه الأكثر إضحاكاً أيضاً . مزيج ممتع فُتنتْ به منذ اليوم الأول. كان لهما اللون البرونزي ذاته، الطول ذاته، والعمر ذاته مع فارق بضع شهور، كانا يعطيان الانطباع بأنهما عاشا على الدوام يداً بيد. سرعان ما أصبح مرسي، بشعره القصير والأجعد، ورأسه البيضوي المنقول عن جدارية فرعونية، وضحكته الصريحة، إنما المُراعية، جزءاً من حياتنا العائلية.

كان أبواه يعيشان في جنيف، وكلاهما مختص بعلم الأدوية؛ هو كان جاراً لنا، بعد أن عثر لنفسه على استديو صغير قرب رملة لوتيس. كدت أقترح عليه أكثر من مرة ، عن طريق بياتريس، أن يأتي ويقيم عندنا، إلا أنني لم أفعل ذلك قط. لم أكن أشعر أن من حقي تعجيل الأمور، أو نقلها إلى إطار الشكليات.

لم يمضِ مرسي الليل في شقتنا قط، أفترض أن ذلك يعود للتحفظ الشرقي؛ وكانت بياتريس بالمقابل، كثيراً ما تتغيب، خاصة في نهايات الأسابيع. وفي أحد الأيام، لدى عودتي من متحف العلوم الطبيعية، وجدت أشياءها موضوعة في كرتونات قرب الباب. شرحتْ لي كلارانس وقد أدركت انفعالي، أن ابنتنا كانت بحاجة، وهي في الخامسة والعشرين من عمرها، لأن تعيش حياة كاملة مع رجل. أوشكتُ أن أناقش. همست بـِ «لماذا؟» تدعو للشفقة، وبقي سؤالي معلقاً. ذهبت وأغلقت على نفسي، بكرامة، في مكتبي، مصمماً ألا أخرج إلا بعد أن تكون الكرتونات قد نُقلت.

أنا الذي كنت أخشى أن ينزرع رحيل بياتريس في

ذاكرتي باحتفال ما... لم يكن هناك سوى هذه الكرتونات، والكتب المكدسة، والثياب المطوية، والصور المؤطرة، ثم هذه الغرفة التي كانت مرتبة بعناية شديدة، ينظمها الغياب الآن. طفتُ، كي أسلي نفسي، على مجموعتي من مغمدات الأجنحة، معيداً لصق بعض الأسماء التي تزحزحت من أماكنها.

حين سئمت، ولم يكن ذلك قبل العشاء، ذرفت الدمعتين النظاميتين، لم أخرج عن المعايير؛ هكذا، في ارتباطات الحب، لايعدُّ المرء العدَّة من أجل الرحيل.

في اليوم التالي، حضرت بياتريس ومرسي للفطور، وقدَّرتُ هذه اللفتة اللطيفة. بدت ابنتي مبتهجة، وأكثر ظرفاً من المعتاد، كما لو أن طفلتي أرادت أن تقول لي إنها ماتزال تعرف أن تكون طفلة.

لم يكن أحد منا نحن الأربعة يشك بأنها حبلى. كان يجب أن أعلم بذلك من خلال عطفةِ نقاشٍ دارَ بعد أسابيع. كانت قد أذيعت للتو تحقيقات حول مصير النساء في ريمال، كما في بلدان أخرى من الجنوب. كان بوسعنا الافتراض أنهن، بسبب ندرتهن المتزايدة، ربما يحظين بالتبجيل، والحب، والملاطفة؛ بينما صرن فقط أكثر عرضة للطمع بهن. ربما كانت هذه هي أسوأ صورة تحفظها عنّا القرون القادمة، هؤلاء النساء المترهبات، المحاصرات، ملكيات ثمينة لقبائلهن، رهان نزاعات دامية؛ لم يكنَّ يستطعن الخروج إلى الشارع دون مرافقين، خشية الاغتصاب والاختطاف. « هاقد عدنا، قلتُ ملاحِظاً، إلى زمن اختطاف السبايا!»

وضعت بياتريس يدها فوق يد مرسي، وأفلتتْ جملة:

«أتمنى أن يكون صبياً!» كان صدور أمنية من هذا النوع على لسان بياتريس، غير لائق! مع ذلك، لم أتوقف عند هذا، بل توقّفتُ، كيف أعبِّر، عند النبأ الخام: نهضتُ في الحال، أحطتُ الكرسي الذي كانت تجلس عليه ابنتي، ثم انحنيتُ فوقها، وضعتُ شفتي فوق جبينها وراحة يدي فوق بطنها الذي مازال مسطحاً. «أنا في الشهر الثالث»، ضحكتْ لكي تعطي نفسها بساطةً وصدقاً.

رحت أراقب كلارانس بطرف عيني، كانت تشعر بقدر ماشعرتُ به من المفاجأة، لكن رد فعلها كان مختلفاً.

ـ هل هذا زمن من المناسب أن يولد أحد فيه فعلاً؟

عند المساء، عاتبتُها عتاباً مراً في غرفتنا على هذه الكلمات. أياً كانت مآسي قرننا، لا تُقال هذه الكلمات أمام امرأة تنتظر مولوداً. كانت بياتريس على مشارف مغامرة مهيجة للنفس وصعبة، وليس الغم هو ما يجب أن نحيطها به؛ والطفل الذي سيولد، هل علينا أن نستقبله بهذه الطريقة؟ كائن وحيد يمكن أن أحبه بقدر ما أحب بياتريس: إنه طفل بياتريس. حتى إن تعبت من الحياة، فسوف أجدد عمري عشرين عاماً، لا لغرضٍ آخر سوى رؤية هذا الشيء الصغير يكبر، واصطحابه في نزهات إلى البساتين، ورؤية وجهه يشعّ لمرأى لحية جده.

التصقت كلارانس بي.

ـ إنك تشتعل هذا المساء، قالت، ضمني إليك، أريد أن أجني حبك وأودِعه فيَّ، كلّ حبك لي، لبياتريس، ولطفل بياتريس.

الحب كَـ زَوَغان، العناق كَـ حجة نهائية، والاستمتاع كنقاط فاصلة، هل كان بوسعي أن أشكو من هذا التحول في مجرى الأمور؟ عرفتْ كلارانس على الدوام كيف تفوز بجسدي لصالح قضيتها؛ هدأت أفكاري حتى الصباح.

وفي الصباح، صوَّبتْ كلامي، من حيث الجوهر فقط ـ لم تشاركني قط شعوري السعيد بالعَجَب أمام الطفولة ـ، حول الموقف الذي يجب أن نتخذه في حضور ابنتنا على الأقل. أضافت مع ذلك، على سبيل الملاحظة، بعناد وتَفَكُّر:

ـ...لكن بياتريس محقة في رغبتها بولد في هذه الظروف.

ـ أية ظروف؟ لسنا في ريمال، ولا في نايبوتو، إن لم أكن مخطئاً!

ـ بالتأكيد، ولكننا نقيم على الكوكب ذاته. ماهو الشر الذي سيمكن منعه من الانتشار؟ الأحقاد مُعدِية، والنكوص يمكن أن يكون كذلك.

لم يسبق لي أبداً أن استمعتُ بخفة لرؤى كلارانس، فمن بين جميع السيناريوهات، كانت تميل لأكثرها هولاً؛ وكان لدى التاريخ، مع الأسف، الميل المزعج ذاته في بعض الأحيان. لا أحد منهما، سواء هي أم التاريخ، كان يتيه في التحليلات؛ كانا يكتفيان بالنطق بالأحكام.

كلارانس والتاريخ، شخصان في حياتي، شريكان في الغالب؛ لكن أحدهما ينطلق من أقصى الوضوح، والآخر من أقصى العماء.

٢

تحققت رغبة بياتريس، وأنجبتْ صبياً، أسمتْه فلوريان. حين ذهبتُ إليها، بعد ساعة من الولادة، أدهشني أن أرى رجالاً مسلحين في الممشى. سبق أن رأيت، في السينما وليس في الحياة، رجال شرطة في أحد المشافي، من أجل مراقبة سجين مريض، أو حراسة ضحية عملية اعتداء، أو شخصية مهدَّدة. أما في دار توليد؟ كان افتراضي الأول هو أن سجينة جاءت لتلد. مرسي هو الذي صحح لي خطئي:

ـ هذا بسبب الشائعات.

ـ أية شائعات؟

آه، بلى! الآن تذكرت. منذ بضعة أشهر، سرت شائعات تقول إن عصابات من المتاجرين القذرين قامت باختطاف فتيات حديثات السن بهدف عرضهن «للبيع» في المناطق التي تفتقر إليهن. اكتفيت برفع كتفيّ إلى الأعلى، وبمعنى ما، لم أكن مخطئاً. الذُّهان الذي خلقته هذه الشائعات لم يكن يقارن مع الوقائع المثبتة. إذا نظرنا للمعدل الوسطي بين السنوات الجيدة والسنوات السيئة، نرى أنه كانت هناك على الدوام حوادث اختفاء أطفال وفتيات؛ وعلى حد علمي، لم يستطع أحد أن يثبت قط، أن حوادث اختطاف من هذا النوع قد حدثت

على مستوىً مختلفٍ اختلافاً ذا مغزى، خلال الأعوام التي أتحدث عنها.

الشيء الذي كنت مخطئاً فيه، بالمقابل، هو أنني لم أقدِّر جيداً حجم الخوف الذي كان يتفشى. ربما كنت أدركته أكثر لو أن بياتريس أنجبت بنتاً.

من يرصد هذا الخوف مع ابتعاد الزمن، يجد أنه مفهوم جداً. في الشمال بلغت الأجيال الطائشة سن الرشد. سبق لي أن شرحت كيف تم تجنُّب الأسوأ، وأكرر هنا أن عدم التوازن بين الصِّبيَة والبنات كان مايزال متواضعاً إذا ما قارنَّاهُ بالتفاوت الحاصل في الجنوب. لكنه لم يكن بلا دلالةٍ مع ذلك، وكان الأخصائيون يُرجعون إليه صعود الإجرام بين المراهقين. شهدت بعض المجتمعات، بُعيد الحروب، فتراتٍ كان عدد النساء فيها فائضاً؛ ولكن، رغم البؤس، ورغم الحرمان والتقنين، كانت تلك الفترات في نظر التاريخ، فترات من الهدوء استعادَ فيها البشرُ أنفاسهم؛ حتى اللحظة، لم يلاحظ أحد قط، مجتمعات بالحجم الطبيعي، يكون عدد شبانها الذكور فائضاً بشكل ساحق.

لو أن ذلك التفاوت حصل في وسط سويّ، ربما كان بالإمكان التصدي له بقدر أكبر من الصفاء. لم يكن الأمر كذلك قطعاً. بعد أحداث ريمال، هبَّتْ رياح من القلق على العالم، انقطعت بشراسة، تيارات تبادل عريقة وتباطأت التيارات الأخرى، ضاق العالم بشكل ظاهر وضَمرَ، مثل تفاحة مريضة أو ناضجة جداً؛ كانت ريمال منذ عهد قريب، حاملةَ لواء شكلٍ من أشكال الازدهار؛ وكان سقوطها ينذر إنذاراً عنيفاً، بقدوم عصر جديد هو عصر النكوص والعياء.

أفضّل هذا التعبير على تعبير «الاكتئاب الشديد»، الذي يتمسك به معاصرون يفتقرون إلى الخيال. هذا لا يعني بأنني أنكر أي شبه بالخميس الأسود من عام 1929، وجميع أشكال القلق الجليلة للقرن المنصرم. إلا أن المقارنات تُخفي بقدر ماتكشف. لايشبه عصر بياتريس أي عصر آخر، حتى لو اكتشفنا هنا وهناك في ملامحه بعض الفظاعات المتخلفة من عصور ماضية.

يشرح علماء الاقتصاد بشكل أفضل مما يمكنني أن أفعل، كيف زعزع انهيار الجنوب رخاء الشمال. يعرفون كيف يصِفون الذعر في ساحات البورصة، والإفلاسات المتلاحقة، والشركات المنهارة، والانتحارات. نُشرت كتبٌ تورِدُ الأرقام الدالة على الفقر الجديد.

لكن الأرقام لاتفعل شيئاً سوى أنها تُتَمتِمُ بما تصيح به الطرقات بأعلى صوتها، جميع هذه الطرقات الخالية، الباردة من الرعب. أن تجتاز شارعاً رئيسياً في باريس، كان منذ عهد قريب يعج بالناس، وتكتشف أنك وحيد فيه، أن تسمع صوت خطاك، وتشعر أنك مُراقَب، وربما محسود لأنك ترتدي معطفاً جديداً، أن تمر أمام مقهى، وتكتشف أنه قد حُجز عليه للتو بشبكة من الحديد؛ أن تصل إلى مقهى آخر، وتجد نفسك وأنت تهمس فيه في أذن صاحب المقهى ببعض التفاهات الانهزامية. هذه هي روح عصر بياتريس.

لم تَحِلّ هذه الروح في كل مكان بالوقت ذاته. احتاج الفقر إلى سنين لكي ينتشر، باعتباره وباء ذا ڤيروس كسول، لكنه معدٍ بالتأكيد. توافقت عادات العيش معه: كثير من الناس

كانوا بالكاد يملكون ما يبقيهم أحياء؛ أولئك الذين كانوا يستطيعون الإنفاق، كانوا يخافون أو يخجلون من القيام بذلك؛ امتلأت المدن الكبيرة بالعنف، وأصبحت الأرياف أقل حفاوة بشكل متزايد.

لم تكن شائعات الاختطاف سوى عرض من أعراض الشر. عُززت الرقابة في دور التوليد، وأمام الحضانات، والمدارس. كنت أبارك السماء كل يوم لأن بياتريس أنجبَتْ صبياً. أولئك الذين كان لديهم بنات كان يتعين عليهم مرافقتهن دون توقف؛ كان يجب مرافقتهن حتى وهن مراهقات، ومن الأفضل أن يرافقهن أكثر من شخص .

اضطرت جميع حكومات الشمال أن تكرس مجهوداً متزايداً من أجل الأمن. ولكن إذا كان منظر هذه الترتيبات، يردع بعض الأشخاص عن ارتكاب جُنَحِهم، فإنه كان يذكِّر السكان «العاديين» بانعدام الأمن السائد، ولا يشجعهم على المجازفة بأنفسهم في الشوارع.

كان الناس إذن، يَلزَمون بيوتهم، لشدة سوء حظ البقالين وأصحاب المطاعم، ومنظمي الاستعراضات. وماذا يفعلون في بيوتهم؟ كانوا يشاهدون على الشاشة المنزلية، روايات العنف اليومي، في مدنهم الخاصة والمناطق المجاورة أولاً، ثم روايات المناطق البعيدة ولكن المُرهِقة كالهاجس، والتي كانت مستمرة بدون انقطاع في بلدان الجنوب.

عصر النكوص والعياء هذا، كان ـ ما الذي يدعوني للكلام بالماضي؟ لم يكن، إنه الآن كذلك ـ عصر الارتياب وعصر كل الخلائط. يبدو فيه الغريب، الأسمر البرونزي، ذو الشعر القصير الأجعد، ناقلاً متجولاً للعنف. لم أر الأشياء أبداً

من منظور هذه الأيام، ولن أراها هكذا أبداً. المرأة التي اخترتها وأحببتها، البنت التي أنجبتها لي، والصهر الذي استقبلته وتبنيته، ينتمون ثلاثتهم إلى الخليط الأسمر للمهاجرين، وأنا نفسي، بحكم الولاء، وبحكم الحب، بحكم القناعة أو بحكم الطبع، لطالما شعرت أني متضامن مع هذا الخليط. لكني لن ألقي باللوم على جيراني الخائفين. لا أحتقر خوفهم. وأحترس من الاستنتاجات، هم يرون ظاهر الأمور. يعتبرون أنهم تعرضوا لاجتياح من قِبَل شقاء العالم، والأحقاد التي يحملها هذا الشقاء، متاعاً كريهاً لا يجرؤ بعضُ المهاجرين أن يتخلصوا منه.

ماذا كنت سأقول لو أن الناس مازالوا يستمعون؟ هل كنت سأقول إن الأجداد يتحملون قسطاً من المسؤولية؟ وأننا نتحمل قسطنا المرهق منها؟ إن الشقاء مرشِد سيء بقدر ماهو الرخاء؟ إن الخلاص إما أن يكون على مستوى الكوكب أو لايكون؟ إن...

لكن هذه اللغة لم تعد لغة هذا الزمان. حين نعجز أمام البَرَص، نهاجم البُرص، نقيم أسوار الحجر الصحي. حكمة عريقة، وجنون عريق.

𝒵

بعد الذي كتبته للتو، هل سأجرؤ أن أضيف بأن مصائب العالم قادتني، تقريباً، إلى حيث كنت أتمنى أن أصل بالذات؟

أوضّح. كانت كلارانس، فيما مضى، تتصور فترة تقاعدها، تقاعدنا، كَـ جولة لاتنتهي حول العالم. لكي تُشفى من جنون السفر، كانت تفكر أنها تحتاج ليس لحياة ساكنة، بل لطريقة أخرى في السفر إلى البلدان ذاتها، طريقة أبطأ، دون ساعة ولا مفكرة جيب، دون أي نوع من الواجبات، سوى واجب المتعة، لاشيء آخر سوى تسكع رائق في سلسلة من الأماكن.

جاءت الأحداث لكي تشوه أحلامها المتصلة بالشرق، وتمزق صورتها عن المناطق المدارية. أصبحت ممنوعة من الهرب، بسبب حالتها قليلاً، وبسبب حالة الكوكب بشكل خاص.

عندما كانت مشاريعها ماتزال ذات معنى، كانت كلارانس تحدثني عنها في مساء الأيام المرهقة. كنت أدعها تبحر. في تلك اللحظات أمسكها من خصرها برقة، كما لو أننا نقوم بنزهة ونحن ثابتين في مكاننا. حين ترجع رأسها إلى الخلف، كنت أراقب وجهها المشرق، لم أكن أقبّل إلّا شعرها المبيضّ بالكاد، وكتفيها الأسمرين العاريين. لم أكن لأعيق

حقل رؤيتها، لقاء أي شيء في العالم.

وبالطبع، لم أكن أعارضها. كان لدي مع ذلك مفهوم مختلف تماماً لتقاعدنا؛ كان مفهومها متعطلاً ومتنقلاً، ومفهومي مجتهداً وساكناً ـ ميكروسكوب في مستودع في السافوا. ولكني ما كنت لأفرض هذا الدير على رفيقتي، بل كنت سألحق بها أولاً على الطرقات، ثم، وبمساعدة العمر، تلحق بي هي إلى كوخي. أراد القدر أن نُسقط مرحلةً، هي مرحلتها.

كانت أحلامي منذ سنين تسكن في جوار الألب؛ حيث وافتها أحلام كلارانس. كنا نطمح حالياً أنا وهي، أن نعيش في هذا المكان الذي هو أشبه بمرقب مائل فوق سطح أوروبا؛ ربما نستطيع، إذ نبتعد بهذا الشكل، أن نحافظ على صحونا، آخر مايتبقى للكائنات التي تشيخ من الكرامة.

في السنة الثلاثين من قرن بياتريس، نقلت مكتبتي، وأدواتي، مجموعة حشراتي، وثيابي الشتوية إلى أرافيس. هكذا، كُرس مكان الاصطياف، مكاناً للإقامة النهائية، لجميع الفصول المتبقية لي.

كانت المدينة قد أصبحت لاتطاق، بالنسبة لي. الناس يسيرون بمحاذاة الجدران، بهالات رمادية، ونظرات رمادية؛ يخيَّل لي أن الأمر كان مشابهاً لزمن الحرب الثانية، حين كانت الليالي باردة ولا يوجد فحم. أما اليوم فليس هناك حرب ولا برد، هناك كَلَل. طعم الهزيمة لكن بدون الإثارة المرافقة للعمليات الحربية. الشتاء في الأحشاء، شتاءٌ لاتنفع أية نار في تلطيفه.

لم أعد أتعرف على الناس ولا على الشوارع، كنت أنتفض أحياناً وأنا أستمع إلى أفكاري الخاصة. الخوف يولِّد مُسوخاً.

كان خوفي الخاص مزدوجاً. كنت، كابن مدينة، أحدج كل وجه مجهول، وكل تجمع، بنظرة حذرة؛ أتمنى لو أستطيع، بحركة، أن أحيل جميع المارة الذين كان ظلُّهم يقلقني، إلى رماد... في أحد أماسي الشتاء، رأيت في زاوية شارعي، مجموعة من الشبان الذين أشعلوا على الرصيف نوعاً من نيران الأعياد، التي كانت تُفرقع. في الماضي كان الأمر سيسليني، وكنت سأمازحهم بود؛ ولكني، بدلاً من ذلك، قمت بلفة كاملة لكي أتجنبهم، وقبل أن أدخل المبنى الذي أقيم فيه، رشقتهم من بعيد بنظرة مليئة بالكره.

بعد أن أصبحت في مسكني، وأرتجت الباب المصفح بقفل ثلاثي، استسلمت للخوف الآخر، الخوف من نفسي، مما فعلَته المدينة المظلمة بي، خوف وخجل من النظرة التي ألقيها اليوم على أشباهي وعلى العالم.

كان يجب أن أبتعد، دون إبطاء، أن أستعيد الصفاء من خلال الابتعاد. وحين أكون بعيداً عن البشر، ربما أتعلم كيف أحبهم من جديد.

في الأوقات الأخيرة كان الشيء الوحيد الذي ظل يربطني بباريس، هو وجود بياتريس، وفلوريان ومرسي. لو كان عليَّ أن أهرب، فإن ذلك يجب أن يتم بصحبة ذويَّ جميعاً.

أميل عادةً، أن أدع الناس، حتى أقربهم إلي، يميلون مع ميولهم، فاحترام الآخرين، واحترام حتى غواياتهم، كان دوماً دِيناً بالنسبة لي. مع ذلك، فقد صممت هذه المرة أن أخالف هذا الدين، أظهرت إلحاحاً، متحايلاً على جميع أوتار الحب والخوف، لكي أنتزع من ابنتي قراراً. كان مرسي يتعرض أيضاً لمِضايقة أبويه اللذين كانا يقترحان عليه وكذلك على بياتريس، عملاً في جنيف حيث سيكونان على بعد أقل من ساعة من أرافيس. لارتياحي الشديد انتهيا إلى النزول عند هذا الاقتراح. ولم أستعد طعم الحياة وأعود إلى عمل ما، إلا حين صارا قريبين مني جداً.

لم يكن لديَّ بعد، مشروع وضع هذا الكتاب ـ الشهادة. الوقت الذي لم أكن أكرسه لأسرتي، كنت أمضيه خاصةً قرب ميكروسكوبي ومجموعة حشراتي من مغمدات الأجنحة. وحين أكتشف أحياناً داخل العلب الكرتونية، رسالة من أندريه ڤالوريس، أو مقالاً مقتطعاً أو منسوخاً، كنت أرتبه في أحد الأدراج، دون أن أتأخر كثيراً في قراءته.

في أية لحظة جاءتني الفكرة المرتَجَلة بأن أكون كاتبَ حَوْليَّات؟ ربما بسذاجة شديدة، حين عثرت على دفتر قديم سميك ولم يُمَسّ، يعود تاريخه ليوم مولد بياتريس بالذات. بقي هذا الشيء على طاولتي بضعة أسابيع دون أن أقرر التخلص منه، أو تصنيفه. ثم رحت يوماً أقلب صفحاته، ممسكاً بيدي قلم حبر، ووجدت نفسي قد بدأت أخط فيه مسودة الصفحات الأولى.

ما لبثتُ أن اعتدت، دون أن أكاشف أحداً بالأمر، حتى

كلارانس، ـ ربما لم أكن واثقاً، حتى هذه الأيام الأخيرة، من قدرتي على أن أنجز عملاً بعيداً بهذا القدر عن أشغالي كَـ عالم حشرات ـ، اعتدت أن أغلق على نفسي ساعات طويلة لأكتب، صفحة بعد صفحة، على إيقاع الذكريات، مسترشداً، في تنسيق الفصول، بتسلسل الحروف وحده، من A إلى Z ...

هاأنذا الآن قريب جداً من نقطة النهاية، وأشعر أني تخلصت شيئاً فشيئاً من حِملٍ لم أكن أشك أنه قاهر إلى هذا الحد. هل سينشر هذا النص يوماً؟ هل سيوجد من يهتم به؟ وخلال كم من السنين؟ أرغب أن أقول بأن هذا لم يعد من شأني. أياً كان مصيره، فقد انتهى دوري الخاص. حين نلقي زجاجة في البحر، نتمنى بالطبع، أن يصيدها أحد، ولكننا لانرافقها سباحةً.

من ثم، لا أشعر في هذه اللحظة، بأي خجل من القول بأن همي الوحيد هو أن أنقذ قبيلتي من هيجانات العالم، أن أحفظها قدر المستطاع من العنف كما أحفظها من الوهن، وأن نخصص فسحة ما في مملكتي الصغيرة في أرافيس، لسعادة العيش.

أيام لا عدَّ لها من أوقات الفراغ المجدَّة حولت عريني في السافوا إلى فسحة صالحة للسكن بشكل عظيم؛ صار في نظري يشبه الأرارات ـ تعرفون، ذلك الجبل في أرمينيا الذي يحتمل أن سفينة نوح رست بقربه ـ ؛ يرتفع الخوف في العالم مثلما يرتفع ماء الطوفان، ربما يبدو المشهد عظيماً بالنسبة لمن لم يطُلْه البلل.

عظيم، كم يفترض أن تبدو هذه الكلمة وقحة! كل مأساة هي عظيمة، مع ذلك فكلُّ نهايةِ عالم، عظيمة... ولكن من المؤكد أني كنت أنتظر أسباباً أخرى للافتتان والحماس لقرن شيخوختي.

كم من مرة تساءلت كيف وصلنا إلى هنا. في الصفحات التي سبقت، راصفتُ أحداثاً، وانطباعات، واحتمالات أسباب. وفي الوقت الذي أستعد فيه لمغادرة الخشبة، دونما استعجال، ولكن دونما أسف، أشعر بأنني مازلت عاجزاً عن معرفة، إن كان تغيير مجرى القدر، في لحظة ما، وجعله يصبُّ في اتجاه أكثر توافقاً مع أحلام البشر، ممكناً. عبثاً أعدت قراءة شهادتي ونصوصاً كثيرة أخرى تعود لهذه السنين الأخيرة، لكن حيرتي مقيمة، وأحياناً ملحَّة كالهاجس. هل كل ماحدث كان محتوماً إذن؟ يبدو لي أن لا، لاأستطيع منع نفسي عن الاعتقاد بأن سُبُلاً أخرى كانت موجودة...

كثيراً ما أفكر بهذه الأيام القادمة التي ولَّت. بل إنني أحياناً، أعود، أثناء نزهاتي اليومية في دروبِ جبلي، ستين عاماً إلى الوراء، إلى ما قبل قرن بياتريس بكثير، أحاول أن أتخيل الطرقات التي كان يمكن أن يسلكها النوع المثير للسخط، الذي أنتمي إليه.

عندئذ، وخلال الوقت الذي تستغرقه نزهة، أعيد بناء عالم مختلف. عالم تنتشر فيه الحرية والرفاهية رويداً رويداً مثلما الأمواج فوق سطح الماء. عالم لايعود فيه أمام الطب، بعد أن انتصر على جميع الأمراض وصرع الأوبئة، من تحد آخر سوى دفع الشيخوخة والموت إلى ما لانهاية. عالم أقصي

منه الجهل والعنف. عالم تخلَّص من آخر بقع الظلام. نعم، إنسانية متصالحة، كريمة وغازية، تشخص عيونها نحو النجوم، والخلود.

هذا هو النوع الذي كنت سأفخر بالانتماء إليه.

في يوم آتٍ، لن أعود من نزهتي. أعرف ذلك، أنتظره، ولاأخشاه كثيراً. سأمضي في درب مألوف. ستطفُرُ أفكاري، جَموحةً. وفجأة، وقد أنهكتني تصوُّراتي، أثملتني وهيجتني، سيبدأ قلبي بالفواق. سأبحث عن متَّكأ عند شجرة بلوط أعرفها.

هناك، وفي تلك الحالةِ، التي هي مزيج من الخَدَر والصحو الأخير، سأمتلك، لِلَحظةٍ، أثمنَ وهمٍ: سيظهر لي العالمُ الذي عرفته، كأنه كابوس فظ، وسيتخذ عالم أحلامي شكل الحقيقة. سأعاود الإيمان به، إيماناً يزداد قليلاً كل لحظة. إنه هو العالم الذي ستحتضنه عيناي للمرة الأخيرة. ستأتي ابتسامة طفل لتضيء لحيتي التي بلون الجبل. وسأغمض عيني بهدوء.

القرن الأول بعد بياتريس

في أسواق الشرق هناك حبوب «فول» عجيبةٌ. تَنسِبُ إليها خرافاتٌ قديمة، القدرة على تسهيل ولادة الأطفال الذكور.

عندما استطاع راوي هذه الشهادة، وهو عالم فرنسي مختصّ في حشرة الجُعل، أن يمتلك بعض الفولات من ذلك النوع خلال رحلة له إلى مصر، لم يعد لديه شك بأن العالم قد دخل حقبة عسيرة من تاريخه. ففي كل مكان، بالفعل، ستصبح ولادات الإناث نادرة دون سبب واضح، فهل تكون تلك الفولات مصدر هذه اللعنة؟

حاول العالم ورفيقته، عبر رحلة مثيرة أوصلته إلى خط الاستواء، البحث عن تفسير لتلك الظاهرة.

كتاب أمين معلوف هذا، الشرس واللطيف، المرح والقاسي، يتفتح على أكثر من قراءة.

إنه رواية الحب «الأمومي» لأب نحو ابنته، رواية رجل متعلق «بأنوثة العالم»، رواية ذكر لا يمكن تحديده، يُلغي النساء ويقضم الرجال، رواية اقتسام كوكبنا بين جنوب يزداد بؤساً وشمال يزداد ازدهاراً، رواية اللقاء المرعب بين مساوئ الماضي البالي ومساوئ الحداثة.

لكنه قد يكون قبل أي شيء آخر رواية النهاية المحيِّرة لقرننا، مع نظرة قلقة نحو القرن الواحد والعشرين، القرن الذي أصبح الآن حاضراً جداً بيننا، والذي يطلق عليه المؤلف، تلك التسمية الملغوزة «القرن الأول بعد بياتريس».